فتاة البحار

فيبل

أدريان يانج

مؤلفة الروايات الأكثر مبيعًا وفقًا لصحيفة نيويورك تايمز



مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
not just a Bookstore
ليست مجرد مكتبة

الغلاف الأمامي

فتاة البحار

فيبل

أدريان يانج

مؤلفة الروايات الأكثر مبيعًا وفقًا لصحيفة نيويورك تايمز



مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
...not just a Bookstore
...ليست مجرد مكتبة

حقوق الطبع والنشر

فيبل

أدريان يانج

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
... not just a Bookstore
... ليست مجرد مكتبة

فيبل

أدريان يانج

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
... not just a Bookstore
...ليست مجرد مكتبة

FABLE

ADRIENNE YOUNG

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
...not just a Bookstore ...ليست مجرد مكتبة

WEDNESDAY BOOKS
NEW YORK

روايات أخرى بقلم أدريان يانج



Sky in the Deep
The Girl the Sea Gave Back

إهداء

لوالدي،

استغرق الأمر كتابًا كاملًا

لقول وداعًا.

3 . 25 . 40

4 . 24 . 144

2 . 21 . 228

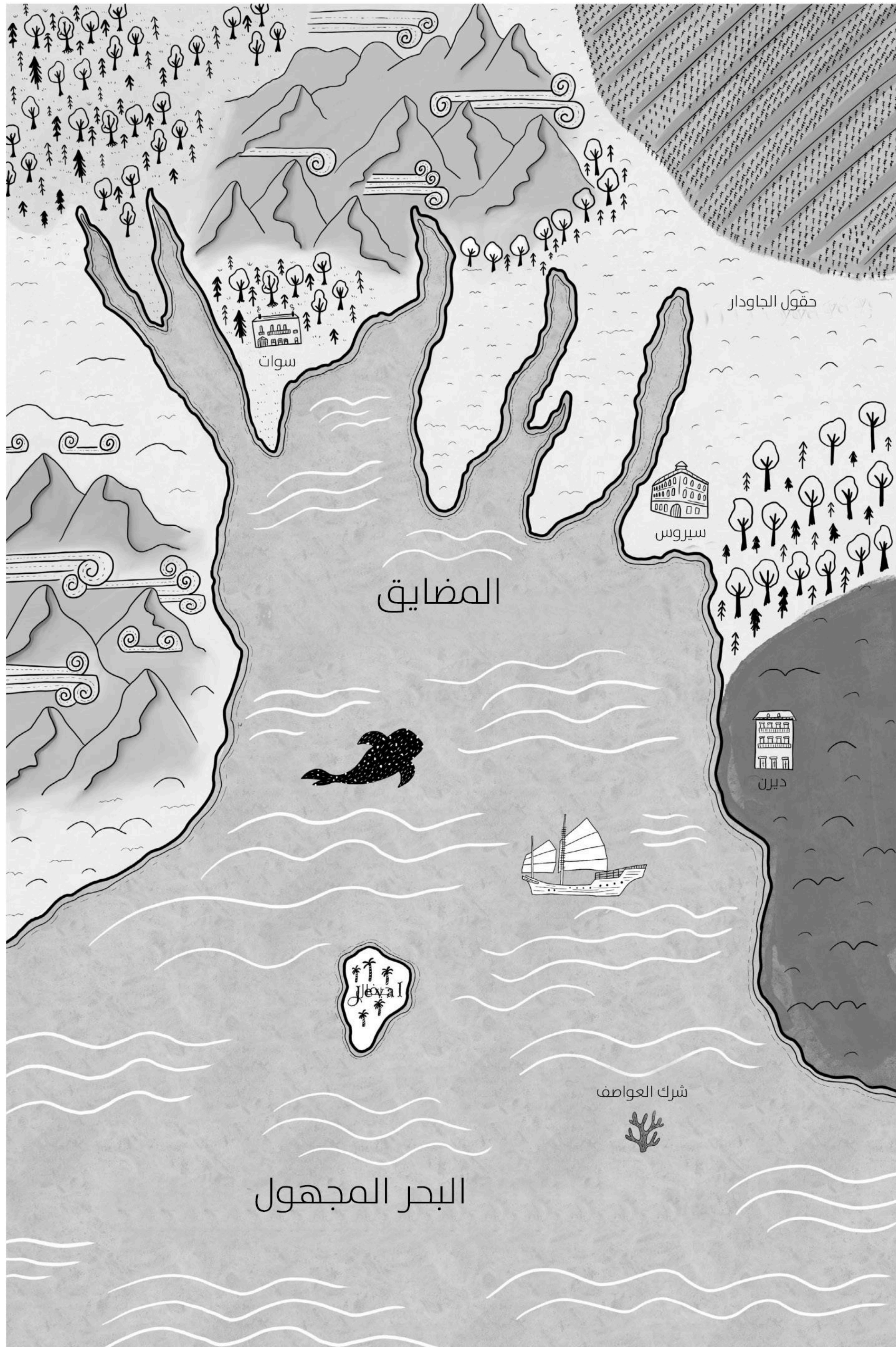
5 . 16 . 3

11 . 21 . 86

3 . 29 . 112

7 . 16 . 56

الفصل الأول


حقول الجاودار
سوات
سيروس
المضايق
ديرن
شرك العواصف
البحر المجهول

كان ذلك اللقيط بصدد المغادرة من دوني مرة أخرى.

من بين الأشجار كان بوسعي رؤية الرمال تتناثر تحت أقدام كُوي والآخرين في أثناء مغادرتهم الشاطئ. انزلق القارب الشراعي الصغير في الماء، فأسرعت الركض، وشَقت قدماي الحافيتان سبيلهما عبر جذور الأشجار الملتوية والصخور المطمورة في الطريق، وأخيرًا تجاوزت الأدغال، ووصلت إلى الشاطئ في آخر لحظة، فلمحت الابتسامة الخبيثة مرتسمة على شفتيْ كوي بينما انبسط الشراع.

هتفتُ: «يا كوي!»، لكن حتى لو كان قد سمع هتافي وسط صخب الأمواج فإنه لم يُبْدِ انتباهًا.

انطلقتُ كالسهم أقطع المنحدر حتى بلغتُ زبد البحر الذي خلفته موجة منحسرة، وغرست إحدى قدميَّ في الرمال الرطبة قبل أن أقفز وقدماي تركلان وأنا أحُلق فوق الأمواج باتجاه نهاية القارب. تشبثت بحبل الصاري بإحدى يديَّ، وارتطمت بجانب القارب، وجُرجرت ساقاي في الماء مع انطلاق القارب. لم يمد لي أحد يد العون وأنا أرفع نفسي نحو متن القارب وأغُمغم باللعنات.

كان كوي يمسك بذراع المقود مصوبًا ناظريه نحو الأفق وهو يقودنا باتجاه الشعاب المرجانية الجنوبية، وقال: «قفزة لطيفة يا فيبل» وأردف: «لم أعرف أنك قادمة».

عقصت شعري في ربطة معقودة فوق رأسي وأنا أحدجه. خلال أسبوع كانت تلك ثالث مرة يحاول فيها أن يغادر من دوني مع خروج الجرّافين للغوص. لو لم يكن أسبيك ثملًا نصف الوقت لاخترت قاربه بدلًا من قارب كوي ليوصلني إلى الشعاب المرجانية، لكنني كنت بحاجة إلى قارب يمكنني الاعتماد عليه.

تلقفت الرياح الشراع بقوة فأصدر دويًا، وانطلق القارب يمخر عُباب البحر، ووجدت مكانًا للجلوس بين جرافيْن ذويْ جلد غليظ.

بسط كوي إحدى يديه تجاهي قائلًا: «عملة نحاسية».

نظرت من فوق رأسه إلى مجموعة الجزر المعروفة باسم جزر الحاجز، حيث تتمايل عندها صواري السفن التجارية، وتتأرجح مع تيارات الرياح العاتية. لم تكن سفينة ماريجولد موجودة بعد، ولكنها ستكون هنالك مع شروق الشمس. دسست يدي في حقيبتي، وأخرجت العملة النحاسية، ثم أسقطتها في كف كوي، وأنا أصرّ على أسناني غيظًا. لقد أخذ مني عملات نحاسية كثيرة، حتى إن إجمالي ما دفعته له يساوي نصف قيمة قاربه.

تسارع القارب يشق البحر، وكلما ابتعدنا عن الشاطئ وأوغلنا في الماء تحول لونه من اللون الفيروزي الباهت الذي يكون في المناطق الضحلة، إلى اللون الأزرق الداكن الذي تصطبغ به المناطق العميقة. اتكأت إلى الوراء بينما كان القارب يميل، وانحنيت حتى تلامس يدي سطح الماء، احتلت الشمس كبد السماء، ولم يكن أمامنا سوى بضع ساعات قبل أن يبدأ المد في التحول، وتلك الفسحة من الوقت أكثر من كافية لملء حقيبتي بأحجار البايار التي أستخدمها في التقايض.

شددت الحزام حول خصري، وتفحصت كل أداة من أدواتي.

المطرقة، الأزاميل، المعاول الصغيرة، المجرفة، النظارة.

لقد ترك معظم الجرافين التنقيب في الشعاب المرجانية الشرقية منذ أشهر، لكن حدسي أخبرني بأن ثمة المزيد من أحجار البايار المتوارية في تلك المياه، وقد أصاب حدسي، فبعد أسابيع من الغوص العميق بمفردي وجدت مخزونًا من الأحجار تحت مكان متوارٍ، وقد جنيت من وراء ذلك الكثير من العملات النقدية.

نهضت واقفة فاشتملتني الرياح بقوة، وألقت بخصلات من شعري البني الداكن على وجهي، فتشبثت بالصاري، ومِلت بجسدي وعيناي تمسحان المياه التي تتسارع حركتها من تحتنا.

لم نصل بعد.

سألني كوي ويداه قابضتان على ذراع المقود: «متى ستخبريننا بما وجدتِه بالأسفل هنالك يا فيبل؟». إن الظلمة التي تملأ نفوس أولئك القوم تضاهي أحلك الليالي ظلمة على الجزيرة عندما تشتد العواصف فتحجب القمر والنجوم في السماء.

رمقني الآخرون بصمت مرتقبين إجابتي. لقد رأيتهم من قبل يحدجونني بنظرات أشد تفحصًا على الأرصفة البحرية، وسمعت همساتهم على الشاطئ، فالصيد البسيط الذي كنت أعود به من الشعاب المرجانية خلال الأسابيع الماضية جعل انشغالهم بأمري يتفاقم، وذلك لم يكن جيدًا على الإطلاق، بيد أنني لم أتوقع أن يكون كوي أول من يطرح عليَّ السؤال بشكل صريح.

هززت كتفيَّ، وقلت: «أصداف أذن البحر».

ضحك وهو يهز رأسه مكررًا إجابتي: «أصداف أذن البحر». كان كوي من أصغر الجرافين في جزيرة جيفال، حيث لم يتجعد جلده بعد ولا حتى تلطخ بالبقع البيضاء على إثر قضاء الأيام الطويلة تحت وهج الشمس، بيد أنه احتل مكانه بينهم عن طريق سرقة ما يكفي من النقود لشراء قاربه الصغير والبدء في مشروعه النقلي.

قلت: «أصبت القول».

حين عاود النظر إلى عينيَّ كانت عيناه خاليتين من أي أثر للفكاهة، فكززت على أسناني كي لا تتبدى له الاختلاجة في جانب فمي. لقد انقضت أربعة أعوام منذ اليوم الذي نُبذتُ فيه على ذاك الشاطئ ذي الرمال الملتهبة، وتُركت لأتدبر أمر نفسي وحدي. ألجأني التضور جوعًا إلى كشط هياكل السفن والقوارب لقاء تناول أسماك متعفنة، وضُربت كثيرًا لأنني

غصت في مناطق ادعى جرّافون آخرون أنها حِمى خاص. لقد شهدت ما يكفي من العنف في جزيرة جيفال، بيد أنني لم أعترض طريق كوي حتى الآن؛ فإن استجلاب عداوته أمر شديد الخطورة.

قصدتُ نهاية القارب، ولاحت على شفتيَّ ابتسامة ماكرة كالتي ارتسمت على شفتيه عند الشاطئ. إنه لقيط، لكنني أنا الأخرى لقيطة، وإن تركته يرى مدى خشيتي منه فسأكون فريسة سهلة. لقد تعين عليَّ التماس طريقي للبقاء حية في جزيرة جيفال، وسأحارب بكل ما أعُطيتُ من قوة قبل أن أسمح لأي شخص بأن يسلبني فرصتي للفرار من تلك الجزيرة، ليس الآن، وقد أصبحت على وشك بلوغ مراميّ.

أفلتُّ قبضتي عن الصاري، وقفزتُ من القارب إلى الماء، وقد ارتطم ثقلي بالماء، فغطست، ثم ماجت من حولي الفقاعات البلورية وأنا أطفو نحو السطح مرة أخرى، وجعلتُ أحرك قدميَّ لأدفئ جسدي في مقاومة البرودة. إن حافة الشعاب المرجانية الشرقية تلامس التيار المائي، ولهذا فالماء هنا أبرد، وذلك من الأسباب التي أعلمتني أن ثمة أحجار بايار في تلك المنطقة أكثر مما انتُشل بالفعل.

انطلق قارب كوي مبتعدًا عني وشراعه بالكامل متقوس جهة السماء الصافية، وحين توارى القارب خلف جزر الحاجز عُدت أدراجي في الاتجاه المعاكس نحو الساحل، ثم سبحت ووجهي غاطس في الماء؛ كي يتسنى لي استكشاف الشعاب المرجانية بالأسفل. كانت أشعة الشمس تعانق الشعاب المرجانية ذات الألوان الوردية والبرتقالية والخضراء، مثل ألوان صفحات الأطلس التي كانت منبسطة على مكتب أبي قديمًا. وقد كانت علامة المكان الذي أقصده هي الشعاب المرجانية ذات الصفرة الفاقعة التي تأخذ شكل مروحة ذات ريشة مكسورة.

رفعت وجهي فوق سطح الماء، وتفحصت حزامي مرة أخرى وأنا أستنشق الهواء على مهل، وأملأ صدري به ثم أزفره بالوتيرة نفسها كما علمتني أمي. تمددت رئتاي ثم انكمشتا عندما

زفرت الهواء، ثم سرعتُ وتيرة تنفسي - استنشاق وزفير في دفقات متساوية إلى أن ملأت صدري بنفَس كامل أخير، وغطست.

تفَرْقَعت أذناي وأنا أشق الماء بذراعيَّ صوب الألوان البديعة المتألقة في قعر البحر، وقد اعتصرني الضغط. وحين شعرت بأن جسدي ينسحب تجاه السطح دفعت نفسي نحو الأعمق، وفي أثناء نزولي أحاطني سرب عابر من أسماك التانج المخططة بخطوط حمراء. لقد كان مشهد اللون الأزرق اللامتناهي متراميًا في كل اتجاه، وقد حطت قدماي بخفة على طرف هيكل مرجاني أخضر يشبه الأصابع الملتوية، ثم أمسكت بالحافة الصخرية التي تعلو الهيكل وانحنيت نحو الشق.

أول مرة عثرت فيها على أحجار البايار كنت أجوب الشعاب المرجانية بحثًا عن سرطان بحري لأعطيه الرجل العجوز في المرسى نظير إصلاح نظارتي. كان السكون مُطْبِقًا حين أحسست في عظامي بذبذبات الطنين الخافت الصادر عن الحجر الكريم، وبعد ثلاثة أيام متتالية من محاولة الكشف عن الحجر حالفني التوفيق بحدوث تحطم غير مخطط له، إذ كنت قد ركلت بقدميَّ حافة صخرية ناتئة وأنا أدفع نفسي نحو السطح، فتحطمت، وكشفت من ورائها عن خط ملتوٍ من صخر البازلت ينضوي على تجمعات بيضاء أعرفها حق المعرفة، فذلك يدل على شيء واحد فقط، أحجار البايار.

لقد أعطيت تجار سفينة ماريجولد بعضًا من مخزون أحجار هذا المخبأ نظير عملات نقدية يعطونني إياها، ومكسبي من هذا المخزون خلال الأشهر الثلاثة المنصرمة فقط يساوي إجمالي ما جنيته طيلة العامين الماضيين. ما هي إلا بضعة أسابيع أخرى ولن أضطر للغوص في هذه الشعاب المرجانية مرة أخرى.

لقد استقرت قدماي على الحافة، ووضعت إحدى يديَّ على الصخرة مستشعرة تقوس النتوءات، فأحسست بالذبذبات الناعمة التي تصدر عن الأحجار النفيسة تحت بناني، كأنها أصداء صادرة عن ارتطام معدن بمعدن. لقد علمتني أمي ذلك أيضًا، حيث علمتني كيف أرهف السمع للأحجار النفيسة على متن سفينتنا لارك، وكانت تضع الأحجار النفيسة في

يدي حجرًا تلو آخر وتهمس لي بينما كان بقية الطاقم نائمين في الأراجيح الشبكية المعلقة على متن السفينة.

هل تسمعين هذا؟ هل تستشعرينه؟

سحبتُ الأدوات من حزامي، وثبتُّ الإزميل في أعمق أخدود قبل أن أضرب بالمطرقة ليتداعى السطح ببطء. وبالنظر إلى شكل الزاوية فإنني أخمن أن هذه قطعة كبيرة من حجر البايار كامنة بالخلف، لعلها تساوي أربع عملات نحاسية.

تألق من فوقي بريق أشعة الشمس على الحراشف الفضية مع نزول المزيد من الأسماك التماسًا للغذاء، فرفعت ناظريَّ لأعلى وضيقت عينيّ من الوهج. وقد رأيت في المنطقة الضبابية أسفل الشعاب المرجانية جثة بشرية منجرفة تحت السطح، بقايا جراف تعدى حدود أحدهم أو لم يسدد دينه، كانت قدماه مقيدتين بالسلاسل في صخرة ضخمة مكسوة بالقشريات، وتُرك للكائنات البحرية لتنهش اللحم من فوق عظامه. لم تكن تلك المرة الأولى التي أرى فيها إعدامًا منفذًا، وإذا لم أتوخَّ الحرص فسأواجه المصير نفسه.

نفد آخر نفس هواء صالح في صدري، وزادت برودة ذراعيّ ورجليّ، فضربت الإزميل مرة أخرى فتشققت القشرة البيضاء الصلبة، ثم ابتسمت وتركت بضع فقاعات تُفلت من شفتيَّ مع تداعي قطعة خشنة من الصخر. وعندما مددت يدي لألمس حجر البايار الزجاجي الأحمر، بدا كأنه عين محتقنة بالدماء تحملق إليّ.

بدأت الحواشي السوداء تزحف على عيني تعتم رؤيتي جراء استنفاد الهواء، وعندئذ ركلت الصخرة بقدمي لأندفع نحو السطح ورئتاي تستجديان نفسًا من الهواء. لقد تناثرت الأسماك من حولي كأنها قوس قزح تَشَظى قبل خروجي من الماء وأنا أشهق. كانت الغيوم من فوقي تأخذ شكل خيوط رقيقة، لكن اللون الأزرق الداكن في الأفق لفت انتباهي. لقد رأيت في رياح ذلك الصباح نذيرًا بهبوب عاصفة، وإذا حالت تلك العاصفة دون وصول السفينة ماريجولد إلى جزر الحاجز بحلول شروق الشمس فسوف أضطر إلى الاحتفاظ بحجر

البايار لفترة أطول، وهذا يتهددني بخطر؛ إذ ليس لديَّ الكثير من الأماكن لأخبئ فيها الحجر، وبمرور الأيام كانت العيون التي تراقبني تتزايد.

طفت على ظهري لكي أُعرِّض أكبر قدر ممكن من جلدي للشمس التماسًا للدفء؛ حيث كانت الشمس بالفعل تهبط ناحية سلسلة الجبال التي تغطي جزيرة جيفال، وسيتطلب مني تحرير قطعة البايار ست أو سبع غطسات أخرى على الأقل، كما يتعين عليَّ أن أكون عند الطرف الآخر من الشعاب المرجانية حين يعود كوي لاصطحابي.

إن عاد.

ما هي إلا ثلاثة أو أربعة أسابيع أخرى وسيكون بحوزتي ما يكفي من العملات النقدية التي يمكنني دفعها نظير نقلي إلى منطقة المضايق للعثور على سينت، وحمله على الوفاء بوعده. لم أكن قد تجاوزت الرابعة عشرة من عمري حين نبذني في جزيرة اللصوص سيئة السمعة تلك. ومن وقتها قضيت أيامي كلها في جمع العملات النقدية التي أحتاج إليها للانطلاق في رحلة العثور عليه. وبعد أربع سنوات أتساءل عما إذا كان سيتعرف عليَّ حتى عندما أطرق بابه ويراني أمامه أخيرًا. أتساءل عما إذا كان سيتذكر ما حدثني به وهو يُشَرّح ذراعي بطرف سكينه المصنوعة من عظام الحيتان.

لكن أبي لم يكن من النوع الذي ينسى.

وكذلك أنا.

الفصل الثاني

كانت هناك خمس قواعد - خمس فقط.

وكنت أرددها على أبي منذ أن بلغت السن التي تمكنت فيها من تسلق الصواري لأول مرة برفقة أمي. كان يرقبني على ضوء الشموع الخافت في حجرته، وإحدى يديه قابضة على ريشة والأخرى على كوب مشروبه المرتكز على مكتبه.

1. اجعلي سكينك في متناول يدك.
2. إياكِ أن تديني لأحد بأي شيء مطلقًا.
3. لا شيء بالمجان.
4. دائمًا اختلقي الكذبة من رحم حقيقة.
5. إياكِ - مهما تكن الظروف - أن تكشفي لأحد عن أشياء تهمك أو أشخاص ذوي شأن عندك.

التزمت بقواعد سينت في كل يوم عشته على جزيرة جيفال، منذ أن نبذني عليها، وقد بقيت حية بفضل تلك القواعد. على الأقل قد ترك لي تلك القواعد عندما ولى بقاربه مبتعدًا، ولم يتكلف عناء الالتفات نحوي ولو مرة.

دوى هزيم الرعد فوق رؤوسنا ونحن نقترب من الشاطئ، واشتدت حلكة السماء بينما نشطت الرياح منذرة بهبوب عاصفة. مسحتُ الأفق بعيني أرقب شكل الأمواج. من المفترض أن تكون السفينة ماريجولد في طريقها الآن، لكن إذا كانت العاصفة شديدة فلن تصل السفينة إلى جزر الحاجز بحلول الصباح، وعدم وجودها هنالك يعني أنه لن يتسنى لي التقايض.

هبطت عينا كوي السوداوان على الشبكة التي تجمع أصداف أذن البحر في حجري، والتي أخفيت في إحداها الحقيبة التي تحوي حجر البايار الذي اقتطعته من الشعاب المرجانية. لست بالغباء الذي كنت عليه من قبل. سرعان ما فطنت إلى أن ربط الحقيبة في حزام أدواتي كما يفعل بقية الجرّافين سيفضي إلى نتيجة وحيدة، ألا وهي أنهم سيقصونها من حزامي. ولم يكن ثمة ما يمكنني فعله حيال ذلك، فأنا لست ندًّا لهم في القوة الجسمانية، ولذا كنت أخفي الأحجار الكريمة والعملات داخل أسماك منزوعة الأمعاء، وداخل أصداف أذن البحر منذ آخر مرة سلبوني فيها مغنمي.

وضعت بناني على الندبة في معصمي، واقتفيت أثرها الممتد كأنه جذر شجرة يعبر بطن ساعدي وصولًا إلى مرفقي. لفترة طويلة كانت هذه الندبة هي الشيء الوحيد الذي أبقاني على قيد الحياة في الجزيرة، فأهل الجزيرة كانوا مغرمين بالخرافات حتى النخاع، ولم يشأ أحد أن يمس فتاة ذات ندبة مثلي بأي أذى. كانت قد انصرمت بضعة أيام فقط منذ نبذني سينت على الجزيرة، حتى بدأ عجوز يُدعى فريت يردد شائعة على الأرصفة البحرية بأن شياطين البحر لعنتني.

تباطأ القارب، فنهضت ووثبت برشاقة فوق جانب القارب وشبكة الأصداف معلقة على كتفي. كان بوسعي استشعار عيني كوي وهما مصوبتان نحوي، واستشعرت طنين همساته العميق من وراء ظهري وأنا أشق طريقي ببطء في المياه الضحلة. في جزيرة جيفال يكسب كل امرئ قوته بكدِّه فقط، إلا إذا استطاع كسب شيء بالخداع والمكر أيضًا، وهذا بالضبط ما كان يفعله كوي، كان يخادع ويمكر.

مشيت على طول حافة المياه باتجاه المرتفعات وأنا أنظر لواجهة المنحدر لأراقب ظهور خيال أي أحد يتبعني. لقد تحول البحر إلى اللون البنفسجي بحلول الغسق، ومع تواري الشمس تراقصت آخر التماعة لشعاع الضوء على وجه الماء.

عثرت أصابعي المتصلبة على الشقوق المألوفة في الصخرة الكبيرة السوداء، وتسلقت وأنا أدفع نفسي لأعلى حتى تناثر على وجهي الرذاذ الناتج عن ارتطام أمواج البحر على الجانب

الآخر. كنت قد ثبتُّ حبلًا على حافة الصخرة وغمرته المياه.

أخذت صدفة من شبكتي التي تجمع أصداف أذن البحر ووضعتها في قميصي، ثم نهضت وملأت رئتيَّ بالهواء. وحالما ارتفعت المياه مع ارتطام الموجة بجانب الصخرة قفزت إلى البحر. كانت المياه تزداد قتامة مع كل دقيقة، لكنني تشبثت بالحبل، واتبعت مساره إلى الأسفل في غمار غابة من أعشاب البحر، حيث كانت الأعشاب تضرب بجذورها في قعر البحر، وترتفع شاهقة في شكل أشرطة سميكة متهادية، ومن الأسفل تبدت أوراق الأعشاب كأنها تشكل سقفًا ذهبيًا، والماء من تحته مصطبغ بلون أخضر.

تنقلت أسراب الأسماك بين الأعشاب، بينما كنت أغوص، وتبعتها أسماك القرش التي تسكن الشعاب المرجانية لتتغذى عليها. كان الكهف المائي من الأماكن القليلة التي سُمح لي فيها بالصيد؛ ذلك أن مياهه الهائجة صعبت على الجرّافين الآخرين نصب مصائدهم الخيزرانية، وجعلت من المتعذر بقاءها سليمة في هذه التيارات العاتية، لكن مصيدة السلال المنسوجة - التي علمني صُنعها أحد العاملين على سفينة والدي - قادرة على الصمود أمام تطاحن الأمواج. لففت الحبل السميك حول قبضتي وشددته، لكن لم تنفتح السلة لأن الغطاء كان مثبتًا بقوة اندفاع التيار بين الصخور بالأسفل.

حطّت قدماي فوق السلة، ثم اتكأت على الصخرة وأنا أحاول زحزحة الغطاء، وقد غمر نصفه الطمي الكثيف، ولما لم يتزحزح غطست وثبتُّ أصابعي في الجزء العلوي المنسوج من السلة، ونزعته حتى انكسر وانفك دافعًا إياي تجاه صخور قاسية من ورائي.

كانت في السلة سمكتان من فصيلة أسماك الفرخ، أفلتت إحداهما من خلال الفتحة قبل أن أتمكن من إغلاقها، فغمغمت باللعنات وأنا أشاهدها تسبح بعيدًا. قبل أن تتمكن السمكة الأخرى من الإفلات أغلقتُ الفتحة بصدري، ولففت إحدى ذراعيّ بإحكام حول المصيدة.

ثم أمسكت بالحبل وتبعته حتى وصلت إلى نتوء حاد متوارٍ في الظلمات، واستخدمت إزميلي لفك القطعة الحجرية التي غطيتها بأعشاب البحر، وقد وقعت القطعة الحجرية في

يدي كاشفة من ورائها عن تجويف، وفي داخل التجويف كانت توجد أحجار البايار التي جمعتها خلال الأسبوعين الماضيين تتلألأ كالزجاج المكسور. كان ذلك أحد مخابئي القليلة التي لم ينكشف أمرها في الجزيرة. لقد كنت أضع مصائد الأسماك في الكهف البحري الصغير لسنوات، وأي شخص رآني أغوص هنا قد شاهدني وأنا أعود بصيدي من السمك. وحتى إن ارتاب أحدهم في أنني ربما أحتفظ بأحجاري النفيسة هنا فلن يتمكن من العثور عليها.

عندما امتلأت الحقيبة المربوطة في حزامي بأحجار البايار سددت التجويف بالقطعة الحجرية مرة أخرى، وأحسست بأن عضلات ساقيَّ تحترق من الإنهاك جراء غوصي لساعات، فاستخدمت آخر ما تبقى من قوتي للاندفاع نحو السطح. لطمتني موجة وأنا أستنشق هواء الليل فدفعت نفسي باتجاه النتوء الصخري قبل أن تسحبني الموجة لأسفل مرة أخرى.

اتكأت على ذراعي لأرفع نفسي، واستلقيت على الرمال ألتقط أنفاسي، وتلألأت النجوم من فوقي، لكن العاصفة كانت تتحرك نحو جزيرة جيفال بسرعة، ومما أشتمه في الرياح أستطيع القول إنها ستكون ليلة ليلاء. عصفت الرياح بكوخي القائم على المنحدر، لكنني على أية حال لا أقدر على النوم حين أضطر إلى حمل أحجار البايار أو العملات المعدنية معي. لقد طاح مأواي وأنا نائمة من قبل، وما كنت لأجازف بحدوث ذلك وانكشاف أمري.

دسست السمكة المتلوية في قميصي، ورفعت المصيدة المكسورة على كتفي حتى ثبتتْ على ظهري. كان الليل قد أرخى سدوله فوق الأشجار، وتبينت طريقي على ضوء القمر. لزمت مسار الطريق حتى انعطف باتجاه الجرف، فمال جسدي وأنا أحاول السير جاهدة في المسار الذي صار شديد الانحدار. وعند حافة الصخرة العظيمة المنحدرة بانحدار حاد ثبتُّ يديَّ وقدميَّ في الشقوق التي نحتُّها، وتسلقت. وحالما وضعت إحدى قدميَّ فوق القمة سحبت نفسي لأعلى، ونظرت ورائي صوب الطريق.

كان الطريق خاويًا، والأشجار تتهادى مع الهواء، والضوء يتراقص على الرمال الباردة. ركضت بقية الطريق حتى انحدرت الأرض المسطحة فجأة انحدارًا حادًّا بزاوية قائمة تجاه الشاطئ بالأسفل.

أطل الجرف على جزر الحاجز المتوارية في الظلام، لكنني تمكنت من رؤية وهج بعض الفوانيس المتدلية من صواري السفن الراسية ليلًا. كان هذا هو المكان الذي اعتدت الجلوس فيه كل صباح في انتظار عودة سفينة أبي، رغم أنه أخبرني بأنه لن يعود.

استغرق مني تصديق كلامه عامين كاملين.

أنزلت المصيدة بجانب حفرة النار، وفككت حزامي الثقيل. اشتدت الرياح بينما كنت ألفُّ يدي حول جذع الشجرة السميك المُشْرِف على شفير الجرف، وتسلقت لأعلى ببطء، ثم رنوت إلى أسفل صوب الشاطئ الذي يفصلني عنه ارتفاع يقدر بثلاثين مترًا على الأقل. كانت أوزان معظم الجرّافين ثقيلة، لدرجة تحول دون تسلقهم هذه الشجرة الطويلة النحيلة من دون أن تتكسر الأغصان، وتلقي بهم إلى حتفهم، حتى أنا نفسي كدت أسقط مرة أو مرتين.

اقتربت بما يكفي من النقطة المنشودة، فمددت يدي إلى التجويف عند مفترق فرعين كبيرين، وراحت أصابعي تعبث حتى عثرت على الحقيبة، وأرجحت ذراعي للخلف ملقية إياها على الأرض قبل أن أهبط من الشجرة.

أشعلت النار، ووضعت السمكة في سيخ مثبت على شقوق في الصخور المشرفة على الطريق، بحيث إن جاء أي متطفل أراه قبل أن يراني. أحتاج فقط إلى أن أبقى بأمان حتى الصباح.

سمعت الرنين الصادر عن اصطكاك العملات وأنا أهز الحقيبة لأسكب ما فيها على الرمال الناعمة، والتمعت أسطح العملات في ضوء القمر وأنا أحصيها وأرتبها في أعمدة منظمة

أمامي.

اثنتان وأربعون عملة نحاسية. بعد احتساب النفقات التي سأضطر لدفعها للقوارب التي تقلني فأنا بحاجة إلى ثماني عشرة عملة أخرى ليكون لديَّ ما يكفي للمقايضة مع ويست نظير اصطحابي معه على سفينته، حتى إنني خصصت عملة صغيرة لتوفير متطلبات المطعم والمأوى إلى أن أُغِير على سينت. استلقيت على الأرض وتركت ساقيَّ تتدليان على حافة الجرف وعيناي تحملقان في القمر، بينما السمكة تطقطق فوق ألسنة النار، لقد كان هلالًا رائعًا مكتسيًا باللون الأبيض الحليبي معلقًا فوقي، وملأت صدري بالهواء المالح المشبع برائحة شجر السرو الذي تتفرد به جزيرة جيفال.

في أول ليلة أقضيها على الجزيرة نمت على الشاطئ، فقد كنت مرتعبة من الصعود إلى الأشجار التي تحيط بها الخيام المنصوبة بين النيران المشتعلة، واستيقظت يومها لأجد رجلًا يمزق سترتي ويفتش في جيوبي بحثًا عن عملة نقدية، ولما لم يجد شيئًا أسقطني على الرمال الباردة، وولّى مبتعدًا. وعلى مدار أيام كلما اصطدت في المياه الضحلة وجدت أحدهم ينتظرني على الشاطئ ليسلبني كل صيدي، فأكلت أعشاب البحر لمدة شهر تقريبًا قبل أن أجد أماكن آمنة لتوفير الغذاء لنفسي. وبعد قرابة العام تمكنت من ادخار ما يكفي من العملات لشراء أدوات التجريف الخاصة بفريت الذي بلغ سنًّا تعجزه عن الغوص، وقد جمعت ذلك المبلغ عن طريق تنظيف ما يصيده الآخرون، وبيع حبال النخيل.

تلاطمت الأمواج بعنف في الأسفل مع هبوب رياح العاصفة، ولوهلة تساءلت عما إذا كنت سأفتقد تلك الجزيرة، وعما إذا كان ثمة شيء في جيفال قد أصبح جزءًا مني. جلست أرنو إلى الجزيرة الملتحفة بعباءة الليل، حيث تتحرك قمم الأشجار في الظلام كالمياه المتلاطمة. لو لم تكن تلك الجزيرة سجني لرأيتها جميلة، لكنني لم أشعر بالانتماء لها قط.

كان بوسعي الانتماء إليها، وكان بإمكاني أن أجعل نفسي من أهلها، حيث أعمل على تدشين مشروعي التجاري على جزر الحاجز حيث أتاجر بما أجمعه من الأحجار النفيسة الصغيرة

مثلما يفعل الكثيرون. ولكن إن كانت هويتي أنني واحدة من زمرة الجرّافين في جزيرة جيفال، فأنا إذن لست ابنة سينت، ولعل هذه حتى لم تعد حقيقة الآن.

لا أزال أتذكر الطنين في بطن السفينة، وأتذكر صرير الأرجوحة الشبكية. لا أزال أتذكر رائحة غليون أبي وأطيط الأحذية على ظهر السفينة. لم أكن أنتمي إلى الأرض أو إلى المراسي أو إلى المدن الواقعة في أرجاء منطقة المضايق، إن المكان الذي كنت أنتمي إليه قد اندثر.

وعلى مسافة أميال، حيث يلامس ضوء القمر خط الأفق الأسود، ترقد سفينة لارك في قاع مياه بحر شَرَك العواصف. وأيًّا يكن المكان الذي سأذهب إليه فلن أعود إلى وطني أبدًا، لأن وطني سفينة في قاع البحر، حيث كانت عظام أمي منطرحة هنالك.

الفصل الثالث

وقفت على الجرف مع شروق الشمس أشاهد سفينة ماريجولد راسية هنالك. لقد وصلت إذن في ساعات الظلام رغم العاصفة الهائجة التي انقضَّت علينا قادمة من منطقة البحر المجهول. بقيت مستيقظة طيلة الليل أحدق إلى النار حتى أخمد المطر ألسنة اللهب، وكان سائر جسدي يتألم استجداءً لقسط من النوم بعد ثلاثة أيام متتالية من الغوص.

لكن ويست لا يروقه الانتظار.

حين وصلت إلى الشاطئ وجدت بالفعل جحافل من الجرّافين ينتظرون عند سيف البحر. لقد كنت ذكية بما يكفي لأدفع لـ أسبيك مبلغًا قبل شهر نظير حجز مكان لي على قاربه. لقد كان مستلقيًا على الرمال ويداه مطويتان خلف رأسه وقبعته تغطي وجهه - إن كنت تملك قاربًا في جزيرة جيفال فلن تحتاج إلى الغوص أو التجارة؛ لأن كل الجرّافين في الجزيرة يحتاجون إليك. إن امتلاك قارب هنا أشبه بامتلاك وعاء مليء بالعملات النحاسية لا ينفد أبدًا. كان أسبيك من أولئك المحظوظين أصحاب القوارب، رغم أنه غير جدير بذلك الحظ مطلقًا.

عندما لمحني قادمة نهض واثبًا وعلى شفتيه ابتسامة عريضة تكشف عن أسنان متعفنة، ثم حياني قائلًا: «صباح الخير يا فاي!».

رددت على تحيته برفع ذقني، وألقيت حقيبتي في القارب قبل أن أرفع نفسي على جانبه. لم يتكلف أحد عناء إفساح فسحة لي كي أجلس، فوقفت عند صدر القارب وإحدى ذراعيَّ تعانق الصاري، ويدي قابضة على الجراب الذي يحوي أحجار البايار داخل قميصي. كان

قارب كوي يسبقنا وتوارى عند جزر الحاجز، وكان يَغُصّ بالأجساد حتى إن السيقان والأقدام جُرجرت في المياه على كلا الجانبين.

ابتسم أسبيك ابتسامة ذات مغزى وهو يناديني: «فيبل»، فنظرت إليه وأدركت ما كان ينتظر مني فعله.

فككت الشراع، وتركته ينبسط ليدفعنا إلى الأمام. كان الجرّافون يطلبون مني طلبات لا يطلبونها من أي أحد آخر؛ إذ كانوا يتوقعون أن أكون ممتنة لهم فقط لأنهم لم يغرقوني في المياه الضحلة وأنا طفلة هزيلة. لكن الحقيقة هي أنهم لم يسْدوا لي أية خدمة، لم يطعموني حين استجديتهم الفتات، أو يوفروا لي مأوى يقيني شر العواصف حين تهب. لقد كسبت كل لقمة وكل حجر بايار بجهدي وعرقي، وكدت أهلك في سبيل ذلك، ومع هذا فإنهم يفترضون أن أكون مدينة لهم بالمعروف لأنني لا أزال أتنفس.

هبت الرياح ومضينا نشق ماء الصباح المنساب مثلما تمضي السكين الساخنة في الدهن بسلاسة. لم يرقني مدى سكون الماء، ولا بريق سطحه الملتمع كالزجاج المصقول لتوه. إن مشهد البحر وهو مستكين يثير القلق في نفسي لأنني رأيت ضراوته.

نعق أسبيك قائلًا وهو يترك ذراع المقود لأحدهم ويأتي ليقف بجانبي عند الصاري: «تسري شائعة بأنك عثرت على مخبأ أحجار بايار جديد يا فاي».

نفث أنفاسه الكريهة في وجهي، فحولت وجهي نحو الرياح متجاهلة إياه. وحين شعرت بعيون الآخرين متركزة عليّ شددت قبضتي على جرابي.

ارتفعت يد أسبيك تلوح في الهواء بيننا، وانبسطت كفه أمامي وهو يقول: «لست أقصد شيئًا بكلامي».

فتمتمت: «بالطبع».

انحنى ناحيتي بعض الشيء، وقال بصوت خفيض: «لكن ثمة حديثًا تتناقله الألسن كما تعلمين».

التفتُّ بعيني لأثبتهما في عينيه، وأمعنت النظر فيه محاولة استكشاف المعانى الكامنة خلف كلامه، وقلت: «أي حديث؟».

استرق نظرة إلى ورائه من فوق كتفه فانسلت ضفيرته الفضية التي دسها في قميصه، ثم قال: «كان ثمة حديث عن المكان الذي تخبئين فيه كل عملاتك النحاسية».

تململ الجرّاف الجالس على يميني رافعًا أذنه ليسترق السمع.

رجعت بكتفيَّ إلى الوراء لأتكئ على الصاري وقلت: «لو كنت مكانك يا أسبيك لما اشتركت في هذا الحديث». كان مفتاح التعامل مع الجرّافين يتمثل في إبداء عدم الخوف منهم حتى عندما تمتلئ نفسك خوفًا. لم يكن أسبيك مؤذيًا، وكان أحد القلائل الذين لم أخش جانبهم.

هز رأسه في حركة سريعة قائلًا: «بالطبع أنا كذلك. رأيت فقط أنه من الضروري إخبارك».

عندئذٍ قلت بغضب: «رأيت أنك قد تحصل على عملة نحاسية أخرى مني، هذا قصدك».

ندت عنه ابتسامة أخرى قبل أن يطأطئ رأسه ويهز كتفيه.

أردفت: «إنك بالفعل تتقاضى مني أكثر من التكلفة العادية. لن أدفع لك مقابل نقل الثرثرات أيضًا».

أوليته ظهري وأخبرته بأنني انتهيت من الحديث في هذا الشأن. ما زال أمامي ثلاثة أسابيع على الأقل قبل أن أجمع المبلغ المطلوب ليقلني ويست على سفينته، ولكن إذا كان الجرّافون يتحدثون عن الأمر حقًّا فلن أنجو لهذه الفترة.

غرق أسبيك في لجة من صمت، ولم يتبق سوى صوت القارب وهو يشق الماء وصفير الرياح. لاحت أشرعة ماريجولد البيضاء المضلعة ونحن ننعطف عند زاوية جزر الحاجز، كانت السفينة راسية وراء الصخور العالية، وراح أسبيك يبطئ القارب رويدًا رويدًا. استطعت رؤية كتفيْ ويست اللتين تشكل زواياهما شكلًا مربعًا وهو واقف في الطرف الآخر من المرسى يرنو إلى الماء، بالأحرى رأيت شبحه إذ كنا قبيل شروق الشمس.

لوحت بإحدى يديَّ في الهواء وأنا أباعد بين أصابعي عكس اتجاه الرياح، وحالما لحظ تلويحي ذاب شبحه وسط الحشد.

أرخى أسبيك الشراع حين اقتربنا من المرسى، وقبل أن يطلب كنت قد لففت الحبل على ذراعيَّ في شكل حلقة، وألقيته نحو الرصيف، ثم أمسكتُ الحلقة بالعمود المثبت عند طرف الرصيف، ووثبتُ من متن القارب إلى جانبه، وملت إلى الوراء جاعلة كعبيَّ مرتكزين على جانب القارب وأنا أسحبه ناحية الرصيف، يدًا وراء أخرى. أصدرت الحبال المبللة صريرًا في أثناء تمددها، ولما اصطدم المجداف بجانب القارب أصدر دويًّا جعل فريت، الرابض على مقعده، يرفع ناظريه لأعلى.

جلس فريت وبين قدميه صندوق مصنوع من الخيزران مملوء بقواقع نادرة كان ينقب عنها في المياه الضحلة. لقد فقد قدرته على الغوص منذ أمد بعيد، لكنه لا يزال يتقايض كل أسبوع عند جزر الحاجز، ويبيع أشياء لا يبدو أن باستطاعة أحد غيره العثور عليها. كان هو أول من أشاع أن شياطين البحر وسمتني بتلك الندبة، وباع لي حزام الأدوات التي يستخدمها الجرّافون، وهكذا خرقتُ قواعد أبي رغمًا عني؛ لأنني سأظل مدينة له بهذين المعروفين طيلة حياتي.

ابتسم لي ابتسامة مائلة وأنا أعبر إلى الرصيف البحري وحياني: «فيبل».

فرددت: «مرحبًا يا فريت»، ولمست كتفه النحيلة ذات العظام البارزة في أثناء عبوري، وأرسلت بصري من فوق رأسه إلى حيث ينتظرني ويست أمام سفينة ماريجولد على

مرمى البصر.

احتشد الجرّافون على طول الرصيف الخشبي الضيق في ضوء الصباح الخافت، وراحوا يتقايضون مع التجار، ويتناحرون على العملات النحاسية. لقد اشتهرت جزيرة جيفال بوجود أحجار البايار في شعابها، ورغم أنها لم تكن من مجموعة الأحجار النفيسة الأغلى قيمة فإنها لا توجد إلا في أماكن قليلة للغاية، من ضمنها جزيرة جيفال.

ولم يكن التجار يقصدون الجزيرة من أجل أحجار البايار وحسب، إذ إن جيفال هي اليابسة الوحيدة بين منطقة المضايق ومنطقة البحر المجهول، ولذا فالعديد من السفن تتوقف عندها للتزود بإمدادات بسيطة في منتصف رحلاتها. وكان أهل الجزيرة يحملون سلالًا تحوي بيض دجاج وأسماكًا وحبالًا، وينتشرون على الرصيف البحري، وينادون ببضاعتهم للبحارة الذين كانوا ينظرون من فوق أسوار سفنهم.

دوى الصياح أمامي بغتة وأنا أحاول اجتياز منطقة مكتظة بأجساد رجال متزاحمين، وملت إلى الجانب لأتفادى لكمة من يد أحدهم. ثم اندلع شجار فدفعني الزخم إلى حافة الرصيف، وتدحرج في الماء برميل مفتوح يحوي أوراق نبتة البوصير كاد يجرني معه، فقفز وراءه رجلان، ولبثت منتظرة حتى يفترق المتشاجرون قبل أن أجتازهم.

استدار ويست ناحيتي في اللحظة التي اجتزت فيها الحشد كأنه شعر بقدومي. كان شعره الأشقر المموج مضمومًا خلف إحدى أذنيه، وذراعاه معقودتين فوق صدره وهو يرنو إليّ بعينين خضراوين خضرة فاتحة.

قال: «أنت متأخرة»، وراقبني وأنا أسحب قميصي المحشور في حزامي، وأخرج الجراب وأفتحه. ثم ألقيت نظرة خاطفة إلى الأفق من ورائه حيث كان الطرف السفلي من قرص الشمس يحوم فوق الماء.

وتمتمت: «ما هي إلا بضع دقائق».

خطا للأمام وأنا أفرغ الجراب في راحتي المبسوطة وتتدحرج منه ست قطع من أحجار البايار بصلية الشكل تغطيها قشرة من رواسب بيضاء.

انتزع النظارة من حزامي، ووضعها على عينه، ثم انحنى للأمام وراح يلتقط القطع بعناية ويمسكها موجهًا إياها صوب قرص الشمس كي يتخلل الضوء الأحجار الكريمة الحمراء. لم تُنظف من طبقة الرواسب الخارجية التي تغلفها لكنها كانت قطعًا جيدة، أفضل من أي قطع مع الجرّافين من خلفي.

نظرتُ إلى طبقة القطران المطلية حديثًا وهي تجف على بدن السفينة ماريجولد، حيث كان ثمة صدع صغير في الخشب أسفل سور السفينة على الجانب الأيمن، وقلت: «يبدو أن العاصفة أصابتك».

لم يُحر جوابا وانشغل بتقليب القطع لتفحصها مرة أخرى.

لكن هذا لم يكن الجزء الوحيد الذي تضرر في السفينة، إذ كانت ثمة فتاة تجلس على حمالة عند نقطة مرتفعة في الصاري الرئيسي لإصلاح الأربطة الجلدية التي تربط الأشرعة.

في طفولتي كنت أستلقي على متن السفينة وأشاهد أمي في الأعلى على صواري سفينتنا لارك. كانت جديلتها داكنة الحمرة تتهادى أسفل ظهرها كأنها ثعبان، وجلدها البني الغامق تتبدى دكنته أمام قماش الأشرعة البيضاء. رمشتُ كي أحرر ذاكرتي من أسر المشهد الذي أراه قبل أن يجيش الألم في صدري.

عندئذٍ أسقط ويست النظارة في كفه بحركة من رأسه وقال: «لقد ازدادت الكميات التي تقايضينها زيادة كبيرة في الآونة الآخيرة».

فأجبته: «ضربات حظ متوالية»، وعلقت إبهامي في حزامي دلالة على الانتظار.

مد يده ليفرك بها نهاية ذقنه الأشقر كعادته حين يفكر، ثم قال: «عادة ما يجلب الحظ المتاعب». وعندما رفع ناظريه أخيرًا ضيّق عينيه وهو يرمقني وقال: «ست عملات نحاسية»، ودس يده في الجراب الملحق بحزامه.

رفعت أحد حاجبيّ وأنا أحدجه وأشير إلى أكبر قطعة من أحجار البايار في يده وقلت: «ست؟ هذه القطعة تساوي ثلاث عملات نحاسية بلا مساومة».

أشاح بناظريه وصوبهما من فوق رأسي نحو الرصيف الذي يعج بالجرّافين والتجار من وراء ظهري، وقال: «لو كنت مكانك لم أكن لآخذ أكثر من ست عملات نحاسية وأنا عائد إلى الجزيرة»، ثم دس يده في الجراب متصيدًا العملات وأردف: «سأعطيك البقية في المرة المقبلة».

صررتُ بأسناني من الحنق واعتصرتُ قبضتيّ على جانبيّ. تعامل كأنه يسديني معروفًا بتقسيط المبلغ، ما جعل الدم يغلي في عروقي. لم تكن الأمور تدار على هذا النحو في ذلك العالم.

قلت: «يمكنني الاعتناء بنفسي. عشر عملات أو يمكنك العثور على شخص آخر تتاجر معه». انتزعتُ نظارتي من بين أصابعه، وبسطتُ يدي الأخرى أمامي، سيعطيني ما طلبت لأنه لم يشتر أحجار البايار من أي أحد غيري في جزيرة جيفال، كان يشتري مني أنا وحسب، طيلة عامين، لم يشتر قطعة واحدة من أي جرَّاف آخر.

سَرت حركة في عضلات فكه وهو يُطْبِق يده على الأحجار، وتحول لون مفاصل أصابعه إلى اللون الأبيض. تمتم بكلام لم أستطع تبينه وهو يدس يده في جيب سترته، ثم قال: «ينبغي لك أن تقللي الكمية التي تأتين بها في المرة الواحدة»، وانخفض صوته في أثناء إحصائه العملات.

لقد كان محقًّا، كنت أعرف ذلك، بيد أن الأخطر هو تخبئة أحجار البايار والعملات وإخفاؤها على الجزيرة. كانت العملات أصغر حجمًا وأسهل في إخفائها، وإن كان لا مفر، فأنا أحُبذ امتلاك شيء واحد يطمع فيه الآخرون وليس شيئين. قلت له: «إنني أعرف ما أفعله»، وحاولت أن أجعل نبرة صوتي توحي بأنني أصدق ذلك.

قال: «إن لم أجدك هنا في المرة المقبلة فإنني سأعرف سبب غيابك»، وانتظرني أن أرفع ناظريَّ نحوه. تركت الأيام المتطاولة التي قضاها على متن السفينة أثرها على جلده فصبغته بسمرة عميقة، ما جعل عينيه تبدوان كأحجار اليشم الخضراء التي اعتادت أمي تلميعها عقب صعودها من الغوص.

وضع العملات في كفي، ثم تحولتُ عنه في الحال ودسستها في جرابي قبل أن أعيدها إلى قميصي. ذُبت في حشد أهالي جيفال، حيث ابتلعتني الأجساد النتنة، وأحسست بغصة في حلقي. أربكني ثقل العملات النحاسية في جرابي، وغاصت كلمات ويست في نهاية رأسي كأنها حجر ثقيل. ربما كان محقًّا، ربما...

التفتُّ، وشببتُ كي تتسنى لي الرؤية من فوق أكتاف الجرّافين الذين يفصلون بيني وبين سفينة ماريجولد، بيد أن ويست كان قد ذهب.

الفصل الرابع

كان كوي ينتظر في القارب عندما وطئتُ الشاطئ. وقد أزاحت الرياح خصلات شعره الداكنة من وجهه إلى قفاه وهو يحدق إلى التجاعيد المرتسمة على صفحة الماء. أول مرة رأيت فيها كوي كان يسبح نحوي آتيًا من الشاطئ كي يطردني من المنطقة الرملية المرتفعة التي كنت أصيد عندها، ولم يبعد عينيه عني منذ ذاك الحين.

سألته وأنا ألقي عملة نحاسية لتتقلب في الهواء ناحيته، وألقي حزام أدواتي نحو القارب: «أين البقية؟».

التقط العملة والتقف الحزام ووضعه في الكيس المتدلي من الصاري وقال: «لا يزالون يتقايضون مع التجار».

صعدنا على القارب الذي انجرف خارج المياه الضحلة بينما حل كوي الأربطة.

تلقفت الرياح الشراع بقوة حالما انبسط، فانطلق القارب يتوغل في البحر. ربطتُ حزامي بينما رمقني كوي مرة أخرى من فوق كتفه وحطتْ عيناه على أدواتي. لقد سرقني قبل ذلك رغم أنني لم أمسكه متلبسًا، واضطررت إلى تغيير مخابئي لكن بدا أن ثمة شخصًا يجدها دائمًا. كان الجرّافون أجلافًا وقساة، بيد أنهم لم يكونوا حمقى، لا سيما كوي الذي كان مسئولًا عن إطعام عدد من الأفواه أكثر من أي شخص آخر.

كان يعول جدته وأختيه، ما جعله أخطر من معظم سكان الجزيرة، فأن تكفل شخصًا آخر كان أكبر لعنة في جزيرة جيفال، وفي البحر، وحتى في منطقة المضايق. ليس ثمة أمان في هذا العالم سوى أن تكون وحيدًا تمامًا، كان هذا أول ما تعلمته على يد سينت.

لا تزال سفينة ماريجولد عند جزر الحاجز راسية ومن خلفها عتمة رهيبة لعاصفة أخرى تختمر على مرمى البصر. بدت تلك العاصفة أفظع من سابقتها، ولكن بالنظر إلى الريح والغيوم فغالبًا ستخور قوتها قبل أن تضربنا. ومع ذلك، فمن المحتمل أن تظل ماريجولد وبقية السفن راسية حتى الصباح لتكون بأمان.

سألني كوي محاولًا تجاوز الحدود: «ماذا ستفعلين بكل تلك النقود يا فيبل؟».

شاهدت الحبل يلتف على جلد يده الغليظ وأنا أتساءل: «أية نقود؟».

بدا متسليًا وانفرجت شفتاه لتكشف عن شيء من أسنانه، ثم قال: «أعلم أنك تقايضين كل ذلك الكم من أحجار البايار التي تعثرين عليها، لكن لا يمكنني تبيُّن ما تخططين لفعله بالنقود التي تكسبينها. أتخططين لشراء قارب؟ أم تدشين مشروع تجاري مع التجار؟».

هززت كتفيَّ ولففت حول إصبعي خصلة من شعري الذي تبدت خصلاته بلون نحاسيّ فاتح تحت أشعة الشمس، وقلت: «لم أجد كميات من أحجار البايار أكثر من المعتاد».

انفرجت شفتاه عن ابتسامة عريضة وهو يتكئ إلى الخلف مقوسًا ظهره بحيث يضع مرفقه على جانب القارب، ثم سأل: «أتعرفين لماذا لم تروقيني قط؟».

فرددت على ابتسامته بابتسامة وأنا أتساءل: «لماذا؟».

أجاب: «ليس بسبب أنك كاذبة، فجميع سكان هذه الجزيرة كاذبون. مشكلتك يا فيبل أنك فتاة صالحة».

فقلت: «حسنًا، أما أنت يا كوي فلطالما رُقتني».

ضحك وهو يسحب الشراع فتباطأ القارب، وقال: «ترين؟ كدت أصدقك».

صعدت إلى جانب القارب وقفزت، وارتطمت بالماء البارد فغمرني قبل أن أترك جسدي يطفو للسطح مرة أخرى. حين صعدت إلى السطح كان كوي قد ولى مبتعدًا صوب الشعاب المرجانية الجنوبية مخلفًا في إثره تموجات، وعندما لم ينظر إلى الوراء سبحتُ في الاتجاه المعاكس على مهل لأحفظ قوتي. لا تزال عضلاتي وعظامي متيبسة وواهنة، بيد أنني لن أنعم بالراحة في أي وقت قريب، ليس وقد ركز الجرّافون انتباههم عليَّ بدرجة كبيرة. الشيء الوحيد الذي بوسعي فعله الآن هو جمع بقية النقود التي أحتاج إليها بأسرع ما يمكن لأهجر هذا المكان.

رصدت الشعب المرجاني الأصفر الذي يأخذ شكل مروحة، وأحكمت شد حزامي قبل أن أبدأ تنشيط رئتيَّ بالاستنشاق والزفير بالوتيرة التي عهدتها. عندما سَرَت القشعريرة الحادة بين ضلوعي غطست وأنا أركل بقدميَّ دافعة نفسي نحو قاع البحر ومحدثة اضطرابًا بين الأسماك ذات الحراشف المتلألئة فوقي. لم أهدر أي وقت في الانطلاق نحو الصدع، وأحسست على جلدي بذبذبات الطنين الخافت الذي تصدره أحجار البايار، فسحبت الأدوات من حزامي، وشرعت في العمل، ضربت بالمطرقة بأقصى قوتي وعملت على خط جديد في الصخرة، كان معظم الخط مجرد شعاب مرجانية وصخور بازلت، لكن مع العمل انكشف سطح أملس لقطعة من حجر البايار ممتدة للأسفل بطول نصف متر تقريبًا. لم تكن قطعة كبيرة، فكانت ستتحرر بسهولة، بيد أن العثور على المزيد قد يستغرق فترة ما بعد الظهيره كلها. أرسلت ذراعي للخلف، واستندت إلى الشعاب المرجانية بينما أحضر المطرقة مرة أخرى، ضربت الإزميل ضربة مباشرة فدوى صوت مكتوم تحت الماء، وانكسرت قطعة صغيرة.

انزلقت يدي مرتطمة بالحافة الحادة بينما تحرك ظل من فوقي. فزعتُ وأسقطتُ المطرقة، وخفق قلبي بشدة وتناقص الهواء في رئتيَّ. استدرت وحشرت نفسي تحت رف الصخرة، وقبضت على الإزميل بيدي الباردة. كان ثمة سرب من أسماك القروش الحوتية تسبح فوق الحافة الصخرية، وتتنقل عبر أشعة الشمس التي تتخلل سطح الماء، فانطلق من فمي

عنقود من الفقاعات وأنا أضحك ضحكة ارتياح هدأتْ حدة الشد المؤلم الذي اجتاح صدري بعض الشيء، لكنني كنت بحاجة إلى هواء.

دفعت الصخرة بقدمي لأنطلق صعودًا بين قرشين، ومددت يديَّ لتتهاديا على طول الجلد الأملس المرقط، وتحركت الذيول أمامي فابتسمت وأنا أندفع نحو بؤرة ضوء الشمس المتمايل فوقي.

ولكن حينما بلغت سطح الماء أَطْبَقَ شيء ما على ذراعي، وسحبني لأسفل مرة أخرى قبل أن يتسنى لي استنشاق نفَس حتى، فصرخت تحت الماء تاركة ثمالة الهواء المتبقية تغادر رئتيَّ وأنا أتخبط محاولةً الالتفاف.

نظرت فرأيت وجه كوي يطالعني من وسط سرب الأسماك الذي يحوم أسفل مني، وقد أحكم قبضتيه حول معصمي بشدة. رحتُ أركله حتى أصبت كتفه بكعبي وأفلتتني أصابعه، فسبحت بأسرع ما يمكن نحو الضوء وأنا أستشعر الظلمة تزحف على عقلي، وعندما خرجت أخيرًا في الهواء اختنقت وشعرت برئتيَّ تُعتصران بشدة في صدري. كان القارب طافيًا بالقرب من الشعاب المرجانية بجانب رأس صخرة مطلة على السطح كي لا تتسنى لي رؤيته من الأسفل.

لقد تبعني.

ظهر كوي وأنا أتنفس النفس الثاني وانطلق نحوي. حاولت الابتعاد عن متناول يده لكنه أمسك بشعري وجذبني إليه.

صاح: «أين المكان؟ أخبريني أين هو!».

تلويت وأنا أسدد ضربة بمرفقي وجدت مستقرها في وجهه، فأفلتت أصابعه شعري، وسبحتُ صوب القارب، لكنه تبعني وتحرك أسرع مني، فلما وصلت إلى هيكل القارب كان قد قبض على قدمي. تشبثت بطرف نهاية القارب، وسحبت نفسي لأصعد عليه، لكن كوي

اجترني بقوة أكبر وهو يدمدم مزمجرًا، فانزلقتُ وخبطت وجهي بجانب القارب خبطة شديدة أصابتني بدوار، لكنني عثرت على الحافة بأصابعي مرة أخرى قبل أن أسحب نفسي لأعلى الجانب وأمد يدي داخل القارب. راحت يدي تفتش بحركة محمومة عن المجداف، حتى إذا عثرتُ عليه طوحتُ بذراعي للخلف فأصابت نهاية المجداف المسطحة رأس كوي.

استكانت حركته بغتة، وهوى في الماء. رفعت نفسي إلى قلب القارب وأنا أسعل. ثم زاغت عينا كوي في محجريهما وهو يغرق، وسالت الدماء من جبهته كالحبر الأحمر.

عبثتُ في الحبال بأيدٍ مرتعشة، وحين وصلتُ إلى الشراع تجمدتُ، ورحت ألتقط أنفاسي بانتظام مرة أخرى.

لا يزال بوسعي رؤية جسده وهو يغرق في اللون الأزرق الداكن أسفل السطح مباشرة.

تأوهت حنقًا وأنا ألقي المجداف وأغطس مرة أخرى بينما أقول: «أيها اللقيط الوغد».

دسست يدي تحت ذراعيه عندما وصلت إليه، وسحبته خارج الماء، ثم كابدت عناءً رهيبًا وأنا أسحب ثقله، وكاد القارب ينقلب بينما أرفع جسده المرتخي. حالما أدخلت جذعه العلوي إلى القارب رفعت ساقيه، واحدة في إثر الأخرى، فتدحرج في قلب القارب.

أحسست بجميع عضلاتي تنفتل من الشد، وثُمالة قوتي تُعتصر من عظامي. تقيأت لأخرج المياه المالحة التي ابتلعتها حتى بلغت حلقي المحترق ألمًا، ثم وقفت أمام كوي ويداي ترتجفان، حيث كان دمه لا يزال ينزف بدفق ثابت، ورجوت أن تكون أنفاسه منقطعة - رجوت أن يكون قد مات.

لكن الحظ الطيب لم يكن حليفًا لي قط.

ركلته بقوة وأنا أصرخ، ثم تهاويت بجانبه أحاول التقاط أنفاسي. ثم بصقت في الماء بعض الدم من فمي المجروح وأنا أنظر للوراء صوب الجزيرة. انشقت شفتاي وتورم خدي، لكنني

كنت على قيد الحياة. كان هذا حقًّا كل ما يمكن أن أرجوه.

كان يجدر بي أن أتركه يغرق في الظلمات، لماذا لم أتركه؟

لستِ من طينة تناسب هذا العالم يا فيبل.

رحت أسب وألعن، وأغمضت عينيَّ، بينما تردد صدى كلمات سينت في رأسي الذي يئن وجعًا. لقد قال الكلام نفسه عن أمي.

انتشلت المجداف الطافي على الماء ونهضت واقفة أسحب الشراع بذراعين خائرتين. كان الحبل ثقيلًا في يدي وأنا أسحبه، وحين تلقفت الرياح الشراع ذرفتُ دمعة حارة انسلتْ على خدي.

ليس أمامي ثلاثة أسابيع، ولا حتى ثلاثة أيام.

وعند مرتفعات جزر الحاجز لاحت أشرعة ماريجولد وهي لا تزال مطوية اتقاءً للعاصفة الوشيكة.

إن بقيتُ حية حتى غروب الشمس فستكون لديَّ فرصة واحدة سانحة لمغادرة الجزيرة، ولسوف أغتنمها.

الفصل الخامس

في مصادفة عجيبة وجدت الشاطئ يكاد يكون خاليًا عندما سحبت القارب إليه. لعل كوي كان ينطق بالحقيقة حين أخبرني بأن الجرّافين ما زالوا يتقايضون مع التجار على الأرصفة البحرية، أو لعلهم كانوا يتجهزون لهبوب العاصفة، وأيًّا يكن فإنه لم يتناثر على الشاطئ سوى ثلة قليلة من الناس يمكن أن يلاحظوا عودتي من عند الشعاب المرجانية.

رميت شباك الصيد المتشابكة على جسد كوي الساكن، وأمسكت بحزامي، وقفزت من جانب القارب فتناثر الماء على إثر هبوطي. أول سؤال سيطرحه أي شخص يراني هو: ماذا كنت أفعل على متن قارب كوي وحدي؟ ثم سيتساءل عن مكان وجود كوي.

ألقيت المجداف داخل القارب، وتوالت خطواتي تشق طريقي المعتاد نحو الكهف المائي، حيث ثبتُّ مصائد الأسماك. بدأت الشمس تتوارى في الأفق، وأخذت الرياح تشتد. سيتجهز طاقم ماريجولد للإبحار حالما تمر العاصفة.

حدجني جرّاف يحمل حزمة من السلال الفارغة في أثناء مروري به، ومددت يدي كي أتحسس شفتيّ ببناني. لم أعرف مدى التضرر الذي لحق بوجهي، ولم تكن ثمة طريقة لمواراته، وحالما يعثرون على كوي سيربطون الخيوط ببعضها.

أخذت أول الطريق وانطلقت جنوبًا باتجاه نهاية أطول امتداد للرمال. وعندما توارت الشمس خلف المرتفعات تلحف الشاطئ بالعتمة، واصلت المسير حتى المنحدرات، وتلفتُّ ورائي كل بضع خطوات، لكنني جمدت في مكاني حين وصلت إلى الصخور، حيث راعني المشهد.

تعرض الكوخ للنهب، وسُرقت منه الأشياء القليلة ذات القيمة، وبقية الأشياء كان حطامها مبعثرًا على الرمال.

كان كوي قد حاك لي شراك المكيدة؛ حيث أخذني إلى البحر على قارب فارغ ليتتبعني ويجد مخبأ أحجار البايار بينما نهب أصدقاؤه كوخي بحثًا عن النقود وأحجار البايار، لكنه لم يظن أنني سأعود إلى الجزيرة حية. وسواء أفاق في قاربه أم لا فسوف يغرز أحدهم سكينًا في أحشائي بحلول الوقت الذي تهب فيه العاصفة على الشاطئ.

زحفت عيناي نحو الشجرة الواقعة على مرمى البصر واضطرب خفقان قلبي.

ركضت نحوها وأنا أردد: «رجاءً رجاءً رجاءً...»، وقفزت من شفير الجرف لأتشبث بأكبر فرع، وأرجحت نفسي لأعلى فوق الجذع.

راحت يدي تفتش في لحاء الشجرة بسرعة محمومة بحثًا عن التجويف، ثم أفلتت مني صرخة حين أمسكت أصابعي بالجراب، ثم ضممته لصدري. لم يعثروا عليه.

مسحت دموعي بظهر يدي، واجتاحتني ارتجافة حين عاودتني صورة الجسد الطافي فوق الشعاب المرجانية. لو لم أسُرع لكانت قدماي الآن مقيدتين في الشعاب المرجانية ورئتاي مغمورتين بماء البحر البارد. ثم ارتطمت قدماي بالصخور، ومزقتُ حاشية قميصي في شريط طويل قبل أن ألفّه بإحكام حول جراب النقود الذي يقبض عليه كفي، وربطت طرف الشريط بأسناني، هكذا إن ابتغى أحدهم سرقته فسيتعين عليه هذه المرة انتزاعه من أصابعي الباردة وأنا جثة هامدة.

في الأسفل كانت القوارب المكتظة بالجرافين آتية من جزر الحاجز قاصدةً الشاطئ، وقد توجهت أبصار الغالبية العظمى منهم نحو الأفق، حيث كانت الغيوم الحالكة تبتلع القمر المتصاعد. مسحتُ سيف البحر بعينيّ بحثًا عن قارب كوي، وحين وجدتُ ضالتي تجمد

الدم في عروقي، واجتاح جلدي إحساس بالوخز. كان القارب هنالك على الرمال حيث تركته، لكن كوي لم يكن فيه.

تحولت عيناي إلى الطريق المظلم، حيث لم يكن بالإمكان سلوك هذا المسار، فحتمًا سيلاقيني فيه شخص يبحث عني.

استدرت في اتجاه الرياح، وصعدت أركض فوق صخور غير مثبتة بين كثبان الحصى في دهاليز مغارة من مجاري أنهار جافة. ثم استندت بإحدى يديّ إلى الجدار وقدماي العاريتان تكافحان بحثًا عن موضع قدم ثابت في الضوء الخابي. لم يكن ثمة طريق للعودة إلى الشاطئ إلا بسلوك هذا المسار شديد التعرج والانحدار، آخر مرة سلكت هذا المسار كانت قبل عامين حين سقطت وكسرت ساقي، كنت على وشك الموت جوعًا وأنا عاجزة عن توفير الطعام أو الحطب لإيقاد النار خلال أول أسبوعين من إصابتي.

لكن في لحظتي هذه بدا الموت على إثر السقوط خيرًا مما سيفعله كوي بي إن عثر عليّ.

عضضت على شفتي السفلى عندما انفتحت الجدران على المنحدر الحاد، واجتاحت الرياح المغارة من حولي. حينها لم أتردد وأنا أضع إحدى قدميَّ على المسار الضيق حابسةً أنفاسي. صعدت الرياح الدافئة من الماء بالأسفل دافعة إياي نحو الصخرة، وحاولت إبقاء عينيَّ على الأرض، بينما إحدى ذراعيَّ تحوم أمامي فوق المنحدر الحاد.

حطت قدمي الحافية على شيء حاد وأنا أتحرك ببطء شديد، فتقهقرت وند مني أزيز، ثم سقطت قطرة دم على الحجر أسفل مني، لكنني تحركت أسرع بلا تلكؤ حتى بلغت نهاية المسار، وقفزت إلى الخارج نحو الرمال، ثم هبطتُ على الأرض بقوة، وتدحرجت على جانبي قبل أن أنهض على قدمي مرة أخرى، وأسير متعثرة صوب الشاطئ.

لاح على مرمى البصر عنقود القوارب الراسية تحت جنح الظلام، وشممت رائحة شواء السمك ودخان النيران المتصاعد من بين الأشجار، ما ينمّ عن أن معظم الجرّافين كانوا

منشغلين بطهي وجباتهم. جميعهم ما عدا واحدًا.

كان أسبيك مستلقيًا على ظهره ثملًا بالمشروب الضار الذي اشتراه بمكسب يومه. وقد لامس الماء قدميه الحافيتين، وكان فمه مفتوحًا يصدر منه صوت غطيط مزعج. ركلته ركلة خفيفة وانتظرت، لكنه لم يصدر سوى صوت غرغرة، وتَقَلّب مقحمًا وجهه في الرمال.

همست وأنا أقفز من فوقه: «آسفة يا أسبيك».

بيد أنني لم أكن آسفة. خلال السنوات الأربع الماضية كنت بالكاد أوفر ما يكفي لبقائي حية، بينما كان هو يبدد نقودًا على المشروبات الضارة تكفي لإطعامي طوال حياتي. ثم إنني لم يكن أمامي خيار آخر لمغادرة الشاطئ إلا بقاربه.

خضت في الماء بهدوء، وألقيت بحزام أدواتي داخل القارب قبل أن أرفع نفسي، وأسحب المرساة الصغيرة، وخفقان قلبي يتسارع.

جلجل صوت غليظ في الفضاء المعتم مناديًا باسمي: «فيبل!».

التفت رأسي صوب الأشجار، واحمر وجهي بحرارة الانفعال، ثم سحبت المرساة على متن القارب، وحللت الشراع.

جلجل الصوت مرة أخرى بدرجة أعلى من صوت البحر وممزقًا الصمت باسمي: «فيبل!».

انجرف القارب ببطء وأنا أمسك بالمجدافين، سأضطر إلى التجديف حتى تلتقف الرياح الشراع، لكن الوقت يداهمني. عاود انفجار الصوت من بين الأشجار.

كان ذلك كوي.

وعندما وقعت عيناه عليَّ ركض هابطًا المنحدر والرمال تتناثر من ورائه. سال الدم الداكن متدفقًا على جانب وجهه ورقبته، وانسال على صدره العاري كأنه يد مبسوطة.

أسقطت المجدافين في الماء، وشددتُ الشراع وأنا أئن متأوهة، ومن فوقي كان قماش الشراع بالكاد يرفرف مع الرياح، لم أكن أتحرك بسرعة كافية. اضطرب خفقان قلبي بإيقاع عشوائي، بينما كان قارب كوي يشق الماء ورائي.

صرخت أرجو مساعدة الرياح لتتلقف الشراع: «هيا! هيا!».

فرقع الشراع وتقوس حين تلقفته الرياح وملأت باطنه، وطُوِّحت قاعدة الشراع مع اندفاع القارب فطرحتني أرضًا. ثم زحفت عائدة إلى مؤخرة القارب، وأمسكت بذراع المقود. كان قارب كوي ينعطف خلفي، وبالكاد رأيت جزر الحاجز، ومن ورائي كانت الجزيرة تودع آخر خيوط الشمس الصفراء الضاربة إلى الحمرة، وكان كوي يتحرك أسرع مني.

كانت حماقة مني أنني لم أتركه في الماء، كانت حماقة مني أنني ركبت هذا القارب معه بمفرده في المقام الأول. إن تسلله خلفي عند الشعاب المرجانية خطأ يقع على عاتقي أنا، والآن إذا أمسك بي قبل وصولي إلى ماريجولد فلن ألوم سوى نفسي.

لستِ من طينة تناسب هذا العالم يا فيبل. تريدين أن تثبتي زيف مقولتي هذه؟ أخرجي نفسك من هذه الجزيرة.

عندئذ ألهبتْ حرارة الدموع عينيّ بينما تمثل أمامي وجه سينت، وانفجرت أقول بحشرجة: «اخرس». لو أنني قطعت هذا الشوط كله لأموت الآن فسأكون قد أثبتُّ صدق مقولته قطعًا.

لم أبطئ سرعة القارب حين أشرفتُ على الرصيف البحري، واعتليت جانب القارب عاقدةً ذراعيّ فوق صدري، وقفزت في الماء المصطبغ بالسواد ومعي حزامي وجرابي، فغطست، وحين صعدت إلى سطح الماء شاهدت القارب وهو يرتطم بعمود في الرصيف وجزء من الخشب يتحطم ويتصدع، بينما كنت أسبح نحو سلم الرصيف، رفعت نفسي لأعلى وعندما حطت قدمي على الألواح الخشبية أطلقتُ ساقيّ للريح.

عندما لاحت لي ماريجولد صرخت باسمه صرخة تخرق طيات الظلام: «ويست!».

كانت السفن تطفو بسكون في المرسى ومصابيحها تتأرجح على أسطحها الخاوية، ومن خلفي سمعت دبيب أقدام كوي على الرصيف يعدو أسرع مني.

صرخت مرة أخرى: «ويست!».

ظهر شبح إنسان على الجانب الأيمن من ماريجولد ورفع مصباحًا ليتبدى في ضوئه وجه فتاة، كانت هي الفتاة التي رأيتها معتلية الصاري ذاك الصباح.

زأر كوي من ورائي وصوته يجلجل كالرعد: «فيبل!».

رمقتني الفتاة من أعلى دون أن تنبس ببنت شفة وأنا أنزلق جراء توقفي المفاجئ بجوار السفينة.

صرخت وأنا أتطاول وأمد يدي نحو السلم المطوي بالأعلى.

تحولت عيناها إلى ورائي نحو كوي، وترددت قبل أن تحل الحبال أخيرًا فانفتح السلم صافعًا بدن السفينة، وثبت لأبلغه، ولما تشبثت به تأرجحت فوق الماء، وخبط كتفي في جانب السفينة.

انزلق كوي على الرصيف ليصل إلى ساقي بسرعة، وأمسك بساقي، بيد أنني ركلته فطرحته أرضًا، وتسلقت الحبال بيدين مرتعشتين حتى ارتميت فوق سور السفينة، وتهاويت على سطحها بقوة فسقطت على ظهري وأنا ألهث.

وقفت الفتاة فوقي، والمصباح لا يزال يتأرجح من يدها.

وفجأة ظهر ويست خلفها وملامحه لا تكاد تظهر في الظلام قائلًا: «سحقًا! ماذا يجري هنا؟». دنا مادًا يده نحوي، وأمسك بذراعي لينهضني.

تحسست موضع سكيني وأنا أفتح فمي لأتحدث، لكنني ما كدت ألتقط النفس التالي حتى أحسست بنَخْس سن السكين المدببة في الجلد الرقيق أسفل فكّي. كانت الفتاة بجواري على الفور قابضة على خنجر مرصع بالجواهر تسدده نحوي.

رفعت يديّ أمامي، وسكنت حركتي مع ظهور المزيد من الأشباح على سطح السفينة وراء ويست الذي سلط عليَّ عينيه المتقدتين بشرر الغضب.

جلجل هدير كوي الغليظ مرة أخرى في الأسفل: «فيبل!»، ومع ذلك لم يتزحزح ويست، ولا شرد بصره عني.

رفعت يدي في الفراغ الفاصل بيننا، حيث كان الجراب الثقيل لا يزال مربوطًا في كفي وقلت: «أربعون عملة نحاسية نظير اصطحابي إلى منطقة المضايق».

جَمُد ويست بينما اتقدت عيناه بإعصار من الأفكار قبل أن يقبض على ذراعي مرة أخرى، ويدفعني للخلف قائلًا: «اغربي عن سفينتي».

عضضت بقوة على شفتي ووخز الدموع الحبيسة يتأجج خلف عينيّ. لم يكن ثمة مناص من إعطائه كل شيء. قلت بأنفاس منقطعة: «اثنتان وخمسون عملة نحاسية وقطعتان جيدتان من أحجار البايار»، ثم أردفت بلهفة: «أرجوك».

قال ويست وقبضتاه مضمومتان على جانبيه: «نحن تجار، لا نأخذ مالًا لنقل أحد».

كانت تلك كذبة وكلانا عرفها، لطالما كان التجار ينقلون الناس بمقابل مادي.

هبطت عينا ويست على شفتي المشقوقة، ولمحت حركة عضلات فكه. ما زلت أشعر بالدم الجاف يلطخ بشرة وجهي. نظر ويست من فوق سور السفينة ناحية كوي الذي كان يذرع الرصيف بالأسفل في انتظاري، وقال: «ما الذي أقحمتِ نفسك فيه؟».

مددت يدي إلى الوراء ببطء، واستللت السكين من حزامي، وبحركة واحدة جعلت النصل بين راحة يدي وجراب النقود وقطعت الرباط، ثم ألصقته في صدره.

تحشرج صوته كأنه رمل رطب ينفرك على صخرة وهو يقول: «لن أصطحبك إلى أي مكان».

ازدردت ريقي بصعوبة وأنا ممتنة للظلام الذي يداري ضعفي. أحسست بلهيب يلفحني من الداخل، والدموع الخائنة تحتشد في مقلتيّ، ثم وضعت نصل السكين بين أسناني، ووضعت إحدى قدميّ على السور لترسو على السلم، ثم قلت: «حسنًا، لا بد أنني سأجد قبطانًا واحدًا على الأقل في هذا المرسى يرضى باثنتين وخمسين عملة نحاسية».

زفر ويست زفيرًا طويلًا، واعتصرت قبضته السور وهو يقول: «انتظري».

تجمدت في مكاني، وانسلت دمعة على خدي. أرسل بصره من فوق رأسي نحو بقية السفن الراسية في المرسى قبل أن يعود بهما إلى الماء.

قالت الفتاة بنبرة مشددة تشي بتحذير: «ويست»!.

برزت حدة ملامح وجهه وأنا أراه من مشهد جانبيّ على ضوء القمر وهو ينظر نحوها، ثم أفلتت لعنات من لسانه وهو يمد يده نحوي، ثم قال: «أعطني النقود».

فغرتُ فمي وأنا أقول: «ماذا؟».

ردد الكلمة شخص آخر على سطح السفينة لم أستطع رؤيته: «ماذا؟».

تجاهله ويست، وقال مرة أخرى بروية أكبر: «النقود».

قفزت من فوق السور إلى سطح السفينة، وكررت العرض والاستماتة غير خافية في صوتي: «اثنتان وخمسون عملة نحاسية وقطعتان من أحجار البايار مقابل نقلي إلى سيروس».

«اتفقنا».

أمسكتُ يده وصافحته، لكن الفتاة بجواري كانت تحدق إليه ورأسها مائل في حالة ذهول.

صاح كوي: «يجدر بك عدم العودة إلى هنا يا فيبل!»، وجفلتُ حين تركت يدي يد ويست. أردف كوي: «إن رأيت وجهكِ على هذه الجزيرة مرة أخرى فسأربطكِ في الشعاب المرجانية الشرقية! سأشاهد لحمكِ يتعفن على عظمكِ!».

شاهدته يعود أدراجه على الرصيف، ويذوب في الظلام. لم أدرك ما فعلته إلا بعد أن عدت بناظريّ إلى وجوه البحارة الواقفين على متن ماريجولد.

لقد نجحت في مغادرة جزيرة جيفال.

الفصل السادس

ضرب البرق فأضاء الغيوم المتكاثفة فوق ماريجولد، ناشرًا في ثنايا الغيوم شبكة عنكبوتية من الضوء. وصلت طليعة العاصفة إلى جزر الحاجز تحت رداء الظلام فنشرت ضبابًا باردًا تذروه الريح. ارتجت السفينة قُبالة العاصفة، وتأرجح المصباح في قبضة الفتاة وهي ترفعه أمامها.

رمقتني بنظرة فاحصة من رأسي إلى قدميَّ الحافيتين وقالت: «آخر ما أعرفه أننا أدلينا بأصواتنا بصفتنا طاقم البحارة».

تجاهلها ويست، وألقى جرابي في الهواء فالتقطه من ورائه شاب بكلتا يديه، وكان الشاب يرتدي نظارة، حيث انعكس ضوء المصباح على عدستي النظارة الواسعتين المستديرتين وهو يتطلع إليَّ.

وتقدم إلى الأمام رجل آخر ذو شعر داكن مضموم إلى قفاه كي لا تسقط خصلاته على وجهه، وقال: «أنا مع وِيلا، لم تسألْنا عما إذا كنا نريد اصطحاب مسافر».

لازمت مكاني في ظل الحجرة الخلفية على سطح السفينة وحزام الأدوات ملتصق بصدري. ووقف أربعة من أفراد الطاقم أمام الصاري الرئيسي في انتظار جواب من ويست. لكن بدا كأنه يزن كلماته بعناية، وأجج الصمت توتر الأجواء.

نظر ويست ناحية الفتاة قائلًا: «إنها اثنتان وخمسون عملة نحاسية».

ضحكت نصف ضحكة وقالت: «لا يمكن أن تكون جادًّا، ما شأننا باثنتين وخمسين عملة نحاسية؟ لم نصطحب مسافرًا واحدًا على هذه السفينة منذ ما يربو على العامين، ولست أفهم سبب قبولنا هذا الآن».

وقف الرجل ذو النظارة يراقب المشهد ناقلًا عينيه بينهما، ومما أراه من بقع تلطخ أطراف أصابعه القابضة على جرابي خمنت أنه مسئول حساباتهم النقدية. رجل مثله لا يكترث لما إذا كنت على مسافة لحظات من تمزيق كوي أحشائي، ولا يأبه بحقيقة أنهم كانوا يتاجرون معي طيلة العامين المنصرمين. كانت مهمته التأكد من عدم التدخل في شئون الآخرين، سواء أكان الشأن جيدًا أم سيئًا.

هبط رجل ثالث داكن البشرة من الدَّرج المجاور لي، وإحدى يديه تفرك رأسه المحلوق، وقال: «ما هذا يا ويست؟».

فانفجر ويست هاتفًا: «إنها نقود، أترى ثمة مشكلة في ذلك؟».

حدقت الفتاة التي نادوها ويلا إلى ويست بعينين واسعتين خاليتين من أي تعبير، وقالت: «في الحقيقة أنا أرى مشكلة في ذلك».

تحول ويست إلى مسئول الحسابات وانفعاله الشديد يتجلى أثره في حركة عضلات فكه، وقال: «وزع النقود على أفراد الطاقم يا هاميش، لن أبلغ عن هذا المبلغ ولن أقيده. اشرب ما يحلو لك من مشروبات حين نصل إلى ديرن أو اشتر لنفسك حذاءً جديدًا. لا أكترث لما تفعله بها».

بدا أن هذا يرضيهم في الوقت الحالي، إذ خيم الصمت على السفينة. بيد أن الشك لا يزال يلوح في نظراتهم الجانبية التي يرسلونها لبعضهم. لن يجادلوا بشأن وضع نقودي في جيوبهم، خاصة أنها لن تدخل في سجل حسابات السفينة. لكن فكرة وجودي على ماريجولد لم ترقهم، ولم يأبهوا بما إذا كان ذلك واضحًا لي.

عندئذ تحدث هاميش بصوت هامس، كأن كلماته حسمت القرار: «اثنتان وخمسون عملة نحاسية، توزع على خمسة».

اختلست نظرة خاطفة إلى صاري السفينة. لم أعتلِ ظهر ماريجولد قط ولا رأيت بقية الطاقم، كنت أقابل ويست على الرصيف البحري فقط حين تتوقف السفينة عند جزيرة جيفال. مما يبدو فقد أداروا السفينة بخمسة أفراد فقط، لكن مثل هذه السفينة تتطلب عمل عشرة أفراد على الأقل، وربما اثني عشر.

صحح ويست كلامه: «أربعة أشخاص فقط. لست أريد شيئًا».

أومأ هاميش إيماءة واحدة وتفحص وجه ويست محاولًا استقراءه، لكن لم تكن ملامحه تشي بأي مما كان يفكر فيه.

حدجته ويلا وقالت: «لقد قلت للتو إنك قبلت اصطحابها من أجل النقود».

نظر في عينيها الضيقتين وهو يهز رأسه بحركة سريعة في اتجاهي قبل أن يولينا ظهره منصرفًا، ودبيب حذائه يطرق ظهر السفينة قبل أن يتلاشى شبحه عند ولوجه الباب المفتوح.

زفرت ويلا زفيرًا طويلًا وهي تراقب المدخل المقوس المظلم قبل أن تحول ناظريها ناحيتي أخيرًا. انقبضتُ حين تحول ضوء المصباح الخابي ليضيء الجانب الآخر من وجهها، إذ كان خدها الأيسر غليظ الجلد ومتوردًا، والبشرة تلتئم من حروق بالغة تحتل طول رقبتها وفوق فكها إلى أن تنتهي في شكل سن مدببة.

عرفت تمامًا معنى هذه الشامة، لقد رأيت مثل تلك التشوهات من قبل، إنها أثر نصل سكين طويل أحُمِيَ على النار وكُوِيَ به وجه أحدهم لتلقينه درسًا. كانت عقوبة تهدف إلى استمرار الإذلال لفترة طويلة بعد زوال الألم، أيًا كان الجرم الذي ارتكبته تلك الفتاة فقد دفعت الثمن.

لم أدرك أنها كانت تشاهدني وأنا أتطلع إلى أثر التشوه إلا حين نظرت في عينيها. قالت: «هيا»، وأنزلت المصباح فاكتنفها الظلام مرة أخرى، واجتازتني عابرة المدخل المقوس.

نظرت ورائي مرة أخرى نحو الرصيف البحري في الأسفل. سيعود كوي إلى الشاطئ في أية دقيقة الآن، وحين يفيق أسبيك من سباته سيجد قاربه قد اختفى. وأيًّا يكن من أمر فلن أراه مرة أخرى على هذه الجزيرة أبدًا.

هذا ما رجوته.

رصدتني أعين أفراد الطاقم وأنا أغادر موضعي بجوار السور، وأتبع ويلا في الممر الضيق، وأحسست بنظراتهم الثقيلة مركزة على ظهري. أصدر مقبض المصباح صريره أمامي، وتبعت ضوءه إلى أسفل الدرجات الخشبية، حيث تزداد قوة رائحة السمك المخلل والفاكهة الناضجة، وقد نُحِتَ شعار ماريجولد في الأبواب الثلاثة المصطفة على طول الجدار. رفعت إصبعي في أثناء مروري بالباب لأتحسس الخطوط العريضة التي تشكل زهرة داخل إكليل من الأغصان المورقة، وفي قلب الزهرة المتفتحة تلوح نجمة صغيرة خماسية الرؤوس.

في طفولتي حين كنت أبحر على متن سفينة أبي التجارية كنت أعرف شعارات جميع السفن التجارية. لكنني لم أر هذا الشعار مطلقًا حتى شاهدت ماريجولد لأول مرة قبل عامين عند جزر الحاجز وأنا أبحث عن مشترين لأحجار البايار. أيًّا كان المكان الذي أتوا منه فلا بد أن طاقم هذه السفينة لا يزال في بداية الطريق التجاري، لكن كيف تمكنوا من الحصول على سفينة وترخيص من مجلس التجارة؟ إجابة هذا السؤال لا يمكن أن تكون بسيطة.

ولجت ويلا في مدخل باب مفتوح، وعلقت المصباح على خطاف صدئ مثبت في الجدار. وولجتُ وراءها إلى الداخل حيث تتأرجح أراجيح شبكية مرقعة معلقة في عوارض خشبية بالسقف القريب من أرضية الحجيرة.

اتكأت ويلا على عمود وقالت: «هذا هو المكان الذي ستنامين فيه»، وعيناها تتفحصانني حتى وقفتا عند نقطة معينة، فنظرت إلى أسفل لأرى أنها كانت تتطلع إلى طرف الندبة

التي تطل من تحت كمي. وأردفت: «لن نصل إلى سيروس إلا بعد بضعة أيام، علينا التوقف في ديرن أولًا».

أومأت برأسي، وأبقيت ظهري مستندًا إلى الجدار.

سألتني: «هل تريدين أن تأكلي؟».

أجبتها كاذبة: «لا». لقد أكلت سمكة واحدة فقط خلال اليومين الفائتين، بيد أنني لم أكن غبية، إذ علمت أنها تحاول جعلي مدينة لهم بشيء.

ابتسمت ابتسامة ماكرة وقالت: «جيد؛ لأن مسئول الإمدادات لم يخزن سوى ما يكفي لإطعام هذا الطاقم؛ وعندما تحتاجين إلى تناول الطعام يفترض بك أن تعملي من أجله».

هكذا أوصلت لي المعلومة. كنت أعرف كيف تجري الأمور لأنني نشأت على متن سفينة، كنت أعرف الدور الذي يجب أن أؤديه منذ أول مرة جمعت فيها خيوط خطتي التي سأستغل من خلالها ماريجولد لمغادرة جزيرة جيفال، بيد أنني لم أحسب حساب عدم امتلاكي شيئًا أقايض به. كان عليّ أن أحني رأسي، وأن أفعل كل ما يُطلب مني لدفع ثمن الوصول إلى سيروس.

لكن الطريقة التي حدجتني بها الفتاة الآن زعزعتني. لقد كان الانطباع الأول عني سيئًا، وإن لم أجد طريقة لإصلاح الأمور بيني وبين الطاقم فربما أجد نفسي مطروحة في البحر قبل عبور المضايق.

طأطأت رأسي لأتفادى الارتطام بالحاجز من فوقي، ووجدت أرجوحة شبكية معلقة من طرف واحد، بينما الطرف الآخر يلامس الأرضية المبللة. واصطفت الصناديق الخشبية والحديدية على الجدران بنظام، وجميعها مقفلة بأقفال ما عدا صندوقًا واحدًا كان مفتوحًا، وتتقاطر فيه قطرات الماء المتدفقة ببطء من بين الألواح العلوية، وكان يحوي إزميلًا

صغيرًا صدئًا. وعُلق من فوقه زوج من الأحذية من أربطتهما على مسمار معوج، لعله يخص الجرّاف بين أفراد الطاقم.

أخذت ويلا المصباح من الجدار، وعادت أدراجها إلى الممر، فومض في الضوء بريق الخنجر المرصع بالأحجار الكريمة المحشور في مؤخرة حزامها. صعدت الدرج، وتركتني في ظلمة حالكة مع وقع دبيب خطواتها المتعاقبة على ظهر السفينة. علقتُ الطرف الآخر من الأرجوحة الشبكية على خطاف حديدي، ثم ارتميت فيها وجسدي يغرق في قماشها السميك الرطب.

كان صوت الأمواج التي تعانق السفينة هو الصوت الوحيد الذي طرق أذنيّ إلى جانب الأصوات الخافتة القادمة من أعلى السفينة. استنشقت أنفاسًا من الهواء المتعفن وأنا أصيخ السمع إلى أزيز الخشب وطرطشة الماء. وفجأة عدت إلى طفولتي وأنا أتأرجح في أرجوحة شبكية على متن سفينة لارك.

كنت مستغرقة في النوم على متن سفينة أبي حين طرق أذنيّ صدى صوت الجرس الحاد يمزق سكون الليل، ولم تكد تنقضي دقائق حتى أعقبه صوت انكسار الصاري ونُواح ريح عاتية. عثرت عليَّ يداه في الظلام، ووجهه يطالعني من الأعلى على ضوء شعاع فضي من ضوء القمر المتسلل من خلل الألواح.

ليلة غرق السفينة لارك. ليلة موت أمي.

وفي طرفة عين انقلبت حال عالمي كله.

في اليوم التالي نبذني على جزيرة جيفال.

مددت يدي إلى الجيب الصغير الذي حِكته في خصر سروالي، وأخرجت آخر ما تبقى من عملاتي النحاسية. لم أسلمهم جميع العملات النحاسية، فقد كانت تلك العملات الست أول ما جنيته على الإطلاق، ولم أنفقها قط. لقد ادخرتها لتنفعني في أكثر اللحظات يأسًا، والآن

هي كل ما تبقى لي. لكن ست عملات نحاسية كانت ستوفر لي طعامًا ومأوى ليوم واحد أو نحو ذلك في المدينة. إذا كنا سنتوقف في ديرن فستكون هذه فرصتي الوحيدة لمحاولة مضاعفة نقودي قبل أن نصل إلى سيروس، وإن لم أنجح في ذلك فسيتعين عليَّ الظهور على عتبة باب سينت وأنا صفر اليدين، وهو موقف عاهدت نفسي على ألا أضع نفسي فيه أبدًا.

أصدر لوح في الممر صريرًا، فوثبت يدي إلى حزامي على الفور وسحبت السكين. حملقت إلى الظلام الفارغ الذي لا يظهر فيه شكل وأنا أترقب صدور صوت آخر، بينما أعيد نقودي إلى الجيب الصغير، لكن لم أسمع سوى صخب العاصفة التي كانت تزحف نحو جزيرة جيفال. اصطفق باب ينغلق مع ميلان السفينة، فقبضت على السكين في مستوى صدري، وأصخت السمع.

بضعة أيام فقط.

هذه هي المدة التي يجب أن أحافظ على حياتي فيها، بعد ذلك سأكون واقفة بباب أبي أطالبه بما وعدني به، أطالبه بما هو مدين لي به.

مددت يدي تحت كم قميصي فعثرت على الندبة سميكة الجلد المنحوتة في ذراعي، وتحسستها ببناني متتبعة مسارها الذي يشق ساعدي كدهاليز ممتلئة بالدم في نمط حفظته عن ظهر قلب. والدي هو من وسمني بها في اليوم الذي نبذني فيه على جزيرة جيفال، شاهدته في فزع وهو يجتر طرف سكينه في لحمي من دون أن ترتعش يده. قلت في نفسي إن لوثة أصابته جراء موت أمي هي التي جعلته يُقدم على هذه الفعلة، قلت إن الحزن أعطب عقله، وأفقده صوابه.

بيد أنني تذكرت ملامحه الهادئة وهو يجرحني، والطريقة التي كان يميل بها رأسه إلى الجانب بينما كانت دمائي تسيل على أصابعه. منذ آخر مرة رأيته فيها لم يشغلني شيء سوى حلمي باللحظة التي سأراه فيها مرة أخرى، لم أفكر في شيء آخر. الآن وقد أصبحت

قريبة جدًّا من غايتي أحسست باضطراب في بطني، واختلال في خفقان قلبي. الرجل الذي علمني ربط العقد وقراءة الخرائط لم يكن الرجل نفسه الذي أغمد السكين المخضلة بدمي في حزامه وأبحر بعيدًا.

عما قريب سأكون في سيروس، ولست متأكدة أي الرجلين سوف أجد وراء ذاك الباب.

الفصل السابع

ارتطمت البَكَرة بسطح السفينة فأيقظني الصوت مفزوعة من النوم. طرفتُ بعيني وفركتُهما في حين راحت معالم الحجيرة تتبدى لي أكثر فأكثر. كانت الأرجوحة الشبكية تتأرجح جيئة وذهابًا، وثمة زجاجة فارغة تتدحرج فوق الألواح الخشبية، نهضت وأنا أخُلص نفسي من نسيج الأرجوحة المهترئ.

استندت إلى الحائط، وتحركت بتمهل عبر الممر وأنا أضُيق أجفاني لأنظر تجاه وهج الشمس الساطع وهو يضيء الدرج في وسط النهار. حين وصلت إلى سطح السفينة شاهدت أفراد الطاقم منخرطين بالفعل في أداء مهماتهم، ثم استدرت حول نفسي في دائرة كاملة وأنا أتطلع إلى البحر فأحسست بغصة تعترض حلقي من فرط الدهشة. ترامى اللون الأزرق في كل اتجاه، حيث لم يشاركه المشهد سوى خط الأفق والرياح والهواء المشرب بملح البحر.

اتكأت على سور السفينة أصيخ السمع إلى الجزء الغاطس من السفينة وهو يشق الماء بصوت همس مألوف، وارتسمت ابتسامة على شفتيّ فأججت الألم في جلدي المتمزق، فمددت يدي، وتحسست الجرح المتورم الملتهب.

وأحسست بعينين مثبتتين عليّ، فدفعني الإحساس إلى رفع ناظريّ لأعلى، حيث جلست ويلا في حمالة من الحبال عند رأس الصاري الأمامي، وإحدى يديها تقبض على قَدُوم رأسه الحديدي مثبت في مقبض خشبي، وأحد طرفي الرأس عبارة عن نصل حاد، بينما الطرف الآخر يستخدم كمطرقة. كانت تلك الأداة خاصة بمن يتولى منصب رئيس سطح السفينة - وهو الفرد المعنيّ بإبقاء السفينة عائمة.

«تحركي».

طرق الصوت مسمعي فوثبت مولية ظهري إلى سور السفينة قبل أن أنظر إلى أعلى لأرى الشاب ذا الشعر المقزع والبشرة السمراء يقف فوقي وفي يديه حقيبة.

تمتم وهو يتجاوزني: «أفسحي الطريق يا جرّافة».

خطا ويست في الممر الجانبي المفتوح قائلًا: «ما تفاصيل موقعنا الآن يا باج؟»، وأوقف خطواته حين رآني.

أنزل الرجل المدعو باج حقيبته على الأرضية وفتحها، فوقعت أشعة الشمس على أداة القياس التي تستخدم في الملاحة وتسمى بالثُمنيّة. كان باج عريض الجسم بقدر ما هو طويل، وأكمام قميصه قصيرة جدًّا على ذراعيه الطويلتين.

رددت بصري بينه وبين ويست وأنا متحيرة حتى أدركت أن هذا الرجل لا بد أنه ملاح ماريجولد. لكنه كان أصغر من أن يشغل منصبًا كهذا. حقًّا كانوا جميعًا أصغر من أن يشغلوا أي منصب أعلى من منصب العامل العادي على السفن. كانوا صبيانًا على مشارف الرجولة.

أخذ باج أداة القياس من البطانة المخملية بعناية، ورفع العدسة، ووجّه المنظار نحو الأفق. انعكس ضوء الشمس على المرايا الصغيرة وهو يمد ذراعه للأمام، ويعدل المقابض المثبتة في الأداة، وبعد هنيهة سكنت حركته وهو يحسب الحسابات في رأسه.

اتكأ ويست على مدخل الحجرة منتظرًا الجواب، ومن ورائه تمكنت من رؤية زاوية مكتب ونافذتين مؤطرتين خلف سرير صغير متقن الصنع، كانت تلك الحجرة مقر القبطان.

أنزل باج أداته، ونظر إلى ويست قائلًا: «العاصفة أخرتنا نصف يوم فقط، يمكننا أن نصل في الموعد إذا ظلت الرياح قوية وحافظت ويلا على توازن الأشرعة».

أسرعت ويلا قائلة وهي ترنو إلينا من مكانها على قاعدة الصاري: «الأشرعة بخير».

أومأ ويست لباج بإيماءة حادة قبل أن يتوارى في حجرته، ويغلق الباب خلفه.

صاحت ويلا: «طيور سيئة!» وهي تغطي رأسها بذراعيها، بينما كان طائر قطرس يحوم بجانب الشراع، وقد أمسك بخصلة من خصلات شعرها الملتوي قبل أن تهشه ويلا بعيدًا.

في الجزء العلوي من الصاري الرئيسي ضحك ذو الشعر الطويل الداكن، حيث كان جالسًا وسط الحبال حافي القدمين ممسكًا بوعاء خشبي في يديه، ثم تجمعت الطيور حوله وأجنحتها ترفرف عكس اتجاه الرياح، وتتناول مما بداخل الوعاء.

بفعله هذا كان يبذر الحظ السعيد للسفينة، ويُكرم الموتى الذين غرقوا في هذه المياه، لطالما أخبرني والدي بأن الطيور البحرية هي أرواح تجار تائهين، وإبعادها أو منعها من الحط على السفينة أو منعها من تشييد الأعشاش مجلبة للحظ السيئ. ومن المعلوم أن أي إنسان يتجرأ على الإبحار في منطقة المضايق يحتاج إلى كل ذرة ممكنة من الحظ السعيد.

سمعت صوت أقدام تحط على ظهر السفينة من خلفي، فالتفتُّ لأرى ويلا تفك الحبال من حول خصرها. كان شعرها مجدولًا في جدائل برونزية طويلة تتهاوى على كتفيها، وتحت أشعة الشمس تبدى جلدها بلون الأحجار الرملية الصفراء الضاربة للسمرة التي كانت تتفتت على منحدرات جزيرة جيفال.

مددت يدي نحوها وقلت: «أنا فيبل».

اكتفت بالنظر إلى يدي وهي تلقي الحبل على كتفها، وانكشف أثر الحرق على وجهها من فوق فكها ممتدًا حتى نهايته المدببة على خدها، ثم قالت: «ألأنني الفتاة الوحيدة على هذه السفينة تظنين أنني أريد مصادقتك؟».

أنزلت يدي وقلت: «لا».

فقالت: «إذن تنحي عن طريقي»، وابتسمت ابتسامة امتعاض في انتظار أن أتنحى.

فخطوتُ خطوة نحو الصاري الرئيسي، أما هي فصعدت الدرجات نحو مؤخرة سطح السفينة دون النظر إلى الوراء. وعندئذ ألقيت نظرة فاحصة على السفينة.

كانت ماريجولد سفينة من طراز لورتشا، وصغيرة الهيكل بما يكفي للمناورة في أثناء العواصف التي تجوب هذه البحار، ومع ذلك فالهيكل كبير بما يتسع لاحتواء حمولة كافية لإجراء عمليات تجارية محدودة. كانت أشرعتها الفريدة هي التي تميزها في البحر - إذ تألفت من ستائر من القماش الأبيض مع أضلاع خشبية منحنية بعض الشيء كأجنحة الخفافيش. كانت سفينة أبي سينت، المسماة لارك، أكبر حجمًا من هذه السفينة بكثير وعدد الطاقم يبلغ خمسة أضعاف عدد طاقم هذه السفينة. بيد أن رائحة الخشب المطلي والحبال المشربة بالملح كانت توجد في كل سفينة.

إذا أغمضت عينيّ، كنت أتخيل أنني على سفينة لارك، حيث تعتلي أمي الصواري، ويقبض سينت على عجلة الدفة، لكن صورة الذكرى كانت خابية الألوان لبُعد الزمن، ليست مثل ذكرياتي من جزيرة جيفال.

في كل يوم على الجزيرة كنت أشاهد تلالها الخضراء التي يبدأ ارتفاعها من الشاطئ وتواصل الصعود إلى أن تسقط فجأة عند المنحدرات بزوايا حادة. أخفت الأشجار بالأسفل أكواخ الجرّافين، لكن الدخان المنبعث من النيران الموقدة يتصاعد في خيوط بيضاء متراقصة. حاولت محو تلك الذكريات.

لم أرغب في تذكر ذلك.

طرق مسمعي صوت من ورائي: «حان وقت دفع الإيجار».

التفتّ عكس اتجاه الرياح، وفجأة وجدت بجواري الشاب الذي كان على قمة الصاري، نصف شعره الكثيف يتطاير من مربطه خلف رأسه، وكانت رموشه الداكنة تُطوق عينيه

الرماديتين على بشرته العاجية اللطيفة. وقف أمامي وبين ذراعيه كومة من الشباك، والحبل مكتسٍ بطبقة من الملح الجاف.

قلت: «إيجار؟ لقد دفعت لويست بالفعل».

فغمز بعينيه وقال: «كان هذا ثمن النقل. إذا كنت تريدين النوم في تلك الأرجوحة فلهذا ثمن إضافي»، وكانت نبرته ترتفع بعض الشيء في نهاية نطقه الكلمات. حاول إخفاء لهجته لكني لاحظتها، لم يولد في منطقة المضايق، ثم رفع يده مشيرًا إلى وجهي وقال: «وأخبرني ويست بأن أهتم بعلاج هذا الجرح».

قلت: «كي تضيف ذلك إلى فاتورتي؟» ومصصت شفتي المنتفخة بين أسناني، ثم أردفت: «لا بأس».

قال: «هلمي»، وأولاني ظهره منطلقًا من دون أن ينتظرني لأتبعه.

حاكيت مشيته محاولةً مجاراته، ورأيته يلقي نظرة لأسفل نحو قدميّ الحافيتين على سطح السفينة الساخن، لقد ثفنتْ قدماي من سنوات المشي على رمال الشاطئ الحامية، وكانت الأحذية من الرفاهيات التي لم تكن في مقدرتي المالية، وعلاوة على ذلك لم تكن ذات نفع كبير في جزيرة جيفال.

استبقني صاعدًا الدرج نحو مؤخرة سطح السفينة، ورمى كومة من الشباك المتكدسة عند قدمي، ثم قال: «أفترض أنك تعرفين كيفية إصلاح الشباك»، ولم ينتظر ردًّا مني فأعطاني على الفور إبرة مصنوعة من عظام بيضاء قبل أن يعود إلى كومة مصائد السلطعون.

الحقيقة أنني لم أكن أعرف شيئًا عن الشباك؛ في الجزيرة لم أستخدم في الصيد سوى المصائد والحبال، إذ لم يكن ثمة أي أحد يرغب في تعليمي كيفية تهيئة الشباك.

فتح المصيدة عند قدميه وشرع في العمل. لم أكن لأخبره بأنني لم أستخدم إبرة قط أو أن ائتماني على الشباك قد يعني فقدان الأسماك، بدلًا من ذلك جلست وتصرفت كأنني أعرف بالضبط ما أفعله.

كان العثور على الخروق سهلًا، حيث كانت الخيوط مهترئة لكنها كانت كثيرة، ثم وضعت الإبرة على الأرضية بجواري، وتفقدت العُقَد، وقلبت الشبكة لأرى جميع جوانبها قبل أن أقطع الأجزاء التالفة.

قلت: «أنت مسئول الإمدادات»، قلتها بصيغة خبرية لا بصيغة استفهامية. في طفولتي رأيت أن من يتولى مهمة إصلاح الشباك والمصائد على سفينة لارك كان هو الشخص المسئول عن إطعام الجميع. وما دام ويست قد أوكل له مهمة تخييط شفتي فلربما كانت من مهماته أيضًا الاعتناء بالجروح والأمراض.

قال: «أنا أوستر»، ورمى في البحر قطعة من الخشب المكسور ثم أردف: «تقصدين مدينة سيروس، صحيح؟».

كانت يداي ساكنتين على الشبكة، ولم يُحول ناظريه عن المصائد التي يعمل عليها. ثم أجبته وأنا أسحب الخيوط وأفكها: «صحيح».

سألني: «هل سئمت من التجريف في جزيرة جيفال؟».

أدخلت الخيط عبر الإبرة، وشددت ربطته، وأجبته: «بالتأكيد».

بدا أنه اكتفى بالحديث عند هذه النقطة. خلع المزلاج المكسور من المصيدة واستبدل به آخر جديدًا، بينما انبريتُ أقارن بين الشباك لأحاول استكشاف طريقة عمل العُقد، ثم انخرطنا في العمل طيلة ساعات فترة ما بعد الظهيرة، ولم يستغرق مني الأمر سوى بضع محاولات لمعرفة كيفية شد الشبكة للحياكة بالإبرة من اليسار إلى اليمين بطريقة تُحكم شد الرقع الجديدة. ضبطتُ أوستر يراقب حركة يدي أكثر من مرة، بيد أنه لم ينبس بشيء،

متظاهرًا أنه لا يلاحظ كل مرة أسحب فيها سحبة خاطئة أو أفُوت عروة، وأضطر إلى الإعادة.

ظهر باج مرة أخرى في الأسفل متوليًا عجلة الدفة رفقة ويست، وشاهدتهما يوجهان السفينة شرقًا. تحدثا بصوت خافت وعينا ويست مصوبتان نحو الأفق، بينما تفصحت أنا صفحة السماء.

قلت وأنا أنظر إلى أوستر: «حسبتُ أننا ذاهبون إلى ديرن».

ضيق عينيه وهو ينظر إليَّ عبر المصيدة: «لو كنت مكانك لما طرحت أسئلة لا أحتاج إلى إجاباتها».

تحدث ويست وباج عند عجلة الدفة لبضع دقائق أخرى، ونظرا إلى الآخرين وهم يضبطون الصواري والأشرعة. كانا يغيران المسار.

عملت على إصلاح الشباك حتى خبا ضوء النهار، وأمسى الهواء باردًا فهدّأ بشرتي الملتهبة، ثم أحسست بآلام في ظهري وكتفيّ، وبدأت أصابعي تتقرح، لكنني انتهيت من خط العُقد الذي كنت أعمل عليه قبل أن يتفقد أوستر العمل.

لقد تفحص عملي بعناية قبل أن يومئ بإيماءة مقتضبة ويهبط إلى السطح الرئيسي، حيث جلست ويلا برفقة باج عند صدر السفينة ومع كل منهما وعاء يحوي حساءً. تدلت قدما ويلا على الحافة وحذاؤها يركل الرياح، وتَلوّت معدتي حين شممت رائحة السمك المطبوخ.

أرخى الليل سدوله فوق البحر، فانطلت ماريجولد بسواد الليل، إلا الأشرعة البيضاء المنبسطة في السماء المعتمة الملبدة بالغيوم. توارت النجوم واختفى القمر، ولم نتبين خط الأفق حيث نهاية البحر وبداية السماء. كانت الرياح الغربية دافئة تشق طريقها للسفينة قبل أن تندفع عائدة إلى المياه خلفنا.

اصطكت أسناني من أثر الجوع في بطني، لكن ليس بالوسع صرف عملة نحاسية واحدة، وقد أوضحت ويلا كما أوضح أوستر أنه ما من شيء سيقدم لي مجانًا. مررت بجانبهم في جنح الظلام، وتوقفت قبل أن أخطو عتبات الدرج المفضي إلى الطابق السفلي، انتثر الوهج الناعم لضوء الشموع من خلال الباب الموارب على يميني، وشاهدت ظلًّا يتحرك على الأرض بينما حطت يد ثقيلة على كتفي. التفتُّ وسحبت السكين في حركة واحدة لتكون جاهزة بجانبي. رنا إليَّ الشاب ذو النظارة الذي رأيته الليلة الماضية، وجانب واحد فقط من وجهه مضاء بنور القمر، ثم قال: «أنت فيبل».

ارتخت قبضتي على السكين.

قال: «أنا هاميش، مسئول الحسابات على ماريجولد»، بدت وجنتاه محمرتين كأن بشرته لا يناسبها التعرض لرياح البحر وشمسه، وأردف: «إن وضعت إصبعًا على أي شيء لا يخصك في هذه السفينة فسأعرف ذلك».

معظم الناس في منطقة المضايق من الطينة القذرة ذاتها، ولكن حتى الطبقات السفلى من المجتمع تنبذ بعض الأشخاص. كانت جزيرة جيفال هي اليابسة الوحيدة بين منطقة المضايق ومنطقة البحر المجهول، وقد صارت بوتقة تجمع أراذل القوم الذين لهم أعداء كثر يخشون على أنفسهم منهم. وفي أوساط التجار كان أهل جيفال موسومين بأنهم لصوص.

سحبت كُمّ قميصي إلى أسفل في حركة عفوية للتأكد من تغطية ندبتي. كان إيمان التجار بالخرافات أشد من إيمان أهالي جيفال بها، وآخر ما أريده هو أن يبدأ البحارة التساؤل عما إذا كنت سألفت انتباه شياطين البحر نحوهم، إذ مع مرور أول عاصفة يمكن أن يلقوني في البحر.

كان بالإمكان العيش مع بحارة لا يحبونني، لكن إذا كانوا يخشونني فأنا في ورطة حقيقية.

مد هاميش يده من حولي نحو الباب، فانفتح مُصدرًا صريرًا من مفصلاته.

في داخل الحجيرة كان ويست منحنيًا فوق طاولة عليها خرائط مبسوطة، ويحمل كوبًا يحوي مشروبًا ساخنًا في يده التي تتزين بخاتم يلتمع في الضوء. دلف هاميش إلى الحجيرة مقتربًا منه وهو يحمل مخطوطة ملفوفة وريشة محبرة سوداء.

تمتم ويست: «شكرًا»، واستكانت حركته حين جال ببصره نحو الباب ورصدني.

قلت: «أنا...»، لكن الكلمات تطايرت، وتواثب قلبي حتى بلغ حلقي. لم أكن متأكدة مما قصدت قوله.

أومأ ويست بذقنه ناحية الباب فامتثل هاميش ومر من أمامي دون أن ينبس بكلمة، واختفى في الممر المظلم.

وضع ويست الكوب على الخريطة، وعبث بخاتمه وهو يخطو ليقف قبالة الطاولة ويقول: «ما الأمر؟». لم تفتني حركة وقوفه أمام الخرائط ليحول بيني وبين رؤية ما تحويه.

تطاولت بجسمي قليلًا وقلت: «أردت أن أشكرك».

فتساءل: «على ماذا؟».

ندت حركة من حاجبيّ وقلت: «على اصطحابي».

فقال بفتور: «لقد دفعتِ ثمن نقلك».

تلعثمت: «أنا... أنا أعرف. لكني أعلم أنك لم تُرد أن...»

قاطعني: «اسمعي. أنت لا تدينين لي بأي شيء، وأريد أن يكون كلامي واضحًا» - والتقت عيناه بعيني للحظة بدت متطاولة - ثم أردف: «أنا لست مدينًا لك بأي شيء».

قلت: «لم أقل إن...»

فقاطعني مرة أخرى، واقتحمت نبرة حادة صوته الهادئ: «لقد وضعتِني في موقف سيئ بقدومك إلى المرسى الليلة الفائتة... موقف لم أرُده».

عرفت ما كان يقصده. لم يوافق طاقمه على قراره بقبول نقلي، والآن عليه أن يُسوي الأمر معهم بطريقة ما. قلت: «أنا آسفة».

فرد: «لست بحاجة إلى اعتذار. ما أحتاج إليه أن تغادري سفينتي. فعندما نصل إلى سيروس سترحلين».

طيلة الفترة التي تاجرت فيها مع ويست لم ينطق بهذا العدد من الكلمات مطلقًا، لطالما كان هادئًا على الدوام وكلماته مقتضبة ويبدو نافد الصبر، ولطالما جال بصره عبر المرسى ولم تثبت عيناه عليَّ مطلقًا، لكنهما ثابتتان عليَّ الآن. التقت عيناه بعينيّ مقدار شهيق وزفير قبل أن تتهاوى إلى الأرضية بيننا.

قلت بصوت أرق من المستوى الذي قصدت التحدث به: «لم أعرف أن الأمر سيكلفك أي شيء».

تنهد وهو يمرر إحدى يديه على وجهه ويقول: «لقد كلفني. وسوف يكلفني». وأردف: «في فترة وجودك على هذه السفينة ستعملين وتكدين في العمل. إذا طلب منك أحدهم أن تفعلي شيئًا فعليك أن تفعليه من دون طرح أي أسئلة».

أومأت برأسي وأنا أعض خدي من الداخل، بينما كنت أحاول أن أحسم قراري بشأن طرح السؤال عليه. ولكن في النهاية سألته: «لماذا لا نتجه شمالًا؟».

خطا نحوي ماحيًا المسافة التي تفصل بيننا وقال: «إن كنت تريدين مني أخذ الموافقة منك على المسار الذي نسلكه فسيكلفك ذلك خمسين عملة نحاسية أخرى»، وأردف: «حين نرسو في ميناء سيروس وتطأ قدمك المرسى لا أريد أن أراك مرة أخرى».

فتحت فمي لأتحدث، لكنه أغلق الباب في وجهي، وسمعت صوت المزلاج وهو ينغلق.

كانت الكلمات لاذعة، ولم أكن متأكدة من السبب. لقد كان ويست يشتري مني أحجار البايار على مدار العامين الماضيين، لكننا لم نكن صديقين. لقد كان محقًّا في أنه لا يدين لي بأي شيء، بيد أنه أنقذ حياتي حين ركضت على الرصيف البحري وأنا أهتف باسمه. وبطريقة ما كنت أعرف أنه لن يخذلني.

شيء ما جعله يأخذ العملات النحاسية ويقف ضد طاقمه، شيء ما غير رأيه. حقًّا لم أكترث لمعرفة ماهية هذا الشيء. لم يكن ويست يريدني أن أكون على متن ماريجولد، لكن الحقيقة أنني أخيرًا في طريقي إلى سيروس، وهذا كل ما يهم.

الفصل الثامن

نزفت مفاصل أصابعي وأنا ألف الحبال في حزم مرتبة تحت الصاري الأمامي. انخرطت من قبل الفجر في العمل على ترتيب حبال الصواري التي كان يغيرها باج ويُحل محلها حبالًا جديدة. لقد وهنت حبال الصاري الرئيسي والأمامي على إثر العاصفة التي ضربت السفينة في طريقها إلى جزيرة جيفال، وربما لا تصمد هذه الحبال الواهنة إذا هبت عاصفة أخرى، ولسوف تهب.

كنا لا نزال نبحر شمالًا، يفصلنا عن ديرن مسافة نصف يوم تقريبًا. لقد مرت عدة سنوات منذ آخر مرة أبحرت فيها، لكنني لا أزال أعرف كيفية الإبحار بالاسترشاد بالنجوم، وقد أمضيت نصف الليل في الهواء الطلق على سطح السفينة أرسم البحر في ذهني. كانت ثمة وجهتان فقط يمكن للسفن المنطلقة من جزيرة جيفال الإبحار تجاههما، شمالًا نحو المضايق أو جنوبًا نحو البحر المجهول.

لم أر منطقة البحر المجهول قط، لكنها كانت مسقط رأس أمي. كان مظهر أمي يوحي بأنها نشأت على متن سفينة بسبب جلدها الغليظ ويديها الغليظتين، لكنها أتت إلى منطقة المضايق بمفردها وسنها لا تتجاوز سني الآن، ووجدت لنفسها مكانًا على سفينة سينت بصفتها جرّافة، تاركة وراءها ماضيها في منطقة البحر المجهول. كانت تطوقني بذراعيها ونحن جالستان على الصاري وأقدامنا متدلية، وكانت تخبرني عن مدينة باستيان - وهي المدينة الساحلية التي أشارت إليها بأنها الوطن - وعن السفن الضخمة التي أبحرت في تلك المياه العميقة.

ذات مرة سألتها ما إذا كانت ستعود إلى هناك يومًا ما، وما إذا كانت ستصطحبني إلى هناك يومًا ما، لكنها قالت إن قدرها أن تعيش حياة مختلفة، وأنا كذلك.

انزلقت قدمي الحافية على السطح المبلل حين تباطأت ماريجولد، وصَعّدت بصري لأشاهد هاميش وويلا وأوستر وهم يرفعون الأشرعة. لم يحول باج عينيه عن عمله، وألقى حزمة أخرى من الحبال على سطح السفينة فاستقرت أمامي، وحينها انفتح باب حجيرة القبطان، وأطل ويست من الممر الجانبي المفتوح.

زرّر سترته حتى حلقه، ووضع على رأسه قبعة وهو يعتلي الدرجات إلى مؤخرة سطح السفينة. يشي مظهره بأننا متجهون إلى ميناء، لكننا كنا في وسط خلاء مترامٍ، عند حافة المياه المفتوحة على منطقة البحر المجهول. تبعه هاميش في أعقابه، كأنما شعر بنظراتي فرمقني من فوق كتفه وعيناه تضيقان بإيماءة محذرة.

غضضت طرفي مرة أخرى نحو الحبال، وراقبت المشهد بطرف عيني، بينما كان أوستر يحرر المرساة، ويفك الحبال على طول سور السفينة. تولت ويلا وهاميش أمر البكرات لإنزال الزورق المثبت في الجزء الخلفي من السفينة، وحين نزل الزورق بأمان هبط إليه ويست.

وضعت الحبل على الأرضية، وانحنيت على سور الجانب الأيمن لألقي نظرة إلى أسفل السفينة. على مرمى البصر لاحت مجموعة من الجزر المرجانية الصغيرة المطلة فوق سطح المياه الزرقاء الصافية كأنها كومة من الحجارة المكدسة. راح ويست يجدف وهو يميل بجذعه للخلف، ويجذب المجاديف إلى صدره فينجرف الزورق في الماء.

لكن الجزر الصغيرة كانت وعرة وجرداء، والشعاب المرجانية بيضاء من أثر الشمس.
شاهدت ويست يختفي خلفها، لقد ركب الزورق وليس معه أي شيء، ومما يبدو فليس على الجزر شيء.

غمغم باج وهو يرمي المزيد من الحبال نحوي: «عيناك على سطح السفينة يا جرّافة».

امتثلت أمره، وأخذت الحبال أجرها نحو الصاري الأمامي، لكن عينيه لم تتركاني.

عقد ذراعيه على صدره فأصبح قميصه مشدودًا على امتداد كتفيه، وراح يراقبني وأنا ألفّ الحبل بعناية وأعقد طرفه، وقال: «أتعلمين أننا تراهنّا؟».

نفضت يديّ وأنا أنهض، وبسطت أصابعي ثم أطبقتها، فآلمني الجلد المكشوط، وقلت: «على ماذا؟».

فابتسم ابتسامة عريضة ثم قال: «على مقدار الوقت الذي ستستغرقينه لسرقة شيء ما». أدركت حينها أن لهجة باج هو الآخر غريبة تجعله يلوي الكلمات بعض الشيء، لكنه كان أفضل من أوستر كثيرًا في إخفاء لهجته.

نظرت ويلا إلينا من مؤخرة السطح وهي تؤمن ذراع التدوير الخاص بالمرساة، وهاميش يقف خلفها.

قلت: «أنا لست لصة. أتريد تفتيش حزامي؟ تفضل».

تحدث أوستر من ورائي قائلًا: «لن تكوني بهذه الدرجة من الغباء لتحتفظي بما سرقتِه في حزامك، أليس كذلك؟ الجرّافون محتالون، لكنهم ليسوا أغبياء»، فاستدرت واستندت إلى الصاري.

سلط عليّ الأربعة أبصارهم، وخيم الصمت فوق السفينة، ولم يتبق سوى صوت الرياح وهي تسري على قماش الأشرعة من فوقنا. كانوا يغيظونني ويستفزونني ليروا معدني. وأنا لم أؤاخذهم، إذ لم يكن ثمة سبب يدعوهم للثقة بي، وقد اصطحبني قائدهم من دون أن يشاورهم.

قلت: «لست أكترث لشيء موجود على سفينتك أو لشيء مكتوب في دفاترك، فكل ما أريده أن أصل لمنطقة المضايق».

تقدم باج خطوة للأمام وكان أطول مني بمقدار طول رأس كامل وقال: «إنك تكذبين. لا يمكنك كبح نفسك، فالسرقة جزء من طبيعة أهل جزيرة جيفال».

قلت: «أنا لست من أهل جزيرة جيفال. وأنا لست لصة».

ألقى أوستر المصيدة الأخيرة على الجانب فارتطمت بالماء، ونثرت بعضه، وقال: «آخر شخص سرق منا يرقد في قعر البحر الآن»، كان شعره الأسحم الطويل مسترسلًا على كتفيه، فأعاده إلى خلف ظهره وعقصه وهو يهبط العتبات إلى صحن السفينة.

دس باج يده في جيب سترته، وأخرج عملة نحاسية قائلًا: «انظري، سوف أبادر وأعطيك بعض النقود قبل أن تسرقيها».

اتكأت ويلا على الصاري الرئيسي ترقب المشهد.

رفع باج العملة في الفراغ الفاصل بيننا قابضًا عليها بإصبعين: «هذا ما تريدينه، أليس كذلك؟».

صررت على أسناني وأنا أحاول استقراء ما يريده. على أية حال لم يبشر هذا بأي خير. وبما أن القبطان خارج السفينة فسيأخذون حريتهم ويتمادون.

حرك إصبعيه فتطايرت العملة في الهواء متجاوزة السور قبل أن تغرق في الماء بالأسفل.

ثم طرح باج سؤالًا على أوستر من دون أن يلتفت نحوه: «ما مدى عمق الماء هنا يا أوستر»، ولا يزال يحدجني بنظرته المتعجرفة.

أشرق وجه أوستر بمتعة التسلية وهو يجيب: «أظن العمق يصل إلى مائة وأربعين مترًا تقريبًا، وربما مائة وخمسين».

رفع هاميش يده وملّس شعره ذا اللون الرملي الممشط على جبينه قائلًا: «أظن أنني كنت مخطئًا يا باج. يبدو أن هناك بعض الأشياء لن يفعلها الجرّافون في سبيل النقود».

كانت ويلا لا تزال ملازمة الصمت من ورائهم، ونظرة عينيها تختلف عن البقية، كانت نظرة أقرب للفضول منها إلى الشك. مال رأسها إلى الجانب كأنها تسمع ما أفكر فيه.

كانوا يحاولون تعريفي بقدر نفسي، كانوا يحاولون الحط مني. مع التجار كان كل شيء بمثابة اختبار، كل شيء كان محاولة لتقدير إمكاناتك.

التقت عيناي بعينيّ باج بعد أن خلعت قميصي، وأسقطته على سطح السفينة.

رفع حاجبيه وهو يشاهدني أعتلي سور السفينة قائلًا: «ماذا تفعلين؟».

وقفت قبالة تيار الرياح أرقب حركة المياه حول الجزر المرجانية. كانت ترتفع فوق حافة الجزر برفق، وإذا كان الماء هادئًا تحت السطح كما هو هادئ على السطح فيمكنني الغوص لدقائق. إن عدد المرات التي غصت فيها إلى أعماق بعيدة أكثر مما يمكنني إحصاؤه.

انحنى هاميش على ميمنة السفينة وهو يشاهدني أقفز، هبطت في الهواء قبل أن أنغمس في الماء البارد، وأحاطتني سحابة من الفقاعات على إثر الاصطدام، وعندما صعدت إلى سطح الماء مرة أخرى كان الأربعة يشاهدونني من الأعلى، وعينا باج مفتوحتان على اتساعهما.

امتلأ صدري بالهواء الدافئ، وزفرته في زفير طويل، مرارًا وتكرارًا، حتى شعرت بأن رئتيّ مرنتان بدرجة كافية لتحمل الهواء الذي أحتاج إليه. مِلت برأسي للوراء وأنا أستنشق المزيد من الهواء قبل أن أغوص، ورحت أركل برجليّ لأدفع نفسي نحو قاع البحر.

كانت الشعاب المرجانية البيضاء فوق سطح الماء مجرد جزء هامد تمتد أسفله جدران شديدة الانحدار من الشعاب المرجانية النابضة بالحياة، إذ كانت تغطيها كائنات المرجان

الفقاعية والإسفنجيات وقنافذ البحر، وأمامها أسراب الأسماك الملونة، وبينما كنت أغوص شاهدت أخطبوطًا يتحرك بحركة متواثبة صعودًا بين أسراب الأسماك.

توقف السطح عن سحبي بمجرد أن نزلت إلى عمق كافٍ، وتركت نفسي للسقوط وذراعاي تحوطانني وأنا أغوص بين أشعة الشمس التي تتخلل الماء.

تضاءلت ماريجولد من فوقي حتى استحالت بقعة داكنة. مسحتُ الطمي بعينيّ بحثًا عن بريق العملة النحاسية وأنا أتحرك في مسار دائري حين أشرفت على القاع. كان تحديهم لي بالعثور على عملة نحاسية واحدة في قاع البحر حيلة متغطرسة تهدف إلى إذلالي. لكن أولئك التجار الأوغاد لم يعرفوني، ولم يعرفوا ما بمقدوري فعله.

رغم أن النحاس معدن وليس حجرًا كريمًا، فإن له لغة، مثله مثل أي شيء آخر. استكنتُ لأصيخ السمع إلى الرنين الخافت الصادر من القطعة النحاسية. فرزتُ الأصوات الصادرة من الشعاب المرجانية حتى التقطتُ رنينًا خافتًا فاستدرت، ورصدت وميضًا يومض في محيط رؤيتي، فطرفتُ بعيني، والتفتُّ لأرى بريقًا يبرق في الضوء، بيد أن العملة النحاسية كانت بعيدة جدًّا عن السفينة في تلك المياه الصافية الساكنة، لا بد أنها قد سقطت في المياه بمسار مائل بعض الشيء.

لففت نفسي، وتفحصت سعف المرجان المتمايل بحركة خفيفة، ولطمني السعف في بطني في الوقت ذاته الذي أحسست بالمياه تفرك باطن قدميّ.

إنه تيار مائي.

ولكنني فطنت له بعد فوات الأوان. لقد ابتلعني المد وسحبني إلى أسفل، ودفعني إلى أرضية البحر بقوة كأنها سفينة تجترني. ركلت بقدميّ محاولةً التحرر من قبضته، بيد أن سرعة الاجترار تزايدت، وشاهدت كائنات المرجان تمر أمام عينيّ بسرعة، وانفلت دفق هواء من شفتيّ وأنا أصرخ ويداي تنهشان القاع وتثيران خطًّا من الغبار في إثري.

ابتعدت ماريجولد عني أكثر، وجعلتُ أتلوى بحثًا عن شيء أمسك به بينما لطمني التيار في الشعاب المرجانية. خدشتني كائنات المرجان في ظهري وفوق كتفي، وتشقلبت فوق الحواف قبل أن أتشبث بشيء وأُثبت. تدفقت المياه الباردة أمامي فطرحت شعري من وجهي إلى ظهري، ثم رفعت نفسي لأعلى. جاشت عضلاتي بالألم، وازداد الوهن في أطرافي حتى ارتجفت يدي، وكانت بشرتي ملتهبة بالفعل، إذ كان سم كائنات المرجان يتسرب إلى مجرى دمي.

جذبت نفسي على طول الجدار إلى أن خرجت من التيار، وتشبثت بالنتوء الصخري، محاولة جعل خفقان قلبي يتباطأ قبل أن يستنفد كل الهواء بداخلي. لقد حملني التيار مسافة ثلاثين مترًا على الأقل وأحتاج إلى الصعود للسطح بسرعة.

انطلقت مبتعدة عن قبضة التيار، لكن وميضًا خافتًا في قاع البحر جعلني أتوقف، وأصابعي تتشبث بالصخرة الحادة. نظرت إلى ماريجولد بالأعلى ورحت أسب وألعن، وانفلتت مني فقاعة هواء أخرى عبر الماء، لم أكن لأعود خاوية الوفاض.

زحفت عائدة إلى أسفل وأنا أمسك بالشعاب المرجانية حتى رجعت إلى التيار، وتحركت ببطء حتى وصلت إلى المكان الذي رأيت فيه الوميض. قاومني التيار وأنا أمشط الرمال بيدي المبسوطة، وعندما رفعتها سحب التيار حبيبات الرمل من بين أصابعي حتى لم تبق سوى العملة النحاسية في وسط كفي.

كان السلم مفتوحًا بالفعل حين اخترقت سطح الماء وأنا ألهث، اجتاح الوجع صدري مع إحساس بأن أضلعي تتصدع. دفعت نفسي لأعلى السلم، وارتميت فوق السور، حيث كان الطاقم لا يزال منتظرًا.

انسحبت ابتسامة على جانب وجه أوستر عندما حطت قدماي على السطح. مشيت صوب باج والدم ينساب على بشرتي المبللة متدفقًا من جروح في كتفي ويتقاطر على سطح السفينة في إثري.

تمتم هاميش بشيء وهو يهز رأسه.

بعدها ابتسم باج ابتسامة متكلفة وهو يقف وراء عجلة الدفة، بيد أن عصبيته كانت بادية تحت هدوء ملامحه. لم أعرف ما الذي كان سيفعله ويست إن علم بما فعلوه، لكن بوسعي رؤية أن باج كان يتساءل.

توقفت قبالة عجلة الدفة، وبسطت يدي في الفراغ الفاصل بيننا. فغر فاه قبل أن يفك ذراعيه المعقودتين وينتصب في وقفته قائلًا: «سحقًا...».

رميت العملة لتتقلب في الهواء قبل أن تسقط على سطح السفينة مصدرة صوت اصطكاك، ورفعت عينيّ إلى عينيه من دون أن أنبس بكلمة. ومن خلفه بدا أن ويلا انقلبت من حالة الفضول إلى التساؤل؛ ثمة سؤال يتواثب في عينيها.

التفقت متجاوزة باج نحو العتبات المفضية إلى الطابق السفلي، وترددت أصوات خافتة عبر الممر وأنا أغلق باب الحجيرة بقوة من ورائي.

فجأة استيقظت كل ذرة من الألم في ظهري، وشعرت بوخز في عروقي جعل معدتي تتقلب. تعثرتُ في الدلو عند زاوية الحجيرة، وهويت جاثية على ركبتي وقد سرت في جسدي ارتجافة من البرد قبل أن أتقيأ.

نجوت طيلة أربع سنوات على جزيرة جيفال، وبعد أن أصبحت قريبة من مدينة سيروس كدت أغرق وأنا أغوص بحثًا عن عملة نحاسية واحدة. لكن هذه كانت تجليًا لإحدى القواعد التي أوصاني بها سينت.

لا شيء مجاني.

لم يكن يقصد بقاعدته هذه مجانية الحصول على الطعام أو النقل أو الملابس فحسب، بل كان يقصد أيضًا الاحترام والسلامة والحماية، فتلك أشياء ليست بالمجان.

وبطريقة أو بأخرى، فإنك دائمًا ما تدفع الثمن.

الفصل التاسع

ألهب الألم جسدي لدرجة نسيت معها مدى تضوري جوعًا.

لقد لسعتني كائنات المرجان مرات عديدة، ومن ثم فقد كنت أعرف المضاعفات التي تنتظرني. ستتفشى الحمى في جسمي وسيغزو الألم عظامي لبضعة أيام، لكن ذلك كان أهون عليَّ من استقبال مزيد من الاستهزاء من بحارة ماريجولد، إذ لو أظهرت أنني فريسة سهلة قد يتحول الاستهزاء إلى شيء أشد فتكًا.

كسرتُ صدفة سلطعون آخر على المنضدة، وشعور الغثيان يجعل بطني يتلوى. وبمجرد أن سحب أوستر المصائد من المياه ألقى إحداها عند قدمي، وولى مبتعدًا، فعملت على تكسير أصداف السلطعون الموجودة بداخلها، ثم وقفت في الممر الجانبي على سطح السفينة ويداي مخدرتان جراء تكسير الأصداف الشائكة، لكنني أمتلك خبرة كبيرة في هذا العمل، ومع أن تلك المهمة يعزف عنها الجميع فمبقدوري فعلها وعيناي مغمضتان.

مضى هاميش إلى صدر السفينة، وأطل ناظرًا إلى الماء، وفي تلك الأثناء نظرتُ حولي، ورأيت ويست قادمًا من عند الجزر المرجانية. لقد غاب هنالك حتى مالت الشمس في السماء، ومع ذلك فقد عاد ولا يزال متن الزورق خاويًا.

رفع كلٌّ من أوستر وباج الزورق إلى مكانه في الجزء الخلفي من السفينة، وعملا على إحكام تثبيته. وبعد هنيهة أتى ويست نحو الجانب، وفك أزرار سترته تاركًا إياها تنزلق من فوق كتفيه عند دخوله الممر الجانبي المفتوح الذي أقف فيه، فتوقف هنيهة حين رآني، جمدت نظرته وعيناه تمسحان وجهي إلى أسفل ظهري.

قال وهو يصر على أسنانه: «ماذا حدث؟».

من خلفه رفع باج يده فاركًا رأسه الحليق، ولاحظت حركة بسيطة في كتفه تنم عن اضطراب، إلا أنني لم أكن متأكدة من السبب، إذ لو كنت غارقة الآن فما كانت تلك لتكون مشكلة بالنسبة لويست. أو لعل هذا أيضًا اختبار.

قلتُ وأنا أوليه ظهري: «انزلقت من الصاري الأمامي، وسقطت على الحبال».

أحسست بنظرته تزحف على جلدي وأنا ألقي صدفة فارغة أخرى في الدلو الموضوعة عند قدمي. دخل حجيرته، وزفرت زفرة طويلة، ثم أطبقت أجفاني بشدة على إثر إحساس الوخز الذي يزحف صعودًا إلى رقبتي.

عندما فتحت عينيّ وجدت أوستر واقفًا بجواري على المنضدة، ويضع وعاءً أمامي بينما أمسك أنا بسلطعون آخر.

رمقتُ الحساء الساخن وأنا أبتلع ريقي بصعوبة، ثم قلت: «أنا لست جائعة».

قال وهو يدفع الوعاء ليقربه مني: «ما دمت تعملين، لك الحق في الأكل، هذا هو الإنصاف».

رفعت عيني ناحيته لأتفحص وجهه. لم يكن يلوح في عينيه أي شيء ينم عن خداع، بيد أن بعض الناس أحذق من غيرهم في إخفاء خداعهم. سيستشف أي أحد يراني أنني أتضور جوعًا، ومع ذلك لا يمكن أن أدين لأحد بأي شيء آخر.

قال: «لقد نظفتِ حمولة صندوق كامل من حيوانات السلطعون، هذه مقايضة منصفة»، وحمل إحدى الدلاء وذهب تاركًا إياي بمفردي في الممر الجانبي.

كانت يدي تعتصر حافة المنضدة وأنا أتكئ عليها وأفكر. الحقيقة هي أن سبب إعطائي الطعام لا يهم، كنت بحاجة لتناول الطعام، لا سيما وأنا أعاني حُمى.

أسقطت المطرقة وأمسكت الوعاء بيديّ المرتعشتين، ورحت أرتشف بحذر، لسع الملح والأعشاب الجلد المتشقق حول شفتي، لكن الحساء أدفأ جسمي من الداخل، وند عني أنين. وقد أثار مذاق الحساء مجموعة من الذكريات الباهتة أججت اضطرابي، فطرفت بعينيّ لأزيح تلك الذكريات بعيدًا عن ذهني قبل أن تتشكل بالكامل. انتشلت قطعة بطاطس طرية من الحساء بأصابعي المتسخة، وأسقطتها في فمي تاركة إياها تتفتت بداخله حتى ألهبت لساني.

اتجهت عينيّ إلى الباب المغلق لحجيرة القبطان، وتساءلت عما إذا كان ويست يعرف أن أوستر كان يطعمني. لقد أوضح أنه لا يضع في عنقي أي دين بتقديم هذا الحساء لي. ربما الأمر كما قال أوستر، وعاء حساء مقابل العمل لبضعة أيام ليس بشيء ذي شأن، أو لعله أشفق عليّ، هذه الفكرة جعلتني راغبة عن الطعام.

سكبت بقية الحساء في فمي، وأحسست بانزعاج في معدتي من التخمة، ثم عدت إلى العمل. وعندما انتهيت من تنظيف آخر سلطعون هبطتُ العتبات وبين ذراعي دلو أخرى. كان صرير الهيكل هو الصوت الوحيد المتردد في الدهليز المعتم حيث تصطف الأبواب الثلاثة على الجدار، كل منها منحوت عليه شعار ماريجولد.

وقد تردد صوت أوستر في ظلام الحجيرة قائلًا: «هنا». نظرت فرأيت بريق عينيه على ضوء المصباح المتأرجح من الخطاف، فنهض من أرجوحته وقابلني عند الباب.

لا تزال الابتسامة العريضة ذاتها مرتسمة على وجهه وتُظهِر تجاعيد عند عينيه، ثم سحب السلسلة التي انتظمت فيها المفاتيح حول رقبته، ما أضفى عليه مزيدًا من الوسامة. كان قده ممشوقًا، وجلده ذا لون قمحي فاتح، وخُيّل إليّ أكثر من مرة أنني لمحت في وجه أوستر ما ينم عن لطف وطيبة، كان هذا شيئًا لم ألحظه في وجوه الآخرين. وعندما شمَّر كميْ قميصه، تبدى على ساعده وشم بالحبر الأسود لرسمة عقدة متشابكة، واستغرقت هنيهة لأدرك أنها كانت رسمة لثعبانين متشابكين يلتهم كل منهما ذيل الآخر. لقد كان رمزًا لم أره من قبل.

توقف عند الباب الأول مُقحمًا أحد المفاتيح في القفل الحديدي الصدئ المتدلي من المزلاج قبل أن يفتحه. ثم دلفت وراءه إلى الداخل، حيث كانت الغرفة مضاءة بأشعة الشمس المتسللة من الشقوق، وكانت تلك غرفة إمدادات صغيرة مليئة ببراميل المياه وصناديق الطعام. واصطفت على الأرفف عبوات زجاجية زرقاء وكهرمانية، بينما تدلت قطع اللحم المملح من خطافات معلقة من العارض الذي يمثل الحاجز الداعم في الغرفة. ند صوت فرقعة من ألواح السقف وأنا أرفع الدلو لوضعها على المنضدة فنظرت لأعلى، وتسنت لي رؤية حركة من بين الشقوق، كانت تلك حجيرة القبطان.

اقتربت أكثر من الجدار، وانحنيت إلى الأمام وأنا أحاول رؤية ويست.

أبقى أوستر الباب مفتوحًا بيد واحدة منتظرًا، وقال: «هذا كل شيء».

أحسست بحرارة تلفحني من الداخل عندما نظرت ناحيته، وأدركت أنه قد ضبطني وأنا أختلس النظر. أومأت له بإيماءة سريعة قبل أن أخرج، ووضع المزلاج في مكانه مغلقًا الغرفة. لقد أطعمني، لكن لم يكن ليجازف بالسماح لي بالتلكؤ في غرفة الإمدادات أو الاطلاع على شئون السفينة. وحقًّا لم يكن ذلك بمقدوره. إن مسئول الإمدادات مهمته حساسة، ليس فقط لأنه يشرف على المخزون، ويجلب الإمدادات التي تحتاج إليها السفينة حين ترسو في الميناء، بل لأنه أيضًا الصياد وجامع المؤن على السفينة. لو كنت مكانه ما كنت لأثق بالجرَّافة الجائعة التي تصحبنا على سفينتنا.

كانت ويلا بالفعل مستلقية في أرجوحتها عندما دخلتُ من الباب. أغلقتُ الصندوق المفتوح وجلست فوقه، ورحت أصُفر وأنا أسند ظهري إلى الجدار.

عندئذٍ أسدلت ويلا شعرها الطويل على كتفها وهي تراقبني وقالت: «ما الذي تريده جرَّافة من منطقة المضايق؟».

استنفرتُ حين ظهر باج في الدهليز متكئًا على قائم الباب وهو يقول: «يراودني التساؤل ذاته»، تفاجأت بوجوده، لم أسمعه وهو يهبط الدرج.

استقر بصري عند نقطة بينهما، وسرت قشعريرة في جلدي. لقد كانا فضوليين، وهذا أشعرني بالتوتر. ربما أخطأت بمجاراتهما والانخراط في لعبتهما بالغوص من أجل العملة النحاسية. ومع ذلك، إن تصرفت بفطنة فقد أتمكن من استغلال الوضع للحصول على المعلومات التي أحتاج إليها. كان عليَّ فقط أن أخبرهما بقدر معين من الحقائق.

قلت وأنا أنحني إلى الأمام لأرتكز بمرفقيّ على ركبتيّ: «أنا أبحث عن أحدهم».

كانت ويلا هي من التقطت الطُّعم، إذ تساءلت: «مَن؟».

استللت السكين من حزامي، ووضعت طرفها على الصندوق بجواري، ورحت ألفها حتى انحفرت حفرة صغيرة في الخشب، ثم قلت: «تاجر، اسمه سينت».

تبادلا النظرات بينما اعتدلت ويلا جالسة في أرجوحتها وقدماها تتدليان نحو الأرضية وتتأرجحان.

ضحك باج وانبسطت ابتسامة رائعة على وجهه، ومع ذلك فقد لاحت نبرة اضطراب في صوته وهو يتساءل: «ما شأنك بسينت؟».

عند هذه النقطة أتى دور القواعد التي أوصاني بها أبي. لقد طلب مني أن أتعهد إليه بعهد واحد فقط. كنت أجوب السفينة كما أحب، وأستكشف القرى والأرصفة كما يحلو لي، وأفعل ما أشاء، كل هذا تحت جناح رضاه ما دمت أحفظ العهد، وما دمت لم أنكث العهد فلن أخسر رضاه أبدًا.

ألا أخبر أي مخلوق بأنني ابنته. كان هذا هو العهد.

لم يحدث قط أن أخبرت أحدًا، ولن أنكث العهد الآن.

هززت كتفي وقلت: «عمل».

حدجتني ويلا بنظرة ذات مغزى وقالت: «تريدين أن تنضمي إلى طاقم سينت؟»، لكن زاوية فمها انحرفت لأسفل حين أدركت أنني جادة في كلامي، وأردفت: «تنضمين بأية صفة؟ بصفتك جرّافة؟».

قلت: «لم لا؟».

فارتفع صوت باج وهو يقول: «لم لا؟ إن العمل لصالح سينت بمثابة تمنٍّ للموت. كانت فرص نجاتك أكبر على جزيرة جيفال».

ساد الصمت في الحجيرة، ومن طرف عيني لمحت وميضًا حين كانت ويلا تلف الخنجر في يدها. كان مقبض الخنجر مرصعًا بأحجار كريمة منحوتة السطح ومتعددة الألوان، وهيكله المتشابك المصنوع من الفضة يعانق النصل.

نهضت ودخلت الأرجوحة بحرص وأنا أعض على شفتي مع احتكاك نسيج الأرجوحة بالخدوش الملتهبة على كتفي، وقلت: «كم مضى على فترة عملكما في طاقم ويست؟».

فأجاب باج بسهولة: «عامان. حين حصل ويست على سفينة ماريجولد ضم هاميش وويلا، ثم أنا وأوستر بعد فترة وجيزة».

لكن لاحقًا أدركت سبب بَوحه بالمعلومات بهذه السهولة. كان ذلك جزءًا من قصة مختلقة، ولم يلجأ إلى القصص المختلقة من أهل منطقة المضايق سوى أولئك الذين لديهم ما يخفونه. فأية معلومة تقدم مجانًا كانت كذبة على الأرجح.

غرقت أعمق في الأرجوحة، وقلت: «أعماركم جميعًا صغيرة جدًّا»، لكنني قصدتها كسؤال.

أجاب باج: «لقد نشأنا معًا، وعملنا على سفن مختلفة. جميعنا من متشردي حي الساحل بمدينة سيروس».

قد يكون هذا الكلام حقيقيًا، جزء منه على الأقل، لكن لهجة باج وأوستر لم تكن كلهجة أهل سيروس.

هبطت عينا ويلا نحو خنجرها. الأحجار الكريمة التي ترصع المقبض من الياقوت الأزرق أو الجمشت، ليست أندر الأحجار الكريمة، ولكن أحجامها جعلتها قَيّمة، وقيمتها أعلى بكثير من أن تكون بين يديْ متشردة من حي الساحل.

كانت تلك هي الطريقة التي علمنيها سينت لأستخدمها حين أكذب - دائمًا اختلقي الكذبة من رحم حقيقة. على الأرجح بعضهم كانوا من متشردي حي الساحل فعلًا. غالبًا ما يأخذ التجار أطفال الشوارع الذين يقطنون حي الساحل بمدينة سيروس، ويطعمونهم ويدربونهم مقابل تكليفهم بأعمال خطرة، ومعظمهم حين كبروا أصبحوا من ضمن أفراد طاقم السفن التي نشأوا على متنها، بيد أنني لم أسمع قط عن متشرد من حي الساحل أصبح قبطانًا.

وما يثير الدهشة أكثر كان حصولهم على ترخيص للتجارة. كانت توجد خمس نقابات هي المسيطرة على كل شيء في المضايق - نقابة الجاودار، ونقابة صناع السفن، ونقابة صناع الأشرعة، ونقابة الحدادين، ونقابة الأحجار الكريمة. لكل نقابة زعيم، ولكل زعيم كرسي في مجلس التجارة، وأولئك الخمسة فقط من يمكنهم تزويد التجار بالتراخيص اللازمة لمزاولة الأعمال التجارية في كل ميناء، ولم تكن ثمة أية طريقة أخرى يستطيع بها طاقم هذه السفينة الحصول على رخصة. أيًا من يكون ويست، فلديه على الأقل صديق واحد ذو نفوذ.

عندما لم أنبس بشيء عاد باج إلى الممر، فأصبحت بمفردي مع ويلا. كانت عيناها نصف مغمضتين، وخطر لي أنني لم أرها نائمة منذ ركبتُ السفينة. لم أكن متأكدة كيف يقدرون على البقاء مستيقظين هكذا وقد بدا أن كل واحد منهم يتولى ثلاث مهمات بدلًا من مهمة واحدة.

تساءلت ويلا بنبرة تزداد لطفًا: «منذ متى وأنت منخرطة في أعمال التجريف؟».

أجبتها: «طيلة حياتي. شرعت أمي في تعليمي الغوص حالما استطعت السباحة».

لطالما كان سينت يقول إن أمي كانت أفضل الجرافين في منطقة المضايق، وقد صَدقته. كان ينتقي أفراد طاقمه ولم يكن يضم سوى الأفضل، ولم يهجروه مطلقًا، فقد كانوا يكسبون معه أكثر من أي شخص آخر في المضايق.

لكن أمي كان لديها سبب إضافي للبقاء على سفينته.

لم أشاهد سينت يبتسم سوى مرة واحدة حين كنت أتجسس عليه برفقة أمي في حجيرة القبطان، حيث رفعت أمي يديه عن الخرائط التي كان منكبًّا عليها، وسحبت ذراعيه لتطوق بهما قَدها الضئيل. وضع ذقنه على قمة رأسها وابتسم، وأتذكر أنه قد خطر لي عندئذ أنني لم يسبق لي أن رأيته يبتسم ابتسامة عريضة هكذا، وتجعد الجلد حول عينيه على إثر الابتسامة؛ لقد بدا كأنه شخص آخر.

كسر سينت قواعده عندما وقع في غرام أمي، ولم يستنكف عن معاودة كسر قواعده من أجلها مرارًا وتكرارًا.

سألتني ويلا: «أهي في جزيرة جيفال؟».

طرفت بعيني وأنا أدفع الذاكرة لتنطمر في الأعماق، ثم قلت: «كلا»، وتركتُ إجابتي المقتضبة هذه توضح لها الكثير. وقبل أن تطرح سؤالًا آخر حولتُ مجرى الحديث بسؤالي إياها: «إذن أنت رئيسة سطح السفينة؟».

أجابتني: «صحيح».

سألتها: «أين تعلمت التجارة؟».

فقالت: «هنا وهناك».

لن أضغط. لم أرغب في معرفة أكثر مما أحتاج إليه عنهم، ولم أرُد أن يعرفوا عني أي شيء أيضًا. لقد بُحت لهم بكل ما يمكنني البوح به بإخبارهم بأنني كنت أبحث عن سينت.

عادة تكون النساء أفضل من يتولى منصب رئاسة سطح السفينة، فهن قادرات على التسلق عاليًا بسرعة وضآلة أجسامهن تناسب المساحات الصغيرة. لطالما أذهلني مشهد تسلق النساء على ظهر سفينة لارك. وكان الطلب عليهن كبيرًا وسوق عملهن رائجًا، إذ إن كل سفينة تحتاج إلى واحدة على الأقل.

يبدو أن ماريجولد تُسيّر شئونها بالحد الأدنى من العمالة - قبطان واحد، ومسئول حسابات واحد، ومسئول إمدادات واحد، ورئيسة سطح سفينة واحدة، وملاح واحد.

قلت وأنا أنظر إلى الحذاء المعلق على الجدار الذي سقطت عليه أشعة الشمس: «ليس لديكم من يتولى مهمة التجريف».

انخفض صوتها وقالت: «لا، لم يعد لدينا».

سرت قشعريرة في جلدي مرة أخرى، وأحسست بأن هواء الحجيرة صار باردًا فجأة وأنا أستحضر ما قاله أوستر قبيل قفزي من سور السفينة.

آخر شخص سرق منا يرقد في قعر البحر الآن.

ارتدت عيني إلى الصندوق المتاخم للجدار، حيث عُلق من ورائه حزام الجرّاف وأدواته.

لأنه لم يعد يحتاج إلى تلك الأدوات بعد الآن، سواء أكان جرّافًا أم كانت جرّافة.

وأكد ذلك صمت ويلا المقلق، أرادت بصمتها أن أربط الخيوط ببعضها، أرادتني أن أعرف. نظرتُ إلى حافة الأرجوحة، ورأيتها لا تزال تراقبني، والخنجر يلمع في يدها.

الفصل العاشر

تخلل ضوء الشمس شقوق العارضة من فوقي، وكانت الحجيرة لا تزال مفعمة بالرائحة الخانقة لدخان المصباح واحتراق الزيت. حالما فتحت عينيّ نشط الألم في فكي بمكان الضربة التي أصابتني في قارب كوي. أغمضت عينيّ، وأحسست بموجات من الألم تغزو عظمي حين أطبقت أسناني، تلا ذلك التهاب حارق على جلدي شمل كتفي وأسفل ظهري.

بعد ذلك جلست ببطء، ووضعت قدمي على ألواح الأرضية الرطبة، وأرجوحة ويلا كانت خاوية بالفعل.

وعندما مررت بباب غرفة الإمدادات شاهدت أوستر يرفع غطاء صندوق، ثم أسقطه على الأرض قبل أن يبدأ في مباشرة صندوق آخر. نظر إليّ من فوق كتفه، وصدر عنه صوت نخير وهو يسحب وعاء سمك مخلل من الداخل.

انسابت الرياح الرطبة إلى الممر وأنا أصعد السلم وأرفع يدي تاركة الرياح تتخلل أصابعي، كانت دافئة لكنها قوية، لم يرقني ذلك، إذ اتسمت بدرجة حدة لا تتماشى مع السماء الباهتة الصافية من فوقنا، ما يشي بأنه على الأرجح ثمة عاصفة تختمر عبر الأفق.

كانت ويلا وباج يعملان بالفعل على ستائر الأشرعة بتهيئتها لاستقبال دفع الرياح.

أتاني صوتها من حيث وقفت بين الحبال بالأعلى: «أنت كسولة، بالنسبة لجرّافة». كانت إحدى قدميها متشابكة في الحبال والأخرى مسندة إلى الصاري، والقطران الذي يخضل أصابعها يلتمع بالسواد.

شاهدتها تنزل إلى الشراع التالي، وسمعتُ من يسأل: «كم يفصلنا عن مدينة ديرن؟».

نظرت من فوقي صوب ويست وقالت: «لقد وصلنا».

التفت فرأيت ميناء القرية الصغيرة الزاحفة فوق تل على مرمى البصر، حيث يلتقي البحر بالشاطئ عند جدار صخري طويل.

لاحت ابتسامة على شفتي، وأفلت صوت ضحكة صغيرة من صدري. لم أر ديرن منذ سنوات، لكنني تذكرتها بوضوح - المباني مشوهة الشكل المشيدة بأحجار الرصف، وفوهات المداخن المعوجة المتفحمة. لطالما كانت تجلس سيدة على الرصيف البحري تبيع البرتقال الأحمر، ولطالما كان الملاح على سفينة سينت، اسمه كلوف، يشتري لي برتقالة في كل مرة نرسو فيها هنا.

التهبت عيني باحتشاد الدموع مع فيضان الذكريات الذي اجتاح أماكن في ذاكرتي حرصت جدًّا على إبقائها مغلقة. كنت أفكر في سينت كل يوم، وفي مخيلتي كان وجهه ينبض بالحياة كأن لم تمر أربع سنوات منذ آخر مرة رأيته فيها، لكنني حاولت ألا أفكر في كلوف بقدر ما حاولت ألا أفكر في أمي، إذ غمرني كلوف بالعطف الذي كان أبي شحيحًا به تجاهي.

أوقفت ويلا عملها واتسعت عيناها قبل أن تنزل على الصاري، وتضرب على سطح السفينة وهي تنادي: «ويست...»

خرج من المدخل المقوس، وراحت عيناه تمسحان الأرصفة قبل أن تنضغط شفتاه في حركة متجمدة، ونادى: «هاميش!».

شحب وجه ويلا، ولوهلة بدت كأنها على مشارف إعياء.

خرج هاميش مسرعًا من حجيرة القبطان، ووقف بجوار ويست عند السور، ثم زفر زفرة طويلة، وراح يكيل اللعنات قبل أن يختفي مرة أخرى وراء باب الحجيرة.

تفحصت الميناء بحثًا عما رأوه هنالك بين السفن، ثمة أرصفة بحرية طويلة تنبثق من المنحدرات، واكتظت القنوات المائية الضيقة بالسفن من شتى الأحجام، بدا كأنها جميعًا

سفن تجارية. تعرفت على شعارات بعض السفن، ولم أتعرف على شعارين أو ثلاثة، لكن ثمة سفينة برزت بينها، إذ إن هيكلها العريض المنمق وزخارفها الخشبية الدقيقة لم تشبه السفن البسيطة المصنوعة في منطقة المضايق.

تلوى قلبي في صدري حين رأيت شعار سفينة سينت - كان عبارة عن موجة تنثني فوق شراع مثلث، والشعار مرسوم على إحدى ستائر أشرعة السفينة، وهي سفينة من طراز كليبر.

لا يمكن أن يكون على تلك السفينة، كانت السفينة أصغر من أن تكون ملكه، ولم يكن ثمة ما يُعلِمني بعدد البحارة الذين يعملون تحت إمرته الآن.

صاح ويست بصوت أعلى من صوت الرياح وكتفه تخبط كتفي بقوة وهو يتجاوزني: «افتحوه!».

قفز أوستر وباج من الصاري الأمامي، ووضعت ويلا علبة القطران في يدي قبل أن تتجه للدرج المفضي إلى مؤخرة سطح السفينة. فكوا الحبال وسحبوا في حركات متزامنة بينما وقف ويست يراقب جانبًا في مؤخرة سطح السفينة يرتفع لأعلى فينكشف من تحته مخزن الشحن.

ثبتوا الحبال بربطها حول خطافات حديدية عند أسفل سور السفينة، وهبط أوستر وباج إلى الداخل حيث كُدست البراميل التي تحوي تفاحًا والصناديق التي تحوي شباكًا عند الزاوية. اصطفوا وناولوها لبعضهم حتى رتبوها في صفوف لتكون الحمولة جاهزة للتنزيل.

لم ينبسوا بكلمة، لكنني استشعرت التوتر يفوح في أجواء السفينة. أيًّا كان ما رأته ويلا عند الأرصفة البحرية فقد استنفرهم جميعًا للعمل على تنظيم البضائع حتى خرج هاميش من حجيرة القبطان حاملًا في يديه خمس حافظات جلدية حمراء. ألقى بحافظة نحو كل فرد من أفراد الطاقم فعلقها كل منهم في حزامه.

كان انتباه ويست لا يزال مركزًا على الميناء وهو يرفع طرف قميصه، ويحشر حافظته في خصر سرواله.

سألته وأنا أتفحص وجهه: «ماذا هنالك؟».

ومضت عيناه الخضراوان وهو يلف أطراف عجلة الدفة، لكنه لم يحر جوابًا. شاهدته يجري حسابات في ذهنه، إذ كان يقيس زاوية انحراف السفينة بدرجة مناسبة قبالة الرصيف البحري. أمال عجلة الدفة أكثر قليلًا، وأتى باج من مؤخرة سطح السفينة ليحل محله.

أومأ أوستر بذقنه نحوي قائلًا: «أيتها الجرّافة».

صعدت الدرج فسلمني حبال السحب، بينما اهتم هو وويلا بغلق المخزن. وقف هاميش في الأسفل يعقد بعناية طرف حبل بصندوق صغير عند قدميه، ووقف ويست أمامه حاجبًا رؤيتي، ثم صاح: «اخفضوا الأشرعة»، والتقت عيناه بعينيّ في تحذير.

أيًّا يكن ما يفعله هاميش فإن ويست لا يريدني أن أراه، تمامًا مثل الخرائط الموجودة في حجرته، ومثل الجزر المرجانية في الشمال. لقد استغرقت أقل من يوم واحد لأكتشف أن ماريجولد كانت أكثر من مجرد سفينة تجارية، لكن قائمة أسئلتي كانت تزداد كل دقيقة.

لبى أوستر وويلا نداء ويست، فهرعا نحو الصاري لتولي أمر حبال سحب الأشرعة. ومن خلفهم، ألقى هاميش بالحبل من فوق مؤخرة السفينة نحو الماء، وغرق الصندوق في العمق.

ما دام هاميش مسئول الحسابات والنقدية فثمة شيء واحد فقط يخفيه قبل رسو ماريجولد في الميناء. ربطت الحبل بإحكام وأنا أرنو إلى القرية. أيًّا يكن أو أيًّا من يكون هنالك فإن ويست ساوره ارتياب بشأن أمان النقود في حضوره.

نزل أوستر لمساعدة ويلا على إسقاط المرساة، واتجهت السفينة نحو الرصيف ببطء. حالما شارفنا الرصيف أمسكت بحبال التثبيت، وأرجحت ذراعي جيئة وذهابًا مستهدفة الوتد في نهاية الرصيف البحري. ند عني صوت تأوه وأنا أرمي الحبل، وشاهدته وهو ينبسط كالثعبان محلقًا في الهواء، ثم انطلق مبتعدًا عن السفينة، حتى عانقت حلقته الوتد.

ثم قبضت على الحبل بيدي المتقرحة، وأسندت قدمي إلى سور السفينة قبل أن أميل بجسدي إلى الوراء وأنا أسحب الحبل نحوي، قبضة تلو أخرى.

ابتسمت ويلا بتكلّف وهي تقول: «رمية لطيفة»، وأمسكت هي الأخرى بالحبل من خلفي وجذبت، ثم أردفت ساخرة: «ما كنت لتنجح في رمي الحبل من هذه المسافة يا باج!».

نظر إليَّ من فوق عجلة الدفة، وتفاجأت للغاية برؤية ابتسامة ترتسم على شفتيه، لدرجة أن قدميّ كادتا تنزلقان على الخشب المطلي بالزيت. كان إيقاع الإبحار بسفينة أشبه بلحن عزفته طيلة حياتي، ولكن على مدار السنوات الأربع المنصرمة لم يتسن لي سوى دندنته مع نفسي. وفي غضون أيام قلائل سوف نرسو في ميناء سيروس، وستتاح لي الفرصة أخيرًا لأخذ مكاني على متن سفينة سينت، كما أخذت أمي مكانها عليها، هذا كان قدري.

أمسك ويست بالحبل من خلف ويلا، وساعدنا على السحب، بينما جاء رجلان يركضان على الرصيف البحري، ورفعا أيديهما في انتظار اقتراب ماريجولد، وحين وصلت السفينة إلى حافة الرصيف دفعاها كي لا يُكشَط هيكلها على إثر الارتطام.

أسقط الطاقم مرساة أخرى ثم هيأوا مزلقة التحميل الواصلة بين السفينة والرصيف بينما كان هاميش يتحدث إلى عمال الرصيف بالأسفل. هبت رياح فجأة على المكان، فاستدرت لأواجهها وأنا أستنشق الهواء الرطب إلى عمق رئتيّ.

مع استنشاق الهواء أحسست بقشعريرة تسري في عمودي الفقري، وأنا أشاهد السماء تتبدل حالها ببطء. هكذا كان نمط العواصف التي تهب في منطقة المضايق - لقد كانت ماكرة،

وهذا ما جعل الإبحار في تلك المياه بالغ الخطر. تقريبًا جميع السفن التي ترقد في قعر هذا البحر لاقت هذا المصير بسبب عاصفة.

خرجت ويلا وأوستر من الممر وكل منهما يرتدي معطفًا وعلى الظهر حقيبة كتف، ووضع باج غطاء رأس على رأسه قبل أن يعتلي السور ويهبط السلم، واعتليت السور لأتبعه لكن ثمة يدًا جذبتني إلى سطح السفينة.

وقف ويست خلفي وإحدى يديه ممسكة بمؤخرة حزامي قائلًا: «لن تغادري السفينة».

حدقت فيه وأنا فاغرة فمي وأتساءل: «ماذا؟»، وفي الوقت ذاته كنت أحاول بحركة غريزية الإفلات من قبضته، لكنه أحكم قبضته أكثر، ما جعلني أرتقب ما سيحدث بقلق.

قال: «سنعود بحلول الصباح، ثم سننطلق إلى سيروس».

نظرت من فوق كتفه إلى القرية، كنت بحاجة إلى مغادرة السفينة لأبحث عن طريقة للمقايضة كي أحصل على المزيد من العملات المعدنية. قلت: «أنا لست سجينة».

«أنت حمولة أنقلها. والحمولة التي تغادر السفينة في هذا الميناء لن تصعد السفينة مرة أخرى»، قال هذا وهو يحدق إليّ متحديًا إياي على المجادلة، ومع ذلك فكلانا علم أنه لا يستطيع أن يبقيني حبيسة السفينة، إلا إذا ربطني بالعوارض الخشبية. قال: «لا أحسب أنك تملكين ما يكفي من النقود للدفع لتاجر آخر كي يقلك على سفينته، ولذا، إن كنت لا تريدين أن تُتركي في هذا الميناء غدًا فلن تبرحي مكانك».

وعندما تجاوزني أمسكت بكمّ قميصه وجذبته نحوي، فاستنفر غاضبًا، ونظر إلى يدي التي تقبض على ذراعه كأنه لُدغ.

سألته: «ماذا هنالك بالأسفل؟»، لم أكن أكترث لأي مأزق تقع فيه ماريجولد، ولكن إذا كان ذلك سيحول دون وصولي إلى سيروس، فإني أعده مشكلتي.

دبت حركة في عضلات فكه تحت بشرته السمراء من أثر الشمس، ثم قال مرة أخرى: «غادري هذه السفينة، ولا ترجعي إليها».

انتزع ذراعه من قبضتي ومضى، وتنفست أخيرًا فأحسست بمذاق لرائحته على لساني. وضع قبعة على شعره الذهبي المتناثر قبل أن يهبط لأسفل، وشاهدته يضع بضع عملات في يدي الرجلين على الرصيف. ربما تعاقد معهما لحراسة السفينة، أو لمراقبتي، أو لكلا الأمرين، إذ لن يغادر الطاقم ماريجولد من دون أن يعينوا حراسة عليها.

لم يلتفت ويست إلى الوراء، وتبع الآخرين في صف واحد على الألواح المتآكلة المفضية إلى الرصيف البحري تجاه القرية. راقبتهم ويداي تعتصران سور السفينة لدرجة أني أحسست كأن عظامي ستتصدع. كنت أحتاج على الأقل إلى مضاعفة العملات المعدنية الست التي أمتلكها قبل انطلاقنا من ديرن، ولن يكون ذلك ممكنا إن لم أتمكن من مغادرة السفينة.

رحت أكيل اللعنات لويست، ورائحته لا تزال متكاثفة في حلقي.

كان طردي من فوق متن ماريجولد مخاطرة سأضطر إلى خوضها.

الفصل الحادي عشر

لا تزال أمامي ساعة أو ساعتان حتى الغروب، وقد كان هذا متسعًا كافيًا من وقت.

أن يتركني ويست على متن سفينته وحدي إما أنه غباء أو أنه لم يكن لديه خيار آخر، وبالنظر إلى التوتر الذي شمل بحارة ماريجولد عندما شارفنا الميناء فقد خمنت أنه لم يكن لديه خيار آخر. أيًّا يكن ما سيفعله ويست في ديرن فقد احتاج إلى طاقمه بالكامل في مسعاه ذلك، ولم يكن يريد جرّافة من جزيرة جيفال شاهدة على الأمر.

تسلقت الصاري الرئيسي، وشاهدت الخمسة ينطلقون عبر شوارع القرية الضيقة سائرين في صف واحد يتصدرهم أوستر ويتذيلهم ويست. كانوا متوجهين إلى المشرب، حيث ارتفعت ثلاث مداخن مائلة من مبنى طويل مستطيل الشكل كان يستخدم نُزُلًا أيضًا.

في العادة كان المشرب المحطة الأولى التي يقصدها التجار حين يرسون، وقد كان الأمر كذلك حتى في طفولتي، وقد عرفت ما حدث خلف تلك الأبواب. لقد رأيت عددًا كافيًا من طاقم سفينة أبي يدخلون الحانات حاملين حافظات مليئة بالنقود، ويغادرون بأخرى خاوية. كان ثمة شيئان فقط ممنوعان تمامًا على متن السفينة؛ لأن كليهما يمكن أن يقتلك أو يقتل رفاقك على السفينة: الحب والسُّكْر. فقط على اليابسة يمكنك العثور على من يدفئ فراشك أو يمكنك إفراغ زجاجة من شراب الجاودار في جوفك.

امتد وهج النار إلى الشارع عندما انفتح باب المشرب واختفى الطاقم من ورائه. انطلق زفير طويل من بين شفتيّ وأنا أزيح الشعر من فوق وجهي وأفكر. على الأرجح لن يظهروا مرة أخرى حتى الصباح، عندما يُفتح منزل التاجر، ما يعني أنه كان أمامي متسع جيد من الوقت يقدر بعشر ساعات للدخول والخروج من ديرن دون أن يلحظني أحد.

نزلت إلى سطح السفينة، وهبطت على الدرج بقدمي الحافيتين. وبمجرد حلول الليل سأتسلل إلى القرية وأحصل على ما أحتاج إليه، لكن حتى ذلك الحين سأستغل الوقت لاستكشاف أمر ماريجولد على أمل أن يفضي بي الاستكشاف إلى شيء أقيم من العملة المعدنية، لم تكن ثمة عملة في منطقة المضايق أثمن من المعلومات.

تابعت الخطى في الممر، وتوقفت أمام الباب المفضي إلى مخزن الشحن، ثم سحبت أصغر أداة حديدية موجودة في حزامي، واستخدمتها لفتح القفل فانفتح بسهولة، وفتحت الباب، وطأطأت رأسي لأتفادى العوارض الخشبية وأنا حاملة المصباح أمامي.

تردد صدى كلمات هاميش في رأسي.

إن وضعتِ إصبعًا واحدًا على أي شيء لا يخصك على هذه السفينة فسأعرف.

حري بي أن أجازف، وأغتنم الفرص السانحة لي.

لم يصل من السطح سوى ضوء قليل من أشعة الشمس المنحسرة، فسقطت فوق الصناديق والبراميل الأسطوانية المصطفة على الجدران. امتلأت الغرفة بتلك الصناديق والبراميل وكانت مختومة بأختام مختلفة تعرفت عليها، كانت أختام الموانئ المنتشرة على طول خلجان منطقة المضايق. يدل مظهر المخزون على أن تجارة ماريجولد رابحة، ومع وجود خمس حافظات فقط بين البحارة فلا بد أن الأرباح جيدة.

لكن الأمر الذي كان مبهمًا هو كيف تمكنوا من تدشين تجارة في هذا العدد الكبير من الموانئ وهم لا يزالون طاقمًا جديدًا، بل طاقمًا من الشباب. كانوا جميعًا يقاربونني في العمر، ورغم أنه لم يكن من الغريب رؤية شباب يبحرون بسفن تجارية فإن الغريب هو عدم وجود بحار متمرس ذي خبرة طويلة بينهم.

رأيت في المخزن شباكًا وحبالًا جديدة مكدسة بجانب ستائر قماشية مطوية بعناية وسلال من الطماطم الخضراء، ولكن جرت العادة أن تكون ثمة بضائع على متن السفن لا يريد

مسئول الحسابات أن يراها أحد. لقد عرفت ذلك في طفولتي حين كنت أتطفل على مخزن الشحن في سفينة لارك.

استدرت في دائرة كاملة أتفحص الأكوام من حولي، كانت لكل سفينة مخابئها، ولم تكن هذه السفينة استثناءً.

لا .. بل إنها كانت استثناءً.

ثمة شيء مغلق عليّ بشأن سفينة ماريجولد وطاقمها. يمكنني تخمين ما حدث لمن تولى مهمة التجريف على هذه السفينة، لكن لماذا أداروا السفينة بخمسة أفراد فقط، بينما السفينة تحتاج إلى اثني عشر فردًا؟ ما الذي كان يفعله ويست في الجزر المرجانية، وما الذي أربكهم في ديرن؟

علقت المصباح على الخطاف وشببت، ثم ثبتّ يدي في أخاديد العوارض فوق رأسي، ثم تتبعت أصابعي كل الأخاديد على طول الهيكل حتى اصطدمت بزجاج ناعم بارد لزجاجة مخبئة بين الخشب، فسحبتها وعرضتها للضوء فتبدى السائل الكهرماني أخضر من خلال لون الزجاج الأزرق، ثم فضضت الزجاجة وشممتها.

مشروب جاودار.

ارتسمت ابتسامة خبيثة على شفتي فشدت الجلد المجروح، ثم أملت رأسي للخلف، ورفعت الزجاجة إلى فمي، ورحت أتجرع المشروب في شربة طويلة. أشعل الجاودار صدري حتى سعلت وأنا أبتلع ريقي وعيناي مغمضتان. توهجت في ذهني مئات الذكريات عندما امتلأ أنفي برائحة الجاودار الفواحة، وسرعان ما سددت الزجاجة، وأعدتها إلى مخبئها كأن المشاهد في ذهني ستختبئ معها.

قفزت لأسفل، وتفحصت الألواح في الجدران، إذ سحبت السكين من حزامي، وطرقت طرفيْ كل لوح حتى وجدت طرفًا غير مثبت. تذبذب فرفعته، ومددت يدي إلى الداخل

فعثرت يدي على كيس كتاني مربوط بإحكام. فتحته فتدحرجت منه أحجار كريمة صفراء في كفي، وأملت يدي نحو الضوء الضبابي. للوهلة الأولى بدت أحجارًا كريمة من نوع السيترين، لكن أمي قد علمتني أن أقيّم الأحجار تقييمًا خيرًا من ذلك.

وشت الأوجه التي جمعت الطيف الخافت في قممها بنوع الأحجار - كانت أحجارًا من نوع الفلسبار الأصفر.

لقد كانت قطعًا جيدة، فالضوء يتناثر بالتساوي على وجوهها. إن أخذت قطعة واحدة فقط من تلك الأحجار الكريمة التي خبأوها فسيكتشون غيابها بسهولة. كنت بحاجة لشيء آخر، شيء ليس لافتًا للنظر.

وضعتُ الكيس مرة أخرى في المخبأ، ثم رفعت أغطية البراميل الواحد تلو الآخر حتى رأيت في أحد البراميل شيئًا يلتمع في الظلام، كانت مشابك نحاسية، فتنهدت تنهيدة ارتياح، ودسست مشبكين في حقيبتي المثبتة بحزامي، ثم أغلقت غطاء البرميل. تسلل آخر ضوء خافت من خلال ألواح مؤخرة سطح السفينة، ثم رفعت عينيّ أتفحص الشق الموجود بالأعلى في الضوء الخابي، إذ على الجانب الأيمن لم يكن ثمة ضوء.

كان فوقي حجيرة القبطان.

تسلقت الصناديق التي تحوي نبات الملفوف عند الزاوية، ومددت يدي لأعلى، ثم ثبتّ طرف السكين بين نهاية أحد الألواح والعارضة الخشبية، وسحبت مقبض السكين لأسفل بحذر، بينما أرفع جسمي لأعلى إلى أن خرج المسمار. وحالما انفك طرفا اللوح وضعته على كومة الحبال بجواري. وفي الأعلى رأيت مصاريع نوافذ حجيرة ويست مغلقة.

انزلقت السكين بسهولة تحت الألواح الخشبية الأخرى، وبعد بضع دقائق كانت لديّ فتحة تتسع بما يكفي لدخولي. عدت وحملت المصباح، ثم أدخلت جذعي في الفتحة الضيقة وقدماي تتدليان بالأسفل في مخزن الشحن المفتوح قبل أن أسحبهما إلى أعلى.

كان ثمة ظل يتمايل بجوار رجلي عندما وقفت في وسط الحجيرة، فخطوت خطوة نحو النافذة المغلقة حيث وجدت خيطًا تنتظم فيه أحجار أفعوانية يتهادى على إثر هواء منسرب عبر الشقوق.

ابتسمت لنفسي وأنا أمد يدي لأقبض على أحد الأحجار الملساء بين أصابعي. كانت تلك الأحجار تتميز بثقب في منتصفها جعلها تبدو كأنها عين. تقول الأسطورة إن الأحجار الأفعوانية تجلب الحظ السعيد. كانت تلك الأحجار تُجمع من الشواطئ، وتُربط في خيط لتكون تعويذات من شأنها مواراة القبطان عن أعين شياطين البحر. كان والدي يعلقها في نافذة غرفته أيضًا، بيد أن ذلك لم يجدِ في الحيلولة دون غرق السفينة لارك.

من ورائي كان مكتب ويست مثبتًا في الأرضية، وعلى سطحه كومة من الخرائط والسجلات المفتوحة، اقتربت منه حتى وضعت يدي على مخطوطة بالية رقيقة، حوافها الملتفة مؤطرة بالحبر الدقيق الذي رُسمت به خرائط للجزر والخلجان والخنادق تحت الماء في منطقة المضايق. كانت ثمة تدوينات بخصوص عمق المياه وملاحظات عن المعالم وشبكة هندسية من الخطوط المستقيمة قد ملأت الحواشي، وكانت مكتوبة بخط يد مائل غير متقن، وتساءلت عما إذا كان ذلك خط ويست أم باج. ثم مضيت إلى الورقة التالية لأتفحصها، كانت خريطة، شاهدت في حافتها العلوية جزيرة جيفال كأنها عوامة تطفو في وسط اللامكان.

وفوق منتصف الخريطة كانت هناك بوصلة نحاسية لامعة لا تشبه أية بوصلة رأيتها على الإطلاق، أمسكتها ووضعتها في يدي، وتفحصت سطحها الغريب على ضوء المصباح فتراقصت إبرة البوصلة.

وبجوار البوصلة كان هناك حجر خشن أبيض بحجم الكف.

لكن ما جذب انتباهي عند تلك اللحظة كانت الفجوة التي فتحتها في الأرضية، رأيتها في زاوية نطاق رؤيتي. عدت بناظريّ صوب الفجوة، ونظرت إلى مخزن الشحن فوقع بصري

على أحد الألواح الخشبية التي خلعتها من الأرضية، إذ لاحظت على أحد طرفيْ اللوح رسمة سوداء على السطح المطلي بالورنيش الذي كان جزء منه مدسوسًا تحت البساط.

استدرت وعيناي مثبتتان على حافة البساط بجوار قدمي قبل أن أجثو وأرفع الطرف. سقط قلبي في أعماقي حين رأيت شكل موجة سوداء، فسحبت البساط بعيدًا، وشهقت حين ظهرت بقية الرسمة. كان ذلك شعارًا مرسومًا على الأرضية ومكشوطًا، فلم يبق منه سوى الخطوط العريضة، لكن الشعار لم يكن شعار ماريجولد.

كان شعار سينت.

تسارعت الأفكار في ذهني في محاولة لفهم الأمر، وأنا أحاول ترتيب المعلومات في نسق يمكنني استيعابه، لكن التفسير الوحيد لذلك لا يمكن أن يكون صحيحًا.

ليست هذه سفينة ويست، بل سفينة أبي، أو كانت كذلك في وقت ما، لكن الشعار على الأشرعة وصدر السفينة ليس شعار أبي. وهكذا فإما أن ويست يحاول طمس ما يدل على المكان الذي أتت منه هذه السفينة، وإما أنه يحاول طمس ما يدل على حقيقة هذه السفينة.

إنها سفينة ظِل.

لقد سمعت عن نوعية تلك السفن من قبل - هي السفن التي كانت تتحكم فيها مجموعة تجارية ذات نفوذ، ولكنها تعمل بشعار مختلف لإخفاء الهوية الحقيقية للمجموعة. كانت سفن الظِل تنفذ مهمات لم يود السيد أن يكون له صلة بها، أو كانت تضطلع بما هو أسوأ من ذلك، ألا وهو التلاعب بالتجارة في الموانئ لقلب الموازين لصالحهم. لقد كانت مخالفة جسيمة بحق مجلس التجارة، ومن شأن مثل تلك المخالفة أن تتسبب في إلغاء ترخيص السفينة إلى الأبد. لم يفاجئني أن سينت لديه سفينة ظل، ربما لديه الكثير، ولكن لماذا يوكل مهمة كهذه لعصبة من متشردي حي الساحل؟

هكذا إذن حصلوا على ترخيصهم من مجلس التجارة - بنفوذ سينت.

دق رنين جرس حاد، فأفزعني للغاية حتى انزلقت البوصلة الثقيلة من بين أصابعي الباردة، بيد أنني وثبت وأمسكت بها قبل أن تصطدم بالأرض، وكدت أسُقط المصباح من فوق الطاولة. استنشقت نفسًا واستندت إلى المكتب ألملم شتاتي.

كان ذلك رنين الجرس المؤذن بموعد غروب الشمس، حيث يدق عند القرية مع اختفاء آخر ضوء في الأفق.

أعدت البوصلة إلى وسط المكتب بيدين مرتعشتين، ثم عدت أدراجي نزولًا من الفجوة في الأرضية، وأعدت تثبيت الألواح في مكانها. لم أتمكن من إعادة دق المسامير، لكن الألواح كانت قريبة جدًّا من المكتب ونصفها كان متواريًا تحت البساط، فعقدت أملي على أنه سوف تمضي فترة قبل أن يلاحظ أحد الأمر.

رجعت إلى سطح السفينة، ونظرت صوب القرية. إذا تذكرت الطرقات فيمكنني الذهاب إلى المقايض والعودة في مدة تتجاوز الساعة بقليل.

بالأسفل على الرصيف كان الرجلان اللذان استأجرهما ويست منكبين على لعب الورق. رفعت نفسي فوق مؤخرة ماريجولد، ولففت ساقي في حبل معقود بطرفه مصيدة سمك كي أتمكن من إنزال نفسي دون إحداث صوت فأنزلق في المياه الساكنة. ملأت رئتيَّ بالهواء وغطست، وسبحت ويداي أمامي في الظلام صوب الشاطئ.

كنت أعلم أنه ما من شيء يبدو على حقيقته في منطقة المضايق، كل حقيقة ملتوية، كل كذبة محبوكة بعناية. كان حدسي مصيبًا بشأن ماريجولد، لم تكن سفينة تجارية، أو على الأقل لم تكن سفينة تجارية فقط. إنها مسألة وقت فقط قبل أن يجد طاقم سفينة الظِل التابعة

لـ سينت أعناقهم مطوقة بحبال تشنقهم، وهكذا ستتبدد فرصتي الوحيدة في الوصول إلى سيروس.

الفصل الثاني عشر

سرتُ في الشارع المزدحم قاصدة برج الجرس الذي يتوسط ديرن. وفي جزيرة جيفال لم تكن العين ترى مباني تبرز في السماء قبل أن تنحني صفحتها في الأفق، وتغوص في البحر. أما هنا فالعين ترى مشهد السماء مؤطرًا بأسطح المنازل المائلة التي تتخذ أنماطًا متعرجة، ما جعلني أشعر بأن بوسعي الاختباء.

في جيفال لم يكن ثمة مكان للاختباء.

ظللت أراقب ما حولي بحذر، ورحت أتلفت لأمسح محيطي كلما خطوت ثماني إلى عشر خطوات لأحفظ الطرقات التي سلكتها. تذكرت جزءًا كبيرًا من القرية، أكثر ما ظننت أنني سأتذكره، إذ لم يتبدل الكثير منذ آخر مرة مشيت في دروبها. ثارت زوبعة من الذكريات فتذكرت الأشكال والأصوات، لكن في آخر مرة زرت فيها ديرن كنت أمسك بيد الملاح كلوف على سفينة أبي. تبعته في العتمة بخطى سريعة متشتتة وهو يسحبني بين الحشود إلى متجر المقايض. لكنني اليوم لست الفتاة الصغيرة اللطيفة التي تجولت ذات مرة في هذه الشوارع وهي محمولة على كتفيه. لقد صرت كائنًا آخر الآن.

أضاء احتراق غليون في الزقاق المظلم، وراحت امرأة ترصدني من بين سحابة دخان أبيض. كنت بالفعل أجذب الانتباه أكثر من اللازم.

انعطفت انعطافًا حادًا، وعَلّمت المكان بالسطح الأحمر في الزاوية الشمالية الشرقية لتحديد مكاني. ثم ترامى إلى مسمعي صوت أطيط أحذية على الصخور المبللة من ورائي، فدسست نفسي في الظلمة التي اكتنفت الجدار الحجري ويدي تقبض بقوة على جديلتي المبللة إلى أن اجتازني المارة. كان معظم الناس متوجهين إلى منازلهم بعربات سحب متنقلة من تلك التي تستخدم في السوق، يشقون طريقهم للخروج من الجزء المزدحم في

القرية، لكن بعضهم كانوا متوجهين إلى أعلى التل، نحو الحانة، وهذا أشعرني بالتوتر. إن لم تتوافر غرف كافية في النُّزُل فربما يعود الطاقم إلى ماريجولد.

لاح متجر المقايض في نهاية الزقاق التالي، مضاءً بمصباح واحد من مصابيح عواميد الإنارة ينشر ضوءًا خابيًا. كان سقفه مائلًا مشيدًا بالقرميد، وبجانبه جدار أملس في مبنى بلا نوافذ، لكنه بدا على الهيئة التي أذكره بها تمامًا، ويهبط حائطه من السقف حتى يصل إلى نافذة مؤطرة بإطار خارجي بارز وأحد ألواحها الزجاجية متصدع. وكان ثمة سلم من خمس عتبات غير متساوية يفضي لأعلى نحو الباب الأخضر الذي يحمل لافتة بلون أزرق باهت متقشر.

مقايض القرية

توقفت أصيخ السمع هنيهة قبل أن أخطو بقدم موحلة نحو ضوء القمر المبسوط على الأحجار المرصوفة، عندئذ انفتح الباب، وخرجت منه امرأتان تقهقهان، وتتعثران على العتبات. تقهقرت من موضعي محاولة أن أجعل كل جزء مني مغطى بالظلام. مرت المرأتان بجواري مباشرة من دون أن ترفع إحداهما ناظريها نحوي، ثم انعطفتا مع المنعطف، عندها فقط رأيت لمعان شيء يلتمع حول معصم إحداهما، كان له بريق مثل شعلة صغيرة أسفل كم عباءتها.

إن كانت ثمة ضربة حظ تنتظرني في هذه القرية فهي هذه.

بدأت بالسير بجوار الحائط في الاتجاه المعاكس، وسرَّعت خطواتي كي أسبقهما، وعندما وصلت إلى الزقاق التالي لبثت منتظرة أراقب ظليهما على الأرض وأنفاسي محبوسة في صدري. خطفة بسيطة، هذا كل ما أحتاج إليه، ولكن مر زمن طويل منذ آخر مرة نشلت فيها، ولقد مر زمن أطول على دروس النشل التي لقنني إياها كلوف في أوقات متأخرة من الليل.

لا تترددي يا فاي، ولا لحظة واحدة حتى.

أكاد أسمع صوته الغليظ الهادر يتردد في أذني. وظننت أن أبي سيكون غاضبًا حين يعلم أن كلوف كان يعلمني النشل، بيد أنني اكتشفت لاحقًا أن أبي هو من طلب منه فعل ذلك، لكن أمي هي التي عارضت الأمر.

حينما سمعت أصواتًا، خرجت إلى الطريق وعيناي مرتفعتان نحو أسطح المنازل، وبدرت مني حركة تعثر إلى الوراء فاصطدمت بإحداهما قبل أن تترنح وتكاد تسقط.

قبضت على ذراعيها قبل أن تسقط في الوحل وهي ترمقني بعينين واسعتين، وقلت: «أوه! اسمحي لي بأن أساعدك من فضلك».

استجمعت توازنها وأنا أخلع السوار من معصمها الصغير، وفي أثناء ذلك عضضت بقوة على شفتي. لقد كانت مهارة تحتاج إلى تدريب، لكنني لم أتجرأ على النشل في جزيرة جيفال، إذ سأواجه هنالك احتمالية أن يربطني أحدهم في الشعاب المرجانية ويتركني للموت. رفعت ناظريّ لأعلى وأنا واثقة بأن المرأة قد أحست بأصابعي تعبث في مشبك السوار، لكن حالما تركزت عيناها عليّ جفلت المرأة نافرة، وتكورت قبضتاها وهي تضمهما إلى صدرها وفمها ينفرج قائلة: «لا تلمسيني!».

استغرق مني الأمر هنيهة حتى أفهم ما يجري، فتفحصت وجهها ونظرت لأسفل نحو قدميّ الحافيتين وملابسي الرثة. لقد فضحني مظهري، مظهر جرّافة من سكان جيفال، حتى لو لم أكن واحدة منهم بالدم. وكذلك شفتي المجروحة كانت تخبر أي أحد تقع عيناه عليّ بأنني واجهت مأزقًا في الأيام القليلة الفائتة.

طوقتها المرأة الأخرى بذراعها في حركة حماية، وسحبتها بعيدًا بوجه مكفهر، أما أنا فطأطأت رأسي في اعتذار.

وبمجرد أن غابتا عن ناظريَّ تنهدت لأحاول إبطاء خفقان قلبي. تألق السوار الذهبي وأنا أقلبه في الضوء. لعل هذه كانت المرة الوحيدة التي ينفعني فيها مظهري الجيفالي.

تحرك ظل آخر أمام نافذة متجر المقايض قبل أن أسمع صوت تحرك مزلاج الباب؛ وسكنت حركتي عند ظهور شبح أحدهم يقف وسط الزقاق في الوقت ذاته. ترامى الضوء من المتجر على خصلة من الشعر الذهبي تطل من تحت غطاء رأس، استنشقت نفسًا آخر وأصابعي تقبض على السوار.

إنه ويست. وقف في وسط الزقاق وعيناه على باب متجر المقايض المغلق. انسحبت وأنا ملتصقة بالجدار، وحشرت نفسي خلف الزاوية، وقلبي يخفق بقوة في صدري مرة أخرى.

وقبل أن تسنح لي الفرصة حتى للالتفاف والركض شاهدت باب المتجر ينفتح وخرجت منه ويلا تهبط العتبات، وجمدت حركتها هنيهة حين رأت ويست. كان الضوء يُظهر نصف وجهه فقط، ودس يديه في جيبيه مع انغلاق الباب خلفها.

عندذاك تساءل بصوت عميق لا يخلو من حدة قادرة على تفتيت العظام: «بكم؟».

سيطرت ويلا على تعابير المفاجأة التي احتلت وجهها، وهبطت الدرج لتتجاوزه، لكنه خطا أمامها ليسد طريقها، وتساءل مرة أخرى: «بكم؟».

تقهقرتُ أكثر وأنا أراقبهما.

التفت ويلا في مواجهته، وشدت كتفيها في حركة تنم عن الاستعداد للمواجهة مع أنها كانت في نصف حجمه تقريبًا. على ضوء المصباح تبدى لون بشرتها عميقًا حتى صار ضاربًا إلى اللون البُني الغامق، ما أضفى على شعرها البرونزي لمعانًا، وقالت: «ابق بعيدًا عن هذا يا ويست».

قطع بخطواته المسافة الفاصلة بينهما، ومد يده إلى معصمها ليحل ذراعيها المعقودتين، وجعلها تستدير. زمجرث وهو يرفع حاشية قميصها ويتفحص حزامها، بعد ذلك استكانت حركته، ثم اختفى من حزامها الخنجر المرصع بالأحجار الكريمة.

سحب سكينه من حزامه، وانطلق نحو متجر المقايض، لكنها اندفعت خلفه وتشبثت بذراعه وشدته إلى الوراء قائلة في توسل: «لا يا ويست، من فضلك لا تفعل ذلك».

كانت قبضته مشدودة للغاية على السكين حتى إن الضوء تراقص على النصل جراء ارتجافة يده، وتساءل: «كم أعطاك مقابل الخنجر؟».

قالت وقد تجرد صوتها فجأة من الغضب الذي سمعته في حديثها قبل لحظات فقط: «عشرون عملة نحاسية»، بدت كطفلة.

رفع ويست يده ومسَّد وجهها وقال متنهدًا: «إذا احتجت إلى شيء يجب أن تطلبيه مني يا ويلا».

تألقت عيناها بالتماعة وهي ترنو إليه. حتى في الظلام كان بوسعي رؤية عضلات فك ويست مشدودة بقوة. تجلى لي فجأة أنه لا بد من وجود شيء بينهما. لم يقضيا وقتًا طويلًا معًا على متن السفينة، لكن بوسعي ملاحظة لمحة من طبيعة العلاقة التي تربطهما في النظرات التي يتبادلانها الآن، كانت علاقتهما أكبر من مجرد رفيقيْ سفينة، وهذه الخاطرة جعلتني أعض على خدي من الداخل. الشعور الذي اجتاحني يكاد يكون... غضبًا، بيد أن شعورًا بالإهانة لم يلبث أن أزاح شعور الغضب. لم يرقني أنني أبديت أي نوع من الاكتراث لذلك الأمر.

همست ويلا: «أنا مدينة لك بما فيه الكفاية». والتمع خدها بدموع منسابة، فمدت يدها لتمسحها وهي تحرص على تفادي موضع الحرق الذي وسم جلدها.

فقال ويست: «لقد أخبرتك بأنني سأتدبر الأمر».

حدقت إلى الأرض الموحلة التي تفصل بينهما، وخفضت ذقنها لأسفل.

عاد ويست يتساءل: «متى ستثقين بي يا ويلا؟».

فرفعت عينيها اللتين يتطاير فيهما الشرر وقالت: «عندما تكف عن معاملتي بصفتي مشردة من حي الساحل كنت تسرق الطعام من أجلها».

تقهقر خطوة، كأن المسافة التي تفصل بينهما ستخفف من وطأة كلماتها، بيد أن وطأة الكلمات لم تخف، وظلت كلماتها عالقة في الفراغ بينهما كرائحة جيفة متعفنة. ثمة شيء لم يطوه النسيان مطلقًا.

هكذا إذن كانت ويلا تنطق بالحقيقة عندما قالت إنهم متشردون من حي الساحل، وقد عرفت ويست قبل أمد طويل من عملهما على ماريجولد.

تنهدت وقالت بنبرة متلطفة: «أنا آسفة». ثم مدت يدها نحوه، لكنه تنحى جانبًا مفسحًا الطريق أمامها وهو يعيد سكينه إلى الغمد في حزامه.

لبثت ترنو إليه بنظرة طويلة قبل أن تنطلق في الزقاق، ولم يلتفت ويست مرة أخرى إلا بعد أن غابت عن الأنظار، وعندما رفع عينيه تجمدتُ في مكاني، كان ينظر نحوي مباشرة بنظرة كشعاع ضوء مركز يضيء مخبئي.

نظرت ورائي من فوق كتفي، لكن لم يكن ثمة شيء، لقد كان الظلام يكتنفني تمامًا.

قال بصوت خفيض لدرجة أنني بالكاد استطعت سماعه وسط هزيم الرعد الخفيف من فوقنا: «اخرجي إلى هنا»، ثم أردف: «الآن».

ترددت قبل أن أخرج من الظلام إلى الدرب المرصوف بالحجارة. سقطت قطرة مطر باردة على خدي، بينما كانت عيناه تتفحصانني ببطء، ولا يزال الشد مكتنفًا كتفيه بقوة على إثر أجواء التوتر.

«ماذا تفعلين هنا؟».

التقت عيناي بعينيه وقلت: «لقد أخبرتك. لم أدفع لك مقابل زنزانة سجن، لقد دفعت مقابل نقلي».

زحف بصره عليَّ حتى توقف عند يدي، كان السوار الذهبي متشابكًا في أصابعي، وكان يتلألأ في المصباح، ثم قال: «هل تعرفين ماذا سيحصل إذا أُلقي القبض على راكبة أحضرتها إلى هذه القرية وهي تسرق؟».

كنت أعلم العواقب، سيدفع غرامة على ذلك، يمكن حتى أن يتم تعليق رخصته التي تمنحه حق التجارة في ديرن، وذلك اعتمادًا على عدد العلامات السوداء في سجله. بصفته القبطان فقد كان مسئولًا عن كل شخص يحضره إلى الميناء.

حدقت إليه، ووضعت السوار في جيبي، ثم قلت: «أعطيتك كل ما أملك من النقود، لا أستطيع الذهاب إلى سيروس خاوية الوفاض».

هز ويست كتفيه قائلًا: «إذن يمكنك قضاء الأشهر الستة المقبلة هنا في ديرن لتجمعي المبلغ الذي ستحتاجين إلى دفعه لتاجر آخر يصطحبك على سفينته».

اتسعت عيناي، حيث كان جادًّا في كلامه.

أردف وعيناه تهبطان حتى ارتكزتا على قدميَّ القذرتين: «لقد خسرتِ مكانك على ماريجولد، إلا إذا كنت تودين عقد صفقة جديدة».

تساءلت: «ماذا؟»، بالكاد تعرفت على صوتي الذي رق للغاية.

«إذا أردت أن أنقلك إلى سيروس فستدفعين ثلاثين عملة نحاسية».

ضيقت عينيَّ بنظرة ريبة وأنا أتساءل: «ثلاثون عملة نحاسية؟ من أجل ماذا؟».

ولوهلة التمعت عيناه بنظرة لم أرها من قبل، نظرة وشت بشيء من الهشاشة تحت كل هذه الصلابة الظاهرة، لكنها تلاشت بالسرعة التي ظهرت بها.

ثم قال: «أحتاج إلى خدمة منكِ».

الفصل الثالث عشر

بدأت قطرات المطر تتساقط وأنا منتظرة في الزقاق، وهبط الضباب فوق ديرن متدفقًا في الشوارع كأنه روح نهر ميت منذ زمن بعيد.

أخبرني ويست بأن أنتظر، قبل أن ينطلق، ثم يعود أخيرًا حاملًا على ذراعيه شيئًا لم أتبينه في الظلام. عندما وصل دفع الحمولة إليّ فعدت إلى ضوء القمر وأنا أتفحصها، كان حذاءً وسترة.

«ما دمت بمظهرك هذا فلن يتاجر معك أحد، ناهيك عن التحدث إليك أصلًا».

استشعرت توردًا تتدفق حرارته على صفحة وجهي. لم يكن الحذاء جديدًا لكنه كان كالجديد، وكان الجلد ملمعًا. حملقت إلى الحذاء، وفجأة شعرت بالحرج.

قال: «انتعليه».

امتثلت، وانتعلت الحذاء وربطت الأربطة بينما كان ويست يراقب الزقاق من حولنا. سحب منديلًا من جيبه الخلفي، ومال ناحية الطريق حيث كانت مياه الأمطار تتساقط من حافة السطح بالأعلى، وبلل المنديل.

ثم أعطاني إياه، وعندما لم أتحرك قال متنهدًا: «وجهك».

ندت عني صرخة تأوه مكتومة، وألهبت حرارة الحرج خديّ مرة أخرى وأنا آخذ منه المنديل، ثم مسحت جبهتي ورقبتي.

عندئذ قال وهو يومئ بذقنه نحو الجرح الذي يشق شفتي: «كان ينبغي لك أن تجعلي أوستر يخيط لك ذلك».

فغمغمت بانزعاج: «ما الغريب في وجود ندبة؟».

بدا كأنه قد يقول شيئًا ما، إذ انفرجت شفتاه بما يكفي لأرى حافة أسنانه، لكنه أطبقهما مرة أخرى من دون أن ينبس بكلمة، ثم أمسك بالسترة مهيئًا إياها كي ألبسها، فأدخلت ذراعيّ في الكُمّين قبل أن يوثق الأبازيم الواحد تلو الآخر.

ثم قال: «لا تقصدي الخنجر مباشرة، انظري في الأرجاء قليلًا، واطرحي بعض الأسئلة». ثم وضع غطاء الرأس فوق رأسي، ونظف كتفيْ المعطف بيديه.

«ماذا أقايض؟».

سحب الخاتم من إصبعه ووضعه في كفي.

رفعت الخاتم أمامي حتى التمع الذهب، ثمة خط من الشقوق على طول سطحه. سألته: «ماذا لو لم يكن الخاتم كافيًا؟».

فأجاب بفظاظة: «سوف تتدبرين حلًّا»، وأردف: «لا تذكري اسمي أو اسم ويلا. إذا سأل عن هويتك فقولي إنك جرّافة تعملين على متن سفينة صغيرة ترسو في الميناء الليلة». بسطت كفي نحوه وأنا أقول: «حسنًا».

نظر إلى يدي متسائلًا: «ماذا؟».

فأجبت: «خمس وثلاثون عملة نحاسية».

رد: «قلتُ ثلاثين».

فهززت كتفي وأنا أقول: «إننا نتفاوض».

حدجني بنظرة طويلة مرتابة وهو يعبث في جيبه، ويخرج حافظة النقود.

تفحصته وهو يضع العملات في يدي ويحصيهم، وأنا أقاوم ابتسامة تريد أن تنبسط على شفتي.

لكن عندما نظرت في وجهه كان عابسًا، والسأم يلوح في عينيه بدرجة لم ألحظها عليه من قبل، كان قلقًا.

لعل الخنجر كان ملكًا لويلا، لكن من الجليّ أنه كان ذا قيمة لويست أيضًا.

دسست النقود في جيبي وأوليته ظهري، وخرجت إلى الزقاق قاصدة متجر المقايض. تساقطت قطرات المطر الكثيفة على غطاء رأسي، وارتقيت عتبات السلم، ثم طرقت مرتين على الباب الأخضر الصدئ.

سمعت دبيب أقدام بالداخل قبل أن ينفتح الباب، فكشف من ورائه عن رجل أصلع ذي لحية طويلة داكنة اللون. سحبت سكيني من غمدها ببطء وأنا أخطو إلى الداخل، وانغلق الباب خلفي فجلجل الجرس. لم يكلف الرجل نفسه عناء النظر إليّ، ومضى يشق طريقه عائدًا إلى مقعد في زاوية المتجر، حيث يوجد مصباح فوق عدسة مكبرة مثبتة، وبجوارها أنبوب غليون لا يزال الدخان يتصاعد منه، ويملأ المتجر الصغير برائحة نبتة البوصير.

وضعت الشموع في زجاجات الجاودار القديمة المتسخة المنتشرة على كل سطح تقريبًا، ونورها الخفيف يسقط مرتعشًا على جميع الأغراض اللامعة الموجودة في الزوايا وعلى الأرفف والطاولات: أحجار خام، مجوهرات مصقولة، أدوات رسم خرائط مطلية بالذهب. أغراض صغيرة كانت ذات قيمة لأحدهم في مكان ما. بيد أن أناسًا مثلي لا يكاد يكون لديهم شيء ذو قيمة أكبر من سقف فوق رأسي ووجبة في معدتي، لقد فرطتُ في كل شيء كان ذا قيمة عندي مقابل هذين الغرضين، سقف ووجبة.

أمسكت بمجموعة أمشاط مرصعة بأصداف نادرة مثل تلك التي كان فريت يبيعها عند جزر الحاجز، ورحت أفتشها. كانت بجوار الأمشاط مرآة يد، نظرت فيها لأرى انعكاسي، فتجمدتُ حين رأيت شفتي. كان ويست محقًّا، كانت بحاجة إلى تخييط. الجلد الملتهب كان يحوطه احمرار، وثمة كدمات تكاد تصل إلى ذقني.

انتقلت إلى الطاولة التالية لكي لا أنظر إلى انعكاسي لحظة أخرى، لم أكن أريد أن أرى الفتاة التي تنظر لي في تلك المرآة، أو أن أرى مدى اختلاف هذه الفتاة عن تلك الفتاة التي كانت تعيش في هذا الجسد فيما مضى.

أمسكت بتمثال من البرونز لامرأة عارية تطوق نفسها بشراع سفينة وسألت: «ما هذا؟».

رفع المقايض ناظريه من عدسته المكبرة وأسنانه مطبقة على أنبوب الغليون، ورمق التمثال من دون أن يحير إجابة، ثم عاد إلى عمله، وقال: «من يأتي إلى هنا يكون قاصدًا غرضًا معينًا».

وضعت التمثال في مكانه، وشققت طريقي نحو طاولة العمل التي يجلس عندها. فتشت عيناي الخزائن الزجاجية خلفه، حيث تراصت فيها أرفف تحوي سكاكين، بيد أنني لم ألمح الخنجر.

ومض وميض في زاوية المتجر، والتفتت نحو شعاع ضوء القمر الوحيد المتسلل من النافذة القاتمة، كان الشعاع ساقطًا على صندوق خشبي صغير بقفل نحاسي انطفأ لمعانه، وفي داخله رأيت الخنجر موضوعًا في علبة زجاجية ضيقة مبطنة بالقطيفة.

ارتفع حاجبا المقايض عندما رأى ما كنت أنظر إليه.

أمسكت أصابعي بحافة الغطاء ورفعت الزجاج.

شعرت به ورائي حتى قبل أن أسمع خطاه، فأفلتت يدي العلبة، وتقهقرت خطوة. تحول وجهه متسائلًا وهو يتفحصني، ومد ذراعه فوق رأسي ممسكًا بالصندوق قبل أن يضعه على منضدة العمل التي تفصل بيننا.

تحول صوته الأجش إلى نبرة ودية مفاجئة وهو يقول: «اشتريت هذا من تاجرة للتو».

قلت: «أتسمح لي؟»، ولم أنتظر إذنه، فتحت الزجاج وأمسكت بالخنجر وانحنيت إلى النافذة. لقد كانت قيمته أكبر مما تصورت، رُصع بالأحجار الزرقاء والبنفسجية في أنماط أفعوانية تتلألأ بحيث يسري الضوء على جوانبها مثل الأمواج. وترددت أصواتها الفريدة بين أصابعي مثل نغمات أغنية، إن أغمضت عينيّ يمكنني تحديد تلك النغمات الواحدة تلو الأخرى.

«كم ثمنه؟».

اتكأ الرجل وهو جالس على مقعده حتى استند بكتفيه إلى الجدار، وراح ينفخ في غليونه حتى تصاعد الدخان مرة أخرى، ثم قال: «قدمي لي عرضًا».

نظرت إليه بطرف عيني وأنا أجري الحسابات في ذهني. بالطبع يريد أكثر مما دفعه لويلا كي يربح، لم أكن متأكدة من قيمة الخاتم، ولكن سيكون من الأفضل المقايضة بالنقود التي أعطاني إياها ويست والاحتفاظ بالخاتم للتقايض في سيروس. قلت: «خمس وعشرون عملة نحاسية».

ضحك فترددت في حلقه خشخشة سعال، وقال: «اخرجي من هنا»، ثم مد يده إلى الخنجر، لكنني ضممت الخنجر إلى صدري، وعندئذٍ لاحت التماعة في عينيه. كانت تلك الحركة غلطتي الأولى.

حاولت مرة أخرى: «ثلاثون».

رفع ذقنه ورمقني من أعلى قائلًا: «هذا مصنوع في مدينة باستيان».

اشتهرت هذه المدينة الساحلية العظيمة في منطقة البحر المجهول بإبداعاتها في استخدام الأحجار الكريمة. أي شيء تتطلب صناعته دقة مثل هذا الخنجر لم يكن ليصنع في منطقة المضايق، لأن أي شخص يتمتع بالمهارة في صناعة الأحجار الكريمة يهاجر إلى مدينة باستيان، حيث كانت نقابة الأحجار الكريمة ذات نفوذ، وتدفع أجورًا جيدة، وكان يتوافر هنالك تدريب مهني وفرص عمل وفيرة.

وكذلك كانت مدينة باستيان هي المكان الذي تعلمت فيه أمي كل ما عرفته عن الأحجار الكريمة وعلمتني إياه.

اعتمدت حياتي على المقايضة، وأعلم الآن أنني قد خرقت للتو أهم قاعدة في التفاوض، إذ بوسعه أن يرى أنني سأعطيه كل شيء من أجل هذا الخنجر إذا اضطررت لذلك. إن لم أحصل عليه فسيتركني ويست في ديرن، وسأعود إلى سيرتي الأولى على جزيرة جيفال.

قلت: «ثلاثون عملة نحاسية وخاتم ذهب»، أردت أن أقضم لساني وأنا أقولها وأخرج خاتم ويست من جيبي وأضعه على الطاولة أمامه.

لقد كان هذا المقابل أكثر مما قد يدفعه أي شخص آخر لقاء هذا الخنجر، ومع ذلك لمحت اختلاجة فمه التي وشت بأنه لم ينته مني بعد.

ارتسمت ابتسامة شريرة على شفتيه وهو ينتظر.

فصررت على أسناني وأنا أخرج من جيبي الآخر السوار الذهبي الذي نشلته والإبزيمين النحاسيين وأضعهما على الطاولة وأنا أقول: «وهذه أيضًا، إن أعطيتني مطرقة تجريف»، فمطرقتي كانت لا تزال قابعة هنالك عند الشعاب المرجانية.

قال: «اتفقنا»، وانتزع مطرقة من صينية الأدوات خلفه، لكنه انتظر حتى أحصى العملات النحاسية الثلاثين قبل أن يعطيني المطرقة.

إن لم لأذهب إلى سيروس بالسوار لأستخدمه في التقايض، فعلى الأقل يمكنني الانخراط في أعمال التجريف هناك.

نظرت من النافذة أحاول أن أعثر على شبح ويست في الظلام، لم أتمكن من رؤيته، لكنني استشعرت بأنه يراقب.

لقد ارتكب الخطأ ذاته الذي ارتكبته حين أظهر لي أنه مهتم بالخنجر، ولم يكن الأمر أنه يريده فقط، بل كان يحتاج إليه لسبب ما، وإذا تسنت لي معرفة هذا السبب فقد أتمكن من استغلال ذلك ليعود عليّ بشيء من النفع.

سألته: «هل تعرف أي شيء عن تلك التاجرة التي اشتريت منها هذا الخنجر؟».

ألقى النحاسيات في علبة خلفة، وأشار إلى لافتة مكتوبة بخط اليد بجوار النافذة.

كان مكتوبًا عليها: لا أسئلة.

حدقت في الرجل. ما من أحد يرغب في التعامل مع مقايض يتحدث عن مصادر الأغراض الموجودة في متجره. على كل حال لم أكن أول عميلة مخادعة يتعامل معها في يومه، ولن أكون الأخيرة أيضًا.

أعطاني المطرقة، وصرفني بتلويحة من يده.

عندما رآني ويست قادمة أظهر نفسه من خلف عربة في الزقاق، ولبث منتظرًا ويداه مدسوستان في جيبيه. أخرجت الخنجر ومددته نحوه، ولم يكن الارتياح الذي احتل وجهه خافيًا.

ثم أخذه وأومأ بإيماءة قائلًا: «شكرًا لك».

وعندذاك ذكّرته: «لم يكن ذلك معروفًا». لقد دفع لي مقابل استعادة الخنجر خمسًا وثلاثين عملة نحاسية علاوة على نقلي إلى سيروس، وقد أنجزت المهمة. صحيح أنه لم يتبق معي سوى القليل من النقود إلا أنه كان مبلغًا أكبر مما وصلت به إلى ديرن.

تبعته عبر شوارع القرية نحو المداخن الثلاث المائلة التي تعتلي الحانة. حين انفتح الباب ودخلنا لفحتنا حرارة النار المتقدة بداخل المشرب، أطلقت ناظريّ باحثة عن أفراد الطاقم، لكن لم أر سوى وجوه لم أعرفها تتحلق حول الطاولات وأمامها أكواب من الجاودار. شق ويست طريقه بينهم حتى وصل إلى المنضدة المجاورة للنار المتقدة، واتكأ عليها، هنالك وقفت أمامنا امرأة نحيلة عاقصة شعرها فوق قمة رأسها وتلفه بقطعة قماش حمراء. قالت: «ويست».

فقال: «عشاء، وغرفة»، وأسقط ثلاث عملات نحاسية على المنضدة، فالتقطتها المرأة ودستها في مئزرها، وابتسمت لي ابتسامة ذات مغزى.

تورد وجهي خجلًا حين أدركت ما كان يجول بخاطرها، فقلت وأنا أرفع يدي: «لا، لسنا...»

فغمزت لي المرأة، لكن ويست لم يتكلف عناء تصويب ظنها الخاطئ، ورحت أتساءل عما إذا كان ظن هذه المرأة نتيجة أنني لم أكن أول فتاة يحضرها ويست إلى المشرب، ويدخل الغرفة معها. عندئذ خالجني شعور الانزعاج الذي شعرت به حين شاهدت ويست وويلا في الزقاق.

بسط إحدى يديه على المنضدة متكئًا عليها فرأيت خط الجلد الشاحب الذي يحيط بإصبعه مكان الخاتم، فسألته: «الخاتم. هل كان مهمًّا لك؟».

عندئذٍ تكورت يده، ودسها مرة أخرى في جيبه وهو يستدير صوب السلم متجاهلًا السؤال، وقال: «طابت ليلتك».

راقبته وهو يرتقي السلم، وترامى شعاع من الضوء في الردهة عندما فتح الباب وأغلقه من خلفه.

بدا أن المرأة التي تقف خلف المنضدة قد خاب ظنها، وتجاوزتني حاملة حلقة مفاتيح تتدلى من يدها وهي تقول: «هيا إذن». فتحت الباب المجاور لغرفة ويست، وقالت: «إذن، هذا مكانكِ».

انضوت الغرفة على سرير صغير وحوض غسيل في أحد جدران الغرفة الصغيرة، بينما احتل كرسي الجدار المقابل، ودلفت إلى الداخل.

قالت: «سأعود بشيء لتأكليه»، وابتسمت ثم خرجت من الغرفة، وأغلقت الباب بهدوء.

ذهبتُ تجاه النافذة، ورنوت إلى الميناء من فوق أسطح المنازل، حيث بالكاد لاحت أشباح السفن في العتمة. وعندما اختفى صوت خطى المرأة في الردهة نظرت من فوق كتفي صوب الجدار الخشبي الذي يفصل بين غرفتي وغرفة ويست. لم يكن ثمة ضوء يتسلل عبر الشقوق، خطوت خطوة وأنا عاقدة ذراعيّ، وأسندت جبهتي إلى الجدار.

وفي غضون ليلة واحدة كنت على وشك أن أفقد مكاني على السفينة التي ستنقلني عبر منطقة المضايق، واكتسبت نقودًا، وخسرت نقودًا كانت ستكفيني لتدبر أموري في سيروس، ومنذ أن غادرت جزيرة جيفال لم أكتشف سلاحًا قويًّا يمكنني استغلاله في ترسانتي مثل تلك المعلومة التي اكتشفتها - والتي تتمثل في معرفتي بحقيقة ماريجولد.

إذا كان ويست يدير سفينة ظِل، فهذا يعني أن هذه السفينة أخطر مكان أظهر فيه بمنطقة المضايق. لقد اخترت خيارًا خطأً في أثناء فراري من كوي باتجاه جزر الحاجز؛ كان أي تاجر سيقبل نقودي مقابل نقلي، بيد أنني ركضت نحو ماريجولد بالتحديد.

الفصل الرابع عشر

حل الصباح، واستيقظت على صوت طرقة شديدة على الباب، فجرجرت قدميَّ، وفتحت الباب بعين واحدة مفتوحة.

فشاهدت ويلا واقفة بجدائلها المسترسلة خلف ظهرها، وارتسمت على شفتيها الممتلئتين ابتسامة متكلفة. نَقّلتْ عينيها في أرجاء الغرفة وهي تتساءل: «وكيف بالضبط تدبرتِ أمر استئجار هذه الغرفة؟».

رششت الماء على وجهي عند الحوض، وضغطت براحة يدي على بشرتي الساخنة. لقد بدأت الحمى، ما أشعرني بالدوار.

راقبتني ويلا وأنا أنتعل الحذاء، قلت: «أخمن أن ويست غيّر رأيه».

فنظرت إلى السترة الموضوعة على ظهر الكرسي وهي تقول: «آها».

تبعتها عبر السلم المفضي إلى المشرب، حيث وجدت الجميع - باستثناء هاميش - ينهون بالفعل إفطارهم. في وسط المائدة كان يوجد إبريقا شاي وأطباق فخارية مثلومة ممتلئة بقطع كبيرة من الجبن وأرغفة صغيرة من الخبز الطازج. لم يرفع ويست ناظريه إليَّ، وجرت عيناه على دفاتر هاميش المفتوحة بينهما.

لم يطلب مني ويست ألا أبوح بشيء عما حدث في الليلة الماضية، لكنني لا أظن أنه أخبر ويلا بشيء. وخمنت أنها إن عرفت ما فعلناه فستستاء منا، وأنا في غنى عن اكتساب عداوتها.

جلستُ على المقعد الشاغر بجوار باج، وسكبت الشاي في كوب حتى ملأته وأنا أتفحص صفحات الدفتر بطرف عيني.

لكن هذا لا ينطلي على باج؛ أغلق الدفتر، واتكأ على المائدة محدجًا إياي بنظرات قاسية، وقال: «ظننت أننا اتفقنا على بقاء الجرّافة في السفينة».

فقال ويست وهو يرفع كوبه: «صحيح». لاح التعب والإرهاق على وجهه، وكان شعره المتموج مضمومًا خلف أذنيه. ثم ارتكز بمرفقيه على المائدة، وارتشف رشفة وهو ينظر في عينيّ، وقال: «واتفقنا أيضًا أن ننقلها عبر منطقة المضايق سالمة».

تجرعت جرعة من الشاي الساخن أحرقت حلقي. وخيّم الصمت على المائدة بينما تبادل الطاقم النظرات قبل أن يحدجوني. تورد وجهي على إثر نظرات ويست المتركزة عليَّ.

إذن كان يعلم ما حدث عند الجزر المرجانية، أو على الأقل حدس الأمر، وأرادهم أن يعرفوا ذلك.

ليس بالغريب أن يسيء تجار التصرف في غياب قائدهم، لكن هذا الطاقم كان مختلفًا، إذ كان كل فرد يعرف حده، والتنافس الذي رأيته على سفن أخرى لا يبدو أنه موجود على متن ماريجولد.

نظر ويست إلى كل فرد منهم وهو يرتشف رشفة أخرى. والطريقة التي خفضوا بها أبصارهم توضح أن الرسالة قد وصلت.

تمتم باج بشيء لم أستطع سماعه، ووضع أوستر إصبعين على ذراعه لإسكاته، ثم أنزل يده بعد أن سكت باج. كانت شفتاي لا تزالان على حافة الكوب بينما أراقب أوستر وهو يعيد يده إلى حجره. لم تكن تلك بادرة عادية بين رفيقي سفينة، لقد لمسه... برفق.

تظاهرت بأنني لم ألاحظ ذلك، ورحت أضع طبقة سميكة من الزبد على قطعة خبز، وقضمت قضمة. لعل علاقة ويست وويلا لم تكن العلاقة الوحيدة التي تتجاوز مجرد الزمالة على سفينة ماريجولد.

أكلنا في صمت حتى ترامى إلينا من بعيد دق جرس الصباح في الأرصفة البحرية إيذانًا بافتتاح منزل التاجر. وقف الطاقم في آن واحد، والكراسي تصدر صوت احتكاك وهم يزيحونها ويزررون ستراتهم، فأفرغت كوب الشاي في جوفي قبل أن أتبعهم إلى الأبواب الخشبية الثقيلة.

تصدر ويست المسير وهو يخطو بخطوات واسعة أمام البقية عبر شوارع ديرن الغارقة في الضباب. بدا شعره الأشقر أزهى في ضباب الصباح، وأطلت الخصلات المتموجة من تحت غطاء رأسه متدلية على عينيه.

لم نكن وحدنا من تحركنا إلى الطرف الشرقي من القرية، حيث تدفق الناس من كل حدب وصوب إلى منزل التاجر الذي يقع في زاوية الميناء. لم يتبدل من منظره شيء منذ آخر مرة رأيته فيها، رغم أنه لم يُسمح لي بالدخول قط، كنت فقط أنتظر في الميناء بينما اضطلع أفراد الطاقم على سفينة والدي بالمتاجرة هنالك.

خفضنا رؤوسنا لنمر من إطار الباب المنخفض، ودلفنا إلى داخل المستودع حيث كان الضوء مشوبًا بضباب. كان المكان يعج بالباعة والتجار، لكل منهم كشك خاص مشيد من بقايا الأخشاب ومِزق القماش. وقد انطلقت صفارة حادة فالتفت ويست نحو مصدرها مفتشًا في الصفوف عن هاميش. لوح لنا فقصده ويست وتبعناه عبر زحام الأجساد الدافئة إلى الجانب الآخر من الساحة الفسيحة.

غمغمت ويلا غاضبة حين مر تاجر يرتدي معطفًا مخمليًا أمامنا: «أوغاد من ذوي الدم المملح».

كان من السهل تمييز البحارة القادمين من منطقة البحر المجهول بنفس سهولة تمييز سفنهم، إذ كان شعرهم ممشطًا ومهذبًا، وجلدهم نظيفًا، وملابسهم مهندمة. بدا أنهم في رغد لم يضطرهم يومًا إلى السرقة أو الغش أو الكذب من أجل تدبر أمورهم، ولهذا اعتقد

الناس أن ذوي الدم المملح رقيقون للغاية لدرجة لا تجعل الحياة في منطقة المضايق مناسبة لهم.

رُصت جميع البضائع التي أتى بها الطاقم من ماريجولد، وانتفخت سترة هاميش عند وركيه، حيث تتدلى حافظات النقود من حزامه، ثم أعطاه ويست الدفاتر، وتبادلا بضع كلمات سريعة قبل أن نتوجه إلى الركن الجنوبي الشرقي من مقر السوق.

قبضت يد ويست على كم سترتي، وسحبني أمام الآخرين، ثم مال وهو يتكلم بصوت خفيض: «ابقي بالقرب مني».

تصايح التجار وأيديهم تلوح في الهواء، لكن ويست تجاوزهم حتى وصل إلى رجل بدا أنه ينتظرنا.

قال الرجل متبرمًا وعيناه تتنقلان بيننا حتى استقرتا على هاميش: «لقد تأخرتم يومًا».

فأجابه ويست: «هبت عاصفة فأخّرتنا»، تفحصته وهو يجيب، لم يختلج فمه وهو يكذب. لم يتأخروا عن الوصول، لم يتأخروا قط، لكننا سلكنا مسارًا بعيدًا بالذهاب إلى الجزر المرجانية.

مد ويست إحدى يديه أمامه، فسحب هاميش حافظة نقود صغيرة من سترته، ووضعها في كف ويست، فأمسك بها ويست ومدها نحو الرجل قائلًا: «مائتان وخمس وستون عملة نحاسية».

قال التاجر ووجهه جامد كصخرة: «هذا كل شيء؟».

فانحنى ويست متكئًا على الطاولة في بادرة تنم عن تأهبه للمجادلة: «مشروب التفاح المتخمر ليس رائجًا في الموانئ الأخرى كما هي الحال هنا، أنت تعلم ذلك».

فحدج الرجل هاميش، وراح يدق بخاتمه على الطاولة قائلًا: «أو أنك تضع أرباحي في جيبك». كان الخاتم مرصعًا بحجر كريم مخطط يسمى عين النمر، ويرمز لنقابة الجاودار.

صَعّد ويست بصره نحو الرجل، وفجأة بدا الصخب أعلى في أجواء المكان، ثم قال: «إن كنت لا تثق بنا لنبيع لك فعيِّن شخصًا آخر»، واستدار موليًا يشق الحشد.

تنهد الرجل قائلًا: «انتظر». وتمتم لرجل آخر يقف خلفه: «انقل صندوقين لسفينة ماريجولد». ثم قال محدثًا ويست: «لكن لا تظن أن ما فعلته في مدينة سوان خافٍ، ما زالت الشائعات تتكاثر في الأيام الثلاثة الماضية».

تجمَّد ويست، ولهنيهة سرت اختلاجة على صفحة وجهه الهادئة، ثم قال: «لست أدري ما الذي تتحدث عنه».

تبادل باج وويلا نظرات من وراء ويست، واقترب باج منه خطوة ويده على حزامه بجوار سكينه.

انحنى الرجل وقال بصوت خافت: «هنا في ديرن ثمة روح تآزر. حاول أن تفعل شيئًا من هذا القبيل هنا وسترى ما يجعلك تتمنى لو كانت شياطين البحر فتكت بك قبل هذا».

رفع ويست عينيه ببطء قائلًا: «كما قلت، لست أدري ما الذي تتحدث عنه».

ابتسم التاجر، وسحب غطاءً من الخيش للكشف عن صناديق مشروب التفاح المتخمر، وأومأ لويست بإيماءة تدل على الموافقة. عندئذٍ تحول انتباه الرجل صوب ويلا، وبدا أنه تمهل عندما لمح الحرق الذي يطل من ياقة قميصها، ثم قال: «سمعت أنك لاقيت بعض المتاعب يا ويلا».

كان وجهها جامدًا كصخرة، لكن سرت ارتجافة بسيطة في كتفيها.

مد ويست يده في بادرة واضحة لتغيير الموضوع وقال: «أسبوعان».

فصافحه الرجل قائلًا: «أسبوعان»، وانطلقنا في الممر من دون كلمة أخرى.

نظرت إلى الخلف من فوق كتفي فشاهدت عينيْ التاجر الضيقتين لا تزالان تلاحقاننا. كانت ثمة بضائع في مخزن شحن السفينة مختومة بختم سوق مدينة سوان، وهذا أعلمني أن ماريجولد كانت هناك. وأيًّا ما فعلوه هنالك فقد لحقهم إلى ديرن. وإذا كانت تلك سفينة ظل فربما ثمة أخطار خفية محدقة بها، ولا سبيل لعلمي بها.

حاولت مجاراتهم وأنا أحافظ على ثباتي حين يدفعني أحد الناس، وأحاول ألا أجعل المسافة بيني وبين ويست تزيد على خطوة واحدة، إذ لو لم أفعل ذلك لجرفني الحشد إلى الاتجاه الآخر. وقف ويست يساوم تاجرًا آخر، وشاهدت أوستر يقايض تاجر أحجار كريمة، وفي قبضته إحدى الحافظات الجلدية الحمراء التي وزعها عليهم هاميش.

ومن خلفي انخرطت ويلا في مساومة مع امرأة ضئيلة الجسم في الممر، وتلألأت في يدها أربعة أحجار كريمة بدت كأنها من نوع الجمشت، بينما على الطاولة أمامها إحدى الحافظات الجلدية الحمراء.

التقت عينا ويست بعينيْ أوستر من فوق رأسي وهو يومئ بذقنه تجاه ويلا قائلًا: «يستحسن ألا تغيب عن ناظريك».

فأومأ أوستر برأسه، واقترب منها. جال بصري في المكان، توجد نقود كثيرة هنا والمكان يعج بالناس، لن تستغرق سرقة حافظتك سوى طرفة عين، ولعل ثمة أشخاصًا في ديرن يكسبون قوتهم بهذه الطريقة داخل هذه السوق.

انطلقت يدي إلى حزامي حيث كانت العملات القليلة التي أمتلكها مطوية في الجيب الصغير الذي حِكته بنفسي. أما باج فانخرط في مراقبة ما يحيط بنا وعيناه تتقلبان في كل اتجاه، ونحن نتنقل من كشك إلى آخر. توقف ويست أمامي فجأة فاصطدمت به، حيث كان انتباهه مصوبًا على رجل يقف عند الجدار الخلفي متكئًا على إطار نافذة مدهونة.

تمتم ويست قائلًا: «ابقيا هنا»، ثم ذاب وسط الحشد. عندما وصل إلى الرجل خلع غطاء رأسه، ومرر إحدى يديه عبر شعره وهما يتحدثان همسًا.

لاحظت كيف أنهما أوليا ظهريهما إلى ساحة السوق، وسألت باج: «من ذاك؟».

لم يحر جوابًا، لكن بدا أنه ينتابه الفضول مثلي وعيناه مثبتتان على ويست.

انضمت ويلا إلينا مجددًا ومعها كيس من خطافات صيد السمك تحمله متدليًا على ظهرها، وجاء أوستر على إثرها. ثم قلبت ويلا عينيها حولنا وتساءلت: «أين هو؟».

أشار باج إلى كيس خطافات صيد السمك وسأل: «كم؟»، شاهدت الموقف وأنا أراقب باهتمام كيف خطا أمامها لحجب رؤيتها نحو النافذة؛ كان يشتتها. كان يغطي على ويست حتى إن كنت لا أعرف الباعث على ذلك. والآن بعد أن تفكرت في الأمر بدا أنهم جميعًا يحاولون التغطية على ويست وتشتيتها عنه.

سحبت ويلا قُصاصة ورقية من جيبها وأعطته إياها، ثم دست حافظتها الحمراء الفارغة في سترتها. عند ذلك فهمت ما كانوا يفعلونه، لم تكن الحافظات تحوي نقودًا، بل أحجارًا كريمة، كل حافظة تحوي القليل فقط، وكل فرد تلو آخر يتاجر بالكمية الصغيرة لتجار مختلفين.

إن مقايضة بضع قطع من أحجار البايار في جزيرة جيفال ليست كالمتاجرة الحقيقية بالأحجار الكريمة، فهذا أمر يلزمه تصريح خاص من مجلس التجارة، وخمنت أنهم لا يملكون تصريحًا. لم يكن هناك الكثيرون في منطقة المضايق يتاجرون في الأحجار الكريمة؛ لأن تجار الأحجار الكريمة الكبار في مدينة باستيان كانوا مسيطرين على هذه التجارة.

كانت الطريقة المثلى لإجراء عملية تجارة غير قانونية تتمثل في التستر تحت ستار المتاجرة في كميات كبيرة من أي شيء آخر غير الأحجار الكريمة، وتبيع بضعة أحجار هنا

وهناك لتتجنب لفت الانتباه، فالقليل من الأحجار لن يلفت الأنظار، لكنهم بدوا متمرسين، وعملهم مخطط له. على الأرجح أنهم فعلوا ذلك في كل ميناء، ولعل ثمة حافظات كثيرة مخبأة في السفينة أكثر من تلك التي وجدتها هنالك.

إن كانت تلك سفينة ظل تابعة لسينت فسيكون لديهم تصريح لتجارة الأحجارالكريمة؛ لأن سينت كان سيتدبر أمر إخراج التصريح لهم، لكنهم لا يملكون تصريحًا، وهذا يعني شيئًا واحدًا فقط - كانوا يديرون تجارة جانبية بعيدًا عن دفاتر سينت.

كانت تلك حركة عبقرية، وفي الوقت نفسه كانت حماقة عظيمة.

انطلق ويست عائدًا عبر الحشد، وعندما وصل لم ينطق بكلمة، وانتقلنا إلى الكشك التالي، حيث جلس رجل عجوز أمام صينية تحوي أحجارًا كريمة ومعادن مذابة. كان الخاتم في إصبعه مرصعًا بحجر عقيق، ما وشى بأنه كان تاجر أحجار كريمة. لم تكن النقابة تمنح هذا الخاتم أحدًا إلا بعد أن تتجاوز خبرته عشر سنوات، وحتى بعد عشر سنوات لم يكن ذلك مضمونًا. كان النقابيون متوحشين كالتجار؛ إذا قُبض على صانع أشرعة أو صانع سفن أو تاجر أحجار كريمة وهو يزاول العمل من دون أن يرتدي أحد تلك الخواتم فتلك جريمة عقوبتها الإعدام.

انعكس الضوء الساطع القادم من النافذة على الميزان البرونزي الموضوع أمام الرجل فتلألأت ثلاثة أحجار زمردية في إحدى كفتيه. أومأ الرجل برأسه تحية: «ويست»، وأردف: «أحجار بايار؟».

إذن هذا هو المكان الذي كان يقايض فيه أحجار البايار، وإن كان ظني مصيبًا بشأن خططهم فعلى الأرجح أنهم قايضوا أحجار البايار ببضعة أحجار كريمة بدلًا من النقود. هذا أحرى ألا يلفت الانتباه في الدفاتر. ولعل هذه كانت العملية الوحيدة التي يجريها مع تاجر أحجار كريمة في العلن.

سحب ويست كيسًا من سترته وأعطاه إياه، فأفرغ الرجل قطع أحجار البايار التي اقتطعتها بنفسي على القماش المطوي بعناية فوق الطاولة. ثم قال الرجل: «من أين تأتي بهذه الأحجار؟ لقد أحضرت لي على مدار الأشهر الماضية بعض أفضل أحجار البايار التي رأيتها خلال العامين المنصرمين».

ارتسمت على شفتي ابتسامة وأنا أشاهده يلتقط أكبر قطعة ويوجهها صوب الضوء.

وأردف: «إن أحضرت لي المزيد الشهر المقبل فربما أقدم لك سعرًا أفضل. يوجد صائغ هنا يستخدمها في صنع إبداعات جديدة».

فرد هاميش: «هذه آخر دفعة. لن نتوقف عند جزيرة جيفال بعد الآن».

نظرت إليه متحيرة. عندما كنت أتقايض مع ويست عند جزر الحاجز لم يقل أي شيء عن كونها آخر زيارة لجيفال، بل إنه حتى قد عرض أن يدفع لي المتبقي من المبلغ في المرة القادمة.

بجواري كان الاندهاش باديًا أيضًا على كل من ويلا وأوستر وباج. الشخص الوحيد الذي بدا أنه يعرف بالضبط ما كان يجري هو ويست، أما البقية فيبدو أن كل فرد منهم يعرف معلومات منقوصة فحسب.

وقد كان ذلك مقصودًا، فهذا شأن القبطان الجيد، هذا ما كان يفعله سينت. وعندئذٍ تساءلت عما إذا كان أيٌّ منهم على دراية بالشعار المرسوم تحت السجادة في حجيرة ويست أم كان هذا سرًّا أيضًا.

نفخ الرجل في سخط وهو يشد لحيته البيضاء ويقول: «ذلك مؤسف»، وأردف: «سأقول إن الثمن اثنتان وثلاثون عملة نحاسية».

فقلت هامسة: «ماذا؟ لقد دفعت لي عشر عملات فقط».

فرد ويست وقد تغير صوته بنبرة تشي بشيء من استمتاعه بالمكر: «نحن نتاجر من أجل الربح يا فيبل».

دس التاجر يديه في صدريته واتكأ على كرسيه، وسأل: «هل كانت تجارتك بحجر المرو رابحة في مدينة سوان؟».

فأجاب هاميش: «كانت رابحة جدًّا. بيعت الدفعة بمائة واثنتي عشرة عملة نحاسية»، ثم سلمه كيسًا آخر وسأل: «ماذا لديك مقابل أحجار البايار؟».

أومأ برأسه نحو الأحجار على كفة الميزان قائلًا: «لديّ أحجار زمرد هنا بحاجة للبيع. أحسبها ستكون رابحة أيضًا في سوان».

ملت إلى الأمام أتفحص الأحجار الكريمة في الصينية البرونزية، وقبل أن أفكر التقطت أحدها، وأمسكته في راحة يدي، ثمة شيء لا يبدو طبيعيًّا في تلك الأحجار.

سأل ويست وهو يدقق النظر إلى الأحجار: «كم ثمنها؟».

عضضت على شفتي السفلى وأنا ممسكة بالحجر بين إصبعين من أصابعي. إن الذبذبات الصادرة عن الزمرد تكون منخفضة ورقيقة، تسري كتيار لطيف، لكن هذا الحجر كان مختلفًا، رفعته إلى النور وعيناي تضيقان، بينما راح الرجل يحدجني ووجهه متجهم.

تنحنحتُ، ونظر ويست نحوي من أعلى.

كان التاجر منزعجًا وهو يتكئ على الطاولة رافعًا عينيه نحوي، قال: «ما الأمر؟».

استقرت عيناي في نقطة بين ويست والتاجر وأنا غير متأكدة من كيفية قول ذلك، ثم قلت: «إنها... إنها...»

فقال ويست بغضب وقد نفد صبره: «ماذا؟».

فهمستُ: «إنها مزيفة».

انتفض الرجل منتصبًا فاهتز كل شيء على الطاولة مصدرًا قعقعة، وقال بغضب وقد احمر وجهه وعيناه تتقدان بالشرر: «ما الذي تتهمينني به بالضبط أيتها الجرّافة؟».

رنوت إلى ويست وأنا أقول: «لا شيء، أنا...»، لكنه كان يحدق إلى حجر الزمرد بيدي، وأردفت: «لست أتهمك بأي شيء. الأمر وما فيه أن...»، وراح الرجل يحدجني بنظرات غاضبة. قلت وأنا أخطو للأمام: «أتسمح لي؟»، وأمسكت الكفة من فوق الميزان رافعة إياها باتجاه الضوء، وأملتها فتدحرجت الأحجار. ثم أشرت إلى الأحجار وقلت: «ها هي ذي. إنها ليست أحجار زمرد».

انحنى الرجل مقتربًا مني وهو يسحب من صدريته سلسلة مربوطًا في طرفها عدسة مرصعة بالياقوت الأحمر، ويضعها على إحدى عينيه، ثم قال: «إنها أحجار زمرد بالطبع».

فقلت: «لا، ليست كذلك».

ترامى من خلفي صوت باج المنخفض ينادي بنبرة غاضبة: «ويست».

أشرت إلى الخط الرقيق في وسط الحجر، وقلت: «الشوائب تلتقط الضوء، إن كان زمردًا فلن يحدث ذلك، بل سيكون بإمكانك أن ترى من خلاله. أظن أنها أحجار من نوع الفورستريت، إنها ليست ذات قيمة كبيرة، لكنها تكون شديدة الشبه بأحجار الزمرد إذا سُخنت بدرجات حرارة عالية. حتى إنها توجد مع أحجار الزمرد في الطبقة الصخرية ذاتها»، وأشرت إلى الحواف ذات القشرة البيضاء.

لقد كان مجرد اختلاف طفيف، لكن فرق السعر كبير جدًّا. إن من هيأ تلك الأحجار يتقن صنعته.

فغر الرجل فاه، وسقطت العدسة من عينه وهو يعود من انحناءته ليقف منتصبًا مرة أخرى مُسلطًا عليَّ عينيه، وتدلت العدسة من السلسلة الذهبية، وتأرجحت فوق الميزان، ثم أخذ كفة الميزان من يدي، وألقى بالأحجار على الطاولة قائلًا: «أنا... أنا أعتقد أنها مصيبة».

قلت وأنا أفرز الأحجار بسرعة: «ليست جميعها سيئة»، والتقطت خمسة أحجار فورستريت من بين أحجار الزمرد ونحيتها جانبًا.

همست ويلا ووجهها يحاذي وجهي: «عجبًا!».

زمجر الرجل وقبضته العظيمة تضرب الطاولة بقوة: «يا لأوغاد مدينة باستيان!».

فجفلت على إثر الضربة، وخطا ويست أمامي موليًا ظهره إلى وجهي، ثم أشار إلى الأحجار في صينية أخرى قائلًا: «سنأخذ أحجار الكهرمان بدلًا من تلك الأحجار. سنأخذ أيًّا ما لديك».

انتاب الرجل ارتباك وعيناه لا تزالان تنجرفان نحو الزمرد وتعودان إليَّ، لكن ويست أصبح في عجلة من أمره فجأة، وتسلم الكيس من دون تفحص الأحجار، وقادنا على الفور صوب الباب الذي دخلنا منه. شققنا الطريق عبر الحشد حتى خرجنا وتساقطت أشعة الشمس على وجهي، فملأت رئتيَّ بالهواء البارد المالح وأنا مسرورة لأنني خرجت من حرارة المستودع الخانقة.

ولكن بمجرد أن عبرنا الباب التفت ويست مواجهًا إياي وهو يقول بسخط: «ماذا تحسبين أنك فاعلة؟».

جمدت في مكاني؛ إذ كنت على وشك الاصطدام به، وتساءلت: «ماذا؟».

لكنه صرَّ بأسنانه من الحنق وعيناه مسلطتان في عينيَّ بنظرات قاسية، ثم قال: «أوستر، تأكد من وصول كل شيء إلى السفينة. باج، استعد للانطلاق بحلول الليل».

فقال أوستر: «ليس من المفترض أن نغادر حتى الصباح. ثمة إمدادات لم أحضرها بعد».

فرد ويست: «إذن أقترح أن تسرع وتحضرها».

عندئذ قلت: «ماذا فعلت؟ لست أفهم».

حدجني ويست بنظرات غاضبة ووجهه مصطبغ بحمرة الدم المتدفق إلى رقبته من تحت ياقة قميصة المفتوحة، ثم قال: «كان ينبغي أن تبقى في جزيرة جيفال».

الفصل الخامس عشر

أيًّا كان المعروف الذي حسبت أنني أسديته لويست وطاقمه للتو فقد ذهب سدى ولم يعد له أثر ألبتة. سار هو وباج أمامنا ونحن نشق طريقنا إلى الرصيف البحري حيث ترسو ماريجولد، نظرت إلى الخلف نحو مقر السوق، فالتقت عينا هاميش بعينيَّ.

قال: «انظري أمامك، لقد لفتِّ الانتباه بما يكفي».

فانفجرت ويلا قائلة بغضب وهي تسير بمحاذاتي: «إنه محق»، كانت حاشية سترتها المفتوحة تتطاير من ورائها وهي تشد الياقة قبالة تيار الرياح، ثم أردفت: «التفتِي مرة أخرى وسأحبسكِ في مخزن الشحن حتى نصل إلى سيروس».

لكنها تعثرت في خطواتها حين رفعت عينيها عني وصوبتهما باتجاه السفينة الراسية في الرصيف البحري التالي، حيث وقف هنالك رجل ذو شعر طويل داكن تتخلله خصلات فضية، ويرتدي معطفًا أسود، كان متكئًا على عمود من أعمدة الرصيف، ويبتسم إلى ويلا.

رفع صوته مناديًا وهو يلوح بيده في الهواء: «ويست!».

توقف ويست هنيهة، وتصلب جسده في حركة شد مفاجئة، فازداد انتصاب قامته قبل أن يسبقه باج نحو الرجل بخطوة، ثم قال: «زولا».

تفحصت الرجل أحاول تمييزه. تذكرت الاسم.

رمقني وابتسامته تنبسط على شفتيه متسائلًا: «متى ضممت إلى طاقمك جرّافة جيفالية؟».

انعطف ويست من الرصيف البحري الرئيسي إلى الممر الجانبي المنبثق منه، وتبعه باجا الذي اتجهت أصابعه إلى مقبض السكين في حزامه.

سحب زولا الوشاح الملفوف على وجهه، كان جلده الشاحب محمرًّا، وعيناه رماديتين متقدتين. من فوقه أطلت وجوه بحارة من سور السفينة الكبيرة المرسوم على مقدمتها شعار باللون الأبيض - عبارة عن هلال محاط بثلاثة أعواد من نبتة الجاودار. لقد عرفت هذا الشعار.

لم يكن زولا مجرد تاجر عادي. قديمًا حين كنت على سفينة أبي كان زولا المسئول عن أكبر عمليات تجارية في منطقة المضايق، ولكن في تلك الأيام كان يرتدي المعاطف الأنيقة والأحذية اللامعة التي تميز تجار منطقة البحر المجهول، أما من حيث مظهره الآن فيبدو أن الحال قد تردت به منذ ذلك الحين.

مد ويست يده إليه رغم الشد البادي على انتفاضة كتفيه تحت سترته.

فحدج زولا في يده هنيهة قبل أن يصافحه، وتساءل: «هل صادف أن تكون قد رأيت مسئول الإمدادات التابع لسفينتي؟».

أحنى ويست رأسه جانبًا بحركة تدل على التحير.

فقال زولا: «بربك يا ويست!»، وارتدت عيناه إلى ويلا التي شدت قبضتيها المكورتين على جانبيها.

فبصقت ويلا وقالت: «ألست قادرًا على تتبع تحركات طاقمك؟».

ضحك زولا قائلًا: «لا أريد منكم يا متشردي حي الساحل أن تقحموا أنفسكم في متاعب لا تستطيعون التعامل معها».

هنا أومأ ويست بذقنه نحو القرية وهو يقول: «لعل كرين ثمل في أحضان إحداهن في المشرب. أو ربما أقحم نفسه في متاعب لا يستطيع تجاوزها».

عندئذ ذابت الابتسامة من وجه زولا المحمر، ورمق ويست بنظرة طويلة قبل أن تقفز عيناه نحوي قائلًا: «هل أنت جيدة؟ نحن نبحث عن جرّافة تنضم إلى طاقمنا على سفينة لونا».

فخطا ويست خطوة جانبية جعلته بيني وبين زولا بحيث يحجب رؤيته لي، ثم قال: «إنها ليست من طاقمنا، إنها راكبة، هذا كل شيء».

لم يبدُ زولا راضيًا عن هذا الجواب، وترددت في عينيه نظرة ارتياب، لكنه على أية حال أسقطهما، ثم قال: «تبدين في خير حال يا ويلا».

ترامت ضحكات من الأعلى، وشحب وجه ويلا بجواري.

ابتسم زولا قائلًا: «أعلموني إن رأيتم كرين. تعرفون مدى صعوبة العثور على مسئول إمدادات جيد».

عند ذلك أولاه ويست ظهره من دون أن ينبس بكلمة أخرى، وأشاح زولا بعينيه عني مصوبًا إياهما نحو ويلا قبل أن يعيدهما إليّ مرة أخرى، فأحسست بنظرته تلهب ظهري ونحن نمضي قدمًا قاصدين ماريجولد. كان الحبل منشورًا على جانب السفينة، فارتقاه ويست أولًا وتبعه باج، وعندما تواريا وراء سور السفينة نظرت إلى ويلا.

سألتها وأنا أنظر في عينيها: «ماذا حدث لوجهك؟».

فردت وهي تحدجني بتجهم: «ماذا حدث لذراعك؟».

فانطلقت يدي نحو كُمي وشددته من طرفه إلى الأسفل. لقد حرصت على تغطية الندبة لكن لا بد أنها لمحتها.

ظلت تحدجني إلى أن أمسكتُ السلم، وثبتّ قدمي في الحبال لأصعد. أزاحت الرياح غطاء رأسي للخلف وأنا أرتمي على سور السفينة، حيث كان ويست واقفًا ينتظر وعيناه مثبتتان على سطح السفينة. استدار نحو الممر، وكان من الجليّ أنه يتوقع مني اتباعه إلى حجيرة القبطان.

عندما توانيت أتى صوته من وراء الباب: «تعالي إلى هنا!».

ترددت قبل أن أدفع الباب لأفتحه وأدلف. انفتح مصراعا الباب فامتلأت الحجيرة بالضوء، فشاهدته جالسًا على حرف المكتب بجوار الحجر الأبيض، ثم قال: «أغلقي الباب».

امتثلتُ وأنا أتكئ على الباب حتى سمعت نقرة دخول المزلاج في مكانه.

صعّد ناظريه فيّ متسائلًا: «ما هذا الذي حدث؟».

فتساءلت: «ماذا؟».

أجاب: «أمر الأحجار الكريمة».

هززت كتفي قائلة: «كنت أسديك خدمة. لقد كانت الأحجار مزيفة».

وقف واتجه نحوي وهو يقول: «لست بحاجة إلى أية خدمات».

وأردف: «نحن لا نقحم أنفسنا في شئون التجار الآخرين يا فيبل، مطلقًا. والآن سيذهب تاجر الأحجار الكريمة إلى الشخص الذي باع له تلك الأحجار المزيفة، وسيخبره عن الجرّافة الجيفالية التي أصحبها على سفينتي، والتي رصدت أحجار الزمرد المزيفة، الأحجار التي عجز التاجر نفسه عن اكتشاف تزييفها».

امتقع وجهي وأنا أرنو إليه عاجزة عن الكلام؛ كان محقًّا، لقد عرضت نفسي للخطر من دون أن أدرك ذلك.

نظر إليَّ من أعلى، وسأل: «كيف فعلتِها؟ كيف علمتِ أنها ليست أحجار زمرد حقيقية؟».

إن أجبته عن هذا السؤال فأنا أخاطر بكشف هويتي؛ قلة قليلة هم من يتمتعون بمهارة أمي في هذا الصدد. إن فن اكتشاف حقيقة أنواع الأحجار الكريمة شيء فطري وليس مجرد مهارة تكتسبها بالمران، إنها شيء تبذل في سبيله عمرك كله، شيء يتعذر تلقينه.

كان هذا هو السبب الذي جعل سينت يضم أمي إلى طاقمه. هذه المهارة الخاصة توارثتها عائلات قليلة، وأبقاها معظم الخبراء سرًّا بعد أن توسعت تجارة الأحجار الكريمة، وصارت ممارسة خطرة. لقد علمتني والدتي بالطريقة التي علمها بها والدها، قبل أن تغرق مع سفينة لارك.

بيد أن ثمة شيئًا يلوح في عين ويست وشى لي بأنه يعرف جواب سؤاله.

تمتم ويست: «أنت تجهلين كيف تجري الأمور. كَوني مسئولًا عنك سيودي بحياتي».

قلت: «إن التاجر لا يعرف ما بمقدوري فعله».

فرد: «لا يهم. إنه يتساءل عما إذا كان ذلك بمقدورك. وهذا يكفي».

انتابني ارتباك وحرج، وأقررت: «لم أفكر».

فقال: «نعم، لم تفكري. مثلما لم تفكري عندما تسللتِ من السفينة بعد أن أخبرتك بألا تبرحيها».

قلت: «لو لم أكن قد ذهبت إلى القرية لما تسنت لك استعادة ذاك الخنجر».

حتى أنا كنت أعلم أنه من الحماقة قول ذلك؛ إن التلميح إلى أن ويست قد احتاج إليَّ عند متجر المقايض لن يأتي من ورائه سوى إثارة غضبه.

أخرجت ثلاث عملات نحاسية من حزامي ووضعتها على المكتب بجواره، وقلت: «إليك ثمن السترة والحذاء».

نظر إلى العملات وسأل: «ماذا؟».

فأجبت: «سأدفع ثمنها كما دفعت ثمن نقلي».

قال: «لم تطلبي الحذاء والسترة. ولم أطلب منك دفع ثمنها».

فكررت على مسامعه ما قاله لي: «لست بحاجة إلى أية خدمات»، وأردفت: «ولن أدين لك بأي شيء».

تنهد وهو يفرك وجهه بيديه ويقول: «فيبل...»، لكن أيًّا يكن ما سيقوله فإنه يتروى في التفكير فيه.

تردد صدى هزيم الرعد فيّ قادمًا من الأفق، ومن النافذة المفتوحة رأيت الغيوم القاتمة تتكاثف معًا قبالة السماء الزرقاء.

قلت بصوت أكثر انخفاضًا: «ينبغي أن ننتظر. تلك العاصفة ستكون شديدة الفتك».

فقال: «ما من خيار آخر أمامنا، والفضل لك في ذلك. يجب أن أجعلك تغادرين سفينتي قبل أن تجوب الشائعات تلك الأرصفة، وتلحقنا في مدينة سيروس».

أحنيت رأسي جانبًا وقلت: «مثل الشائعات التي لحقتك إلى هنا قادمة من مدينة سوان؟ لا تريد أن تجذب الانتباه أكثر مما ينبغي، أليس كذلك؟ فأنت لا تعدو أن تكون صاحب تجارة صغيرة لا شأن لها في السوق».

جعله كلامي يرفع ناظريه، ويعتصر حرف المكتب بقبضتيه، ثم قال: «أنت تهرفين بما لا تعرفين».

فهززت كتفي قائلة: «ربما أنت محق»، وأردفت: «صدقني، أرغب في مغادرة هذه السفينة بدرجة لا تقل عن رغبتك في مغادرتي إياها».

انتصب وخطا خطوة نحوي وهو يقول: «أنا أعرف من الذي تبحثين عنه».

شبكت أصابع إحدى يديَّ بأصابع اليد الأخرى وراء ظهري وقلت: «ثم؟».

رق صوته وفجأة بدا الإرهاق على وجهه وهو يقول: «تريدين أن تبدئي من جديد في سيروس؟ لا بأس، لكن سينت خطير. أيًّا يكن ما تريدينه منه فلن تناليه».

رفعت عينيَّ، وحدقت إلى وجهه وأنا أحاول ربط خيوط المعلومات القليلة التي في جعبتي. كان ويست مشردًا من حي الساحل، وصار قبطان سفينة ظل تابعة لأبي، لكن ما دام يدير تجارة جانبية فهذا يعني أن ولاءه لنفسه ولطاقمه، وإلا ما كان ليجازف بإثارة سخط سينت. حتى إن كان الأمر غير ذي صلة بي إلا أن الفضول ينتابني، ولا أزال راغبة في معرفة ما يجري.

وضعت طرف حذائي على طرف السجادة وسحبتها للخلف لتكشف عن شعار سينت المرسوم على الأرضية، وقلت: «يبدو أنك قد نلت ما أردت منه».

نظر ويست إلى الشعار من دون أن تلوح على وجهة أية بادرة تنم عن أنه تفاجأ.

سألته: «كم عدد السفن مثل هذه السفينة؟».

سلط عينيه في عيني، وجثم صمت طويل غير مريح، وأحسست كأن الحجيرة تضيق، ولوهلة أسفت على قول ذلك. لم أود كسب عداوة ويست. فتحت فمي لأتحدث لكن ترامى إلى أذني صوت طرقة على الباب قبل أن ينفتح.

اندس وجه هاميش في الحجيرة قائلًا: «عاد أوستر».

فنظر إليه ويست وتبعه من دون أن يلتفت إليّ، وارتفع صوته عند المدخل المقوس مناديًا: «استعدوا!».

سمعت أطيط الأحذية على سطح السفينة، ورأيت أوستر عند السور، ثم قفز باج من قاعدة الشراع فهبط على الأرضية بقوة، واتجه إلى الحبال.

دوى صوت ويست مرة أخرى: «ارفعوا المرساة!»، وتحرك الجميع في آنٍ واحد بنمط يحفظونه عن ظهر قلب.

تعاونت ويلا مع هاميش في لف ذراع التدوير على الجانب الأيمن من السفينة لرفع المرساة، وند عنهما أصوات همهمة مع ارتفاع المرساة من الماء. كانت الأعشاب البحرية تتدلى من منحنياتها، والماء يتقاطر منها في أثناء ارتفاعها حتى ارتفعت عن السور، وارتقت سطح السفينة، فأمسكتُ بطرف المرساة وهما ينزلانها في مكانها وثبتّها بالقفل من دون أن يطلب أحد مني ذلك. إن لم يكن ويست ليقبل ثمن السترة والحذاء فيتعين عليّ أن أعمل لتسديد هذا الثمن بما أبذله من جهد قبل أن نصل إلى سيروس.

تسلم ويست الدفة والتفت السفينة مبتعدة عن الرصيف المائي، نادى: «هيا، انشري الشراع الرئيسي يا ويلا».

فتسلقت ويلا الصاري الرئيسي، ووصلت إلى أعلاه لتحل الحبال قبل أن تنزلق إلى الأسفل مرة أخرى مع انبساط الشراع، وراحت ترنو إلى وميض البرق وراء الغيوم في الأفق، ثم سألته: «هل أنت متأكد من الإبحار في ظل تلك العاصفة يا ويست؟».

أطبق ويست فكيه بشدة وهو ينظر إلى حذائه مفكرًا قبل أن تلقي الرياح خصلات من شعره الذهبي على جبينه وهو يرفع يده في الهواء فتخللت الرياح أصابعه، وقال: «هل تودين الانتظار حقًّا؟».

فنظرت صوب الميناء، واستقر بصرها على سفينة زولا - لونا. ثم أجابت: «لا».

«لنمضِ إذن».

تسلقتُ الصاري الرئيسي بينما تسلقث ويلا الصاري الأمامي، ساعدتها في تولي أمر الأشرعة، وانتهى هاميش من ربط المرساة الثانية على السطح. ثم سحبت الحبال جذبة وراء أخرى وأنا أشاهد الأشرعة تنبسط في السماء المكتسية باللون الرمادي، وحين صارت الأشرعة في مكانها قفزت إلى أسفل لمساعدة الآخرين.

لا تزال عينا ويست مصوبتين نحو الأفق.

كان يعلم كيف يقيم الوضع بالنظر إلى الغيوم وسطح البحر، ويحسب
قوة سحب الرياح. لا بد أن يفعل ذلك أي قبطان جيد. كان بإمكانه ملاحظة ما ألاحظه - سوف تضربنا العاصفة بسرعة، وستشملنا في ظلمتها، وتتسبب في اضطراب المياه وتلاطمها بشدة ما يجبر السفينة على الاقتراب من الشاطئ أكثر مما ينبغي. ومع ذلك فلن تستمر هذه العاصفة وقتًا طويلًا، وماريجولد سفينة صغيرة، إذا دخلت في مياه عميقة بدرجة كافية فلن تدفعها الرياح الجنوبية الغربية لمسافة بعيدة جدًّا.

وبمجرد أن فكرت في ذلك أمال ويست الدفة معدلًا الوجهة قليلًا.

هبط أوستر إلى الرصيف ليفك حبال التثبيت، وحالما تشبث في السلم كنا ننجرف في القناة المائية. تلقفت الرياح الأشرعة، ودفعتنا إلى الخارج بسرعة، وأخذ باج مكانه بجوار ويست.

تساءلت وأنا أرنو إلى الساحل الذي يبتعد عنا: «كم سنستغرق حتى نصل؟».

أجاب باج: «يومان».

لففت ذراعي حول حبال الصاري المثبتة في سطح السفينة، واتكأت عليها حتى انحنت بي، وأغضمت عينيّ مع اشتداد الرياح. أحسست بدبيب نظرات عين أحدهم تجري على جلدي،

فالتفتُّ صوب القرية، حيث شاهدت شخصًا يقف عند نهاية الرصيف البحري، كان ذلك زولا بمعطفه الأسود الذي تتطاير حاشيته بفعل الرياح، راح يلاحقنا بنظراته، ونحن نوغل في البحر.

الفصل السادس عشر

أوغلنا في المياه العميقة، وساد الصمت على متن ماريجولد؛ إذ انشغل الجميع بتأمين المخزون الجديد القادم للتو من ديرن في الطابق السفلي من السفينة قبل أن تضربنا رياح العاصفة.

انكب هاميش وويست على الدفاتر على ضوء مصباح، في حين عمل أوستر وباج على فرز الصناديق والبراميل، وتنظيم ما سيتم إنزاله في مدينة سيروس، وما سيُنقل إلى مدينة سوان.

كانت ويلا عند قمة الصاري الرئيسي متكئة وسط الحبال تراقب العاصفة التي تزحف نحونا. تسلقتُ الصاري وعثرت لنفسي على مكان للجلوس بجوارها، وتدلت قدماي الحافيتان في الهواء وأنا أشاهد البرق يومض في الأفق في عروق متشابكة كجذور الأشجار. ومن هذا الارتفاع بدا الأمر كأننا نبحر عبر السحب، إذ كان الضباب الكثيف يكتنف السفينة، ويحجب الماء عن رؤيتنا.

قالت بهدوء: «يبدو أنها قد تكون عاصفة سيئة».

لكن بالنظر إلى مشهد السماء كلانا يعرف ما هو قادم، ستكون عاصفة عنيفة، لكنها ستمضي سريعًا. قلت: «أظن ذلك».

لبثت ويلا صامتة لوقت طويل قبل أن تتكلم مرة أخرى، قالت: «أين تعلمت ذلك؟ التدقيق في الأحجار الكريمة».

استندت إلى الصاري وأنا أحاول استشفاف ما تريده، حيث بدت فضولية حقًّا. قلت: «أنا جرّافة».

فقالت: «لم أر قط جرّافة ترصد زيف الأحجار الكريمة هكذا».

هززت كتفي قائلة: «الأمر وما فيه أني أجيد التعامل مع الأحجار الكريمة».

فضحكتْ واستسلمتْ، وقالت: «لو كنت مكانك لاحتفظت بهذه المهارة لنفسي».

ابتسمتُ وقلت: «هذا ما قاله ويست».

التقطت الحبل من تحتها بطرف إصبعها وتساءلت: «كيف انتهى بك المطاف هنالك؟ على جزيرة جيفال؟».

جاش الألم في وسط صدري، وسألتها: «ماذا تعنين؟».

فرفعت أحد حاجبيها.

ثم قالت: «لست أدري. كيف ينتهي المطاف بنا جميعًا إلى حيث نحن؟».

برقت صاعقة أخرى فأضاءت السماء الملبدة بالسواد، كانت أقرب إلينا هذه المرة بعض الشيء. قالت بهدوء: «أيًّا كان ما تعين عليك فعله للنجاة هنالك، فسيكون الأمر أسوأ في منطقة المضايق، سيكون أشد صعوبة».

قلت: «أعلم هذا».

فتنهدت: «لا أظن ذلك».

فعقبتُ: «تظنين أنه كان يتعين عليَّ البقاء في جيفال».

فقالت: «لا أعرف، لكنك ستكتشفين الأمر عما قريب».

دوى صوت ضربة قوية في أسفلنا، فاعتدلت ويلا وهي تشبك ذراعها في الحبال كي تتمكن من الانحناء إلى الأمام لتنظر. كان ويست يقف عند قاعدة الصاري الرئيسي ويرنو إليها، ويده تقبض على إزميل طويل، ومن خلفه حمل باج وأوستر صندوقًا كبيرًا من مؤخرة سطح السفينة.

حالما رأت ويلا وجه ويست وقفت على ذراع الصاري وهتفت: «ما الخطب؟».

بيد أنه لم يحر جوابًا، ولبث يرنو إليها هنيهة أخرى وهما يضعان الصندوق خلفه.

انحنيت للأمام أحاول أن أرى وتساءلت: «ماذا يفعل؟».

ونظرنا من أعلى وهو يثبت طرف الإزميل أسفل حافة الغطاء وينزعه لأعلى، ففرقع الخشب، وأزاحت ويلا خصلات الشعر من فوق وجهها وعيناها مثبتتان على الصندوق. فك ويست الطرف الآخر من الغطاء، وألقى الإزميل فأحدث صوت خبطة قوية على سطح السفينة، وراح يسحب الغطاء في اتجاهه.

شهقت ويلا، وكادت تفقد توازنها بين الحبال وهي تضغط بيدها على فمها المفتوح.

في الأسفل سقط ضوء القمر الأبيض الناصع على الصندوق المفتوح الذي حوى رجلًا راح يحدق نحونا بعينين واسعتين من مخدعه المصنوع من قش موحل.

عندئذ همست قائلة: «تبًا...»

لكن ويلا انطلقت هابطة حتى كادت تنزلق من الصاري وهي تحاول العثور على الأوتاد في عمود الصاري في الظلام، وتبعتها ووقفت بجوارها على سطح السفينة، حيث اجتاح الشد جميع عضلاتها، واغرورقت عيناها فالتمعت بوميض عبرات تترقرق في مقلتيها.

ند عن الرجل صوت خوار وهو يتلوى في الصندوق المطروح أمامنا، وأخذ يحاول التملص من الحبال الملفوفة بإحكام حول معصميه وكاحليه. كان فمه محشوًا بقطعة قماش مغطاة

بالقطران، ما كتم صوته في حلقه الموشوم بوشم شعار زولا - هلال محاط بأعواد من نبتة الجاودار.

كان هذا هو الرجل الذي يبحث عنه زولا، واسمه كرين، لا بد أنه هو.

غطت ويلا وجهها وهي تذرف الدموع قبل أن ترنو إلى ويست أخيرًا وخداها مبتلان. وقف البقية ملتزمين الصمت كأنهم ينتظرون منها أن تنطق بشيء، وسكن البحر من حولنا، ذلك السكون الذي يسبق العاصفة مباشرة يصحبه صمت رهيب، وراح الرجل ينظر إلى ويلا بنظرات توسل.

استنشقت نفسًا عميقًا، وأرخت يديها قبل أن تتحرك حركة سريعة ساحبة القدوم من حزامها. أمسك أوستر وباج بالغطاء وأعاداه إلى مكانه فاختفت صرخات الرجل المكتومة، قبل أن تأخذ ويلا مسمارًا من الحقيبة في حزامها.

عندئذ همستُ متساءلة: «ماذا تفعلين؟».

لكنني كنت أعرف بالفعل.

لقد وضعت المسمار عند ركن الصندوق، وطرقته برأس القدوم فانغرز في الخشب بضربة واحدة، ثم سحبت مسمارًا آخر. وفعلتْ ذلك عند كل ركن من أركان الصندوق، وحين انتهت أمسك كل من ويست وهاميش وباج وأوستر بجانب من جوانب الصندوق، ورفعوه عن السطح كأنهم يحملون نعشًا.

ارتسمت شفتاي بنطق كلمة: «لا»، لكن لم يند عني صوت. ثم قلت: «ويست، لا يمكن أن...»

بيد أنه لم يكن يصغي، لا هو ولا أي واحد منهم.

صرخ الرجل مرة أخرى مع رفع الصندوق فوق سور السفينة، وفي الحال أفلتت أصابعهم الصندوق تاركين إياه للسقوط، فسقط في الهواء قبل أن يرتطم بالمياه المظلمة بالأسفل،

وركضت نحو السور أحملق إلى الصندوق من أعلى وهو يغرق في السواد.

زحف الارتجاف من يديَّ إلى ذراعيَّ، فضممتهما كأني أعانق نفسي وقبضتاي تعتصران قماش قميصي. وعندما التفتُّ إلى الآخرين رأيت أصابع ويلا تتلمس أثر الحرق الممتد على خدها، وعيناها تحملقان بنظرات فارغة.

خمنتُ أن زولا له علاقة بالحرق على وجهها. لقد علمت أن لكل فعل رد فعل في منطقة المضايق، وقد رأيت عدة مرات أحكامًا مثل هذه تنفذ على متن سفينة أبي. ذات مرة تسللت إلى سطح السفينة في جوف الليل، ورأيته يبتر يد لص بالسكين ذاتها التي استخدمها لتقطيع قطعة اللحم التي تناولها في عشائه، بيد أنني نسيت تلك الأجواء، نسيت كيف يكون صوت صراخ رجل بالغ.

هذا ما كان ويست يفعله في مقر السوق، ذاك الرجل الذي حادثه كان على الأرجح ينفذ أمرًا بالعثور على الرجل الذي آذى ويلا. كان هذا ما يقصده حين أخبرها بأنه سيهتم بالأمر عند متجر المقايض.

سارت ويلا وتوقفت أمام ويست، ثم شبت لتقبيله على خده مع استمرار انهمار المزيد من الدموع على وجهها، لم تكن تلك قبلة عشاق، ولكن النظرات التي تبادلاها تشي بوجود مائة سر ومائة قصة.

انسلت يده إلى ظهره، وسحب خنجرها حاملًا إياه بينهما، فمسحت دموعها بظهر ذراعها قبل أن تأخذه، ثم راحت تقلبه في ضوء القمر فتلألأت الأحجار الكريمة.

قالت: «شكرًا».

وساد الصمت في حين عادت الرياح تهب مرة أخرى، ورنا إليها ويست وهي تضع الخنجر في حزامها. أما أنا فوقفتُ عند السور، واجتاحت البرودة جسدي. أسفلنا كان ثمة رجل

يغرق في الأعماق، بيد أن ويلا راحت تربط شعرها البرونزي المسترسل برباط من الجلد، كأنهم لم يرتكبوا جريمة قتل للتو، ولا أن فحيح الموت لا يزال يتردد في السفينة.

هكذا هي الحياة في منطقة المضايق. وللمرة الأولى رأيت أن سينت ربما كان محقًّا.

لست من طينة تناسب هذا العالم يا فيبل.

هبت ريح مزمجرة فوق الجانب الأيمن من السفينة، فدبت ارتجافة في جسدي، ورفعت عينيّ فرأيت البرق قد صار فوقنا.

صاح ويست وهو يرتقي العتبات: «أمنوا سطح السفينة!».

وعاد الجميع إلى العمل. تسلقت ويلا الصاري الرئيسي، وسارع باج وأوستر لإتمام مهمة ربط الحمولة في المخزن وتثبيتها. بحثت عن شيء لأفعله، أي مهمة من شأنها أن تشغل ذهني وتصرف عنه مشهد الصندوق الغارق. هبطت بسرعة على عتبات سلم الممر، وأغلقت صناديق الأمتعة في الحجرة، وتفحصت الأبواب.

وعندما عدت وارتقيت العتبات لم ينظر ويست نحوي، ولبث واقفًا في مكانه تحت البرق الوامض، لكن كان بوسعه الشعور بوجودي، بدا ذلك في الالتفاتة البسيطة التي التفتها، ونطاق رؤيته يشمل الموضع الذي وقفت فيه على سطح السفينة. لعله خجل مما اقترفه، أو خجل من عدم شعوره بالخجل. لعله تخيل أنني رأيته وحشًا، وهذا حقيقي فعلًا.

نظرت إلى الأعلى صوب وميض البرق الساطع.

نظر ويست صوبه أيضًا، جميعنا نظرنا صوبه. والآن ستجعلنا هذه العاصفة ندفع الثمن.

الفصل السابع عشر

حاولت ألا أنظر إلى العاصفة.

ثبتُّ عينيَّ على الحبال متجاهلة هزيم الريح وتلاطم الأمواج، ولكن حين سرت البرودة الشديدة مع الريح تسارع خفقان قلبي، وهطل المطر البارد من السماء فغمر سطح السفينة بالماء الذي فاض متدفقًا على العتبات المفضية إلى الممر.

رفعت عيني صوب الأشرعة التي تفرقع بفعل الريح، وابتلعت ريقي بصعوبة وأنا مطأطئة رأسي.

نادى باج وهو على الصاري الرئيسي مشبكًا ذراعه في الحبال ومائلًا للخارج كي ينظر إلى الوراء: «ويست!».

كان يراقب الغيوم التي بدت كأنها عمود دخان أسود متصاعد وحوافه تتلوى بالأسفل. زفرت زفيرًا طويلًا وأنا أنتظر ويست ليصدر أمرًا قبل أن أتحرك مقدار أنملة. في أية لحظة سيحدد ماهية هذه العاصفة ويصدر أوامر التعامل معها.

سمعت صوت ويست الغارق وسط دوي هزيم الرعد: «اطووا شراع الصاري الأمامي».

لم أنتظر قدوم أوستر من مؤخرة السفينة، فبادرت بتسلق الصاري الأمامي، ووصلت إلى الحبال مع أول لطمة شديدة من لطمات الريح للسفينة؛ مالت ماريجولد وانزلقت إحدى قدمي من الوتد المثبت في الصاري، فتدليت من أعلى الصارى على ارتفاع تسعة أمتار من سطح السفينة.

وعلى مرمى البصر وقف ويست أمام الدفة يحاول تثبيت نفسه في مواجهة المياه.

حبست أنفاسي، وركلت بقدمي في الهواء مع ازدياد ميلان السفينة، فشاهدت البحر المصطبغ بالزرقة القاتمة أسفل مني. عندما رآني ويست اتسعت عيناه، وتحركت شفتاه بكلمات لم أسمعها، إذ ضاعت وسط زمجرة الريح.

سحبت نفسي وشبكت إحدى ذراعيّ بالحبال مع انعدال السفينة، ما أدى إلى ارتطامي بالصاري، وبمجرد أن عثرت قدماي على الأوتاد مددت يدي نحو الحبال المربوطة بإحكام. وجعلت أعبث بأصابعي في العُقد المبللة أحاول فكها حتى انكشط الجلد عند مفاصل أصابعي، لكنها كانت محكمة الوثاق.

اتجهت نحونا موجة شديدة أخرى من الريح يسري طرفها على الماء فيثقبه، فاندفعت أشد الحبل وأنا أكيل اللعنات، ومع الشدة الثانية حُلت العقدة أخيرًا، وانتفض الحبل المفكوك للأمام ساحبًا إياي من الصاري. تشبثت به وتأرجحت في الهواء، وانطوى الشراع لأعلى مع هبوطي لأسفل، واصطدمت بسطح السفينة بقوة. ثم انفلت الحبل من بين أصابعي كاشطًا جلد راحتيّ فانبسط الشراع مرة أخرى.

صاح ويست بصوت يكافح وسط صخب الماء: «باج!»، وعندئذٍ لطمتنا موجة الريح، ومالت السفينة مرة أخرى، فانزلق أوستر عبر السطح.

صاح باج: «تسلمتها!» وأخذ مكانه عند الدفة موجهًا إيانا نحو الشمال بعيدًا عن الساحل. لقد كنا نندفع بالفعل نحو المياه الضحلة.

ركض ويست إلى الصاري الرئيسي هاتفًا: «افتحوا الأشرعة الخاصة بالعواصف الآن!».

نظرت لأعلى، كان يعلم أن الأشرعة الخاصة بالعواصف قد تكون خيارًا خطأ الآن. في غضون بضع دقائق قد نحتاج إلى بسط أشرعتنا كلها ونجرب حظنا مع الأمواج، لكن بحلول ذلك الوقت ستكون ممتلئة جدًّا بالهواء بحيث يتعذر طيها.

تسلقت ويلا وأوستر على الصواري ببراعة، وفتحا الأشرعة الخاصة بالعواصف، ما دفع السفينة بحركة مفاجئة إلى الأمام. وقد جرفتني المياه المتدفقة من تحتي باتجاه سور السفينة الأيسر، فأمسكني ويست حين حاذيته، وتشبثت يداه بمعصمي وجذبني مرة أخرى فأنهضني.

ثم دفعني نحو المدخل المقوس للممر، وصاح: «انزلي في الطابق السفلي».

من فوق مؤخرة السفينة شاهدت الغيوم تنطلق فوق البحر باتجاهنا، متعطشة للفتك.

أغمضت عينيّ، وملأت صدري بالهواء الرطب. لقد قضيت طفولتي في مواجهة عواصف على هذه الشاكلة، وكثير منها كانت أشد فتكًا من هذه العاصفة، ولهذا لم يكن يبحر في منطقة المضايق سوى التجار الأشد جرأة. ورغم أنني قد أحسست بوطأة العاصفة على كل عظمة من عظامي وكل عضلة من عضلاتي، فإن قوة هذه العاصفة قد أيقظت شيئًا في أعماقي كان في سبات. كان الوضع مرعبًا لكنه مألوف، وقد كان جميلًا بقدر ما كان فاتكًا.

خيم الصمت على السفينة مقدار شهيق وزفير، والجميع ينظر إلى العاصفة. توجهت كل الأنظار إلى ويست الذي وقف عند صدر السفينة وعيناه مصوبتان إلى الأمام، بينما هُرعت الريح المزمجرة باتجاهنا.

صاح ويست: «تشبثوا!»، فهُرع كل امرئ بحثًا عن أقرب شيء ثابت للتشبث به.

ألقيت بنفسي نحو أقرب مربط حديدي، وطوقت السور بذراعيّ قبل أن تميل السفينة. أفلتت الصناديق الموجودة في الممر الجانبي المفتوح، وانزلقت في المياه، وتفتتت إلى قطع عند ارتطامها بالأمواج المتلاطمة، ثم لاح خيال باهت للساحل باتجاه الغرب، كنا قريبين من الساحل جدًّا، قريبين جدًّا جدًّا.

صاح أوستر من الأعلى حيث كان لا يزال متشبثًا بالصاري الأمامي، مالت السفينة قبل أن تنعدل بحركة فجائية سريعة، فطاح أوستر نحو البحر مرفرفًا في الجو بذراعيه وساقيه.

عندئذٍ مزقت صرخة باج الرياح العاتية وهو يراه: «لا!»، وشاهدنا جميعًا أوستر وهو يرتطم بالمياه ويختفي.

ولم يتردد باج، ولا تلكأ طرفة عين حتى، إذ هُرع على الفور ممسكًا بطرف الحبل الملقى على سطح السفينة.

هتف ويست وهو يركض نحوه: «لا تفعل!».

ولكن الأوان قد فات، اندفع باج ناحية السور وقفز. انزلق ويست على الماء الذي يغرق سطح السفينة ممسكًا بالحبل قبل أن يسقط في البحر، وجثوت خلفه لأدعمه في مقابل وزن باج الذي يسحب الطرف الآخر من الحبل، ثم نظر ويست من فوق السور باحثًا في المياه.

جثم على السفينة صمت سقيم ثقيل، وهدأت الريح لوهلة، وضغطتُ أجفاني إلى أن هتف ويست: «ها هما! اسحبوا!».

لم أتبين شيئًا، لكنني أحنيت جذعي كله إلى الوراء، وسحبت الحبال خلفه، وكفي يتمزق من احتكاك الحبل في أثناء السحب. وفجأة ظهرت يد على السور، صرخت وأنا أسحب بكل قوتي، وأطل رأس باج وفمه مفتوح على مصراعيه يبتلع الهواء. تعاونت ويلا وهاميش في رفعه، وعندما حط على السطح كان قابضًا على أوستر بذراعيه، وراح أوستر يتقيأ مياه البحر.

بدا التأثر على محيا باج، وبكى وهو يدفن وجهه في شعر أوستر المبلل، كان ممسكًا إياه بقوة لدرجة أن أصابعه بدت كأنها ستمزق قميص أوستر.

قال أوستر بصوت لا يخلو من اختناق: «أيها الوغد الغبي!».

لكن سرعان ما انقطعت اللحظة على صوت دوي ارتطام معدن تردد صداه عبر السفينة.

انحنى هاميش على الجانب الأيمن ناظرًا إلى الأسفل وهتف: «المرساة!».

لقد انفكت من مكانها، وسقطت في الماء، وانشد حبلها بقوة. غمغم ويست بلعنات وهو يتقدم نحو الدفة، ويقودنا إلى الريح، ثم صارت العاصفة فوق رؤوسنا تقريبًا الآن، ولم يكن ثمة شيء بأيدينا سوى أن نستسلم لضربة العاصفة، ونأمل ألا تجرفنا لمياه ضحلة.

رفع ويست يده ومدها نحوي قائلًا: «انزلي إلى الطابق السفلي. الآن!».

تزايد ارتفاع الأمواج وهطول الأمطار فتدفق الماء بغزارة إلى السفينة، ثم تطايرت القطرات بشكل جانبي، وانتثرت على وجهي كأنها شظايا زجاج، وهززت رأسي مفتشة عن ويلا على سطح السفينة.

أمسك ويست وجهي بيديه، ونظر في عيني قائلًا: «انزلي إلى الطابق السفلي وإلا فسأنزلك عند أول جزيرة تقابلنا، ويمكنك السباحة من هنالك إلى سيروس!».

أضاء البرق وجهه فشاهدت نظرته عنيفة كالرعد، ثم بدا أن الخوف يشتمله، وملمس يديه على بشرتي جعل القشعريرة تدب في جسمي. ثمة شيء ذو مغزى يلوح في نظرته إليّ، شيء حقيقي ينقض عُرى شبكة الأكاذيب المنسوجة بيننا.

من ورائنا كانت العاصفة على وشك لطمنا بأشد قوتها. كانت العاصفة قوية لكن ماريجولد ستكون بخير طالما أنها لم تصطدم بالشعاب المرجانية، طالما أنها لم...

صاح مرة أخرى: «فيبل!».

ومالت السفينة، وأفلتتني يده، فطحتُ عبر سطح السفينة نحو المدخل المقوس. تشبثت بالعمود، وأرجحت نفسي صوب العتبات مع دفعة مياه متدفقة، فارتطم ظهري على الأرضية داخل الممر، ورأيت ويلا في فتحة المدخل قبل أن تصفق الباب بقوة تاركة إياي في الظلام.

تحركت بترنح وقدمايّ تخوضان بركلات قوية في المياه المتزايدة، ثم ندت أصوات صرير في السفينة من حولي وأنا أنزوي على نفسي في ركن الحجيرة، إذ لففت ذراعيَّ حول ركبتيَّ وجذبتها إلى صدري. تلاشى الصوت المكتوم لصرخات الطاقم وكذلك صوت أطيط الأحذية وسط هدير العاصفة التي تعتصر السفينة، وتبدد آخر شعاع ضوء متسلل من بين شقوق الألواح.

إنها تقول شيئًا.

خطرت لي كلمات أمي، هنالك في العتمة.

أغمضت عينيَّ، فلاح لي وجهها واضحًا تمام الوضوح. جديلة طويلة حمراء داكنة متدلية على كتفها، وعيناها المصطبغتان بلون رمادي شاحب كضباب الصباح، وقلادة تنين البحر التي تطوق رقبتها، وهي واقفة ترنو إلى الغيوم من فوقنا. لقد أحبت إيزولد العواصف.

في تلك الليلة دق الجرس، وهُرع والدي إليَّ ساحبًا إياي من أرجوحتي الشبكية وعيناه غائمتان يلوح فيهما الاضطراب. ثم حين وضعني في الزورق صرخت باسم والدتي حتى احتقن حلقي. كانت سفينة لارك نصف غارقة بالفعل ويبتلعها الماء من خلفنا.

كانت أمي تصف تلك اللحظة من العواصف بأنها لحظة ملامسة روح العاصفة، حين تكتفنا العاصفة هكذا كانت تأخذنا إلى قلبها وتسمح لنا برؤية جوهرها، كانت العاصفة تقول شيئًا، وعندئذ فقط تتسنى لنا معرفة ما يكمن بداخلها.

عندئذٍ فقط تتسنى لنا معرفة كنهها.

الفصل الثامن عشر

إنها تقول شيئًا. لم أفتح عينيّ حتى شق الظلام أول شعاع من ضوء الشمس ساقطًا على المياه الخضراء المحبوسة في الحجيرة. مرت العاصفة فوق ماريجولد بسرعة، لكن الريح ظلت تتقاذف السفينة لساعات. لم ننقلب ولم ننجرف إلى مياه ضحلة، وقد كان هذا غاية ما يرجوه أي طاقم.

ترددت أصوات مبحوحة في الخارج، بيد أنني لبثت منزوية في الظلام لبضع دقائق أخرى، ثم غمرت المياه محيطي حاملة محتويات الصناديق المنقلبة كأنها زوارق صغيرة في أرجاء الحجيرة. وشاهدت على سطح المياه علبة صغيرة تحوي نبتة البوصير، وريشة، وزجاجة جاودار فارغة مليئة بالفلين. سيستغرق الأمر أيامًا كي نخرج كل هذه المياه من بدن السفينة، وسيتفاقم سوء الرائحة الحمضية خلال تلك الفترة.

إن الإبحار في منطقة المضايق يعني مواجهة العواصف. ذات مرة سألت سينت عما إذا كان الخوف يراوده حين تزحف الغيوم القاتمة صوب لارك، لقد كان رجلًا ضخمًا يقف شامخًا فوقي ممسكًا بالدفة، وحين نظر نحوي كان وجهه يطل عليّ من وراء ستارة الدخان الأبيض المنبعث من غليونه.

أجابني: لقد شهدت ما هو أفظع من العواصف يا فاي.

قبل جزيرة جيفال لم أعرف لي موطنًا سوى سفينة لارك، ولكن قبل ولادتي فقد سينت أربع سفن أخرى جراء غضبة شياطين البحر. وفي صغري كانت تلك الخاطرة تثير الدموع في مقلتيّ، وأنا أتخيل تلك السفن المهيبة الجميلة حبيسة في الأعماق الباردة. أول مرة رأيت فيها سفينة تغرق كانت في بحر شرك العواصف، كانت تلك سفينة لارك وبداخلها أمي.

أنهضت نفسي ببطء، وكل عضلة وعظمة في جسمي تؤلمني. كانت هناك دماء جافة متقشرة على يدي، ودب الوخز في كفيّ جراء تمزق الجلد من احتكاك الحبال. ضربت الباب بقبضتي فانفتح وداعبت أشعة الشمس وجهي، وشاهدت هاميش مقرفصًا فوق العتبة العليا، في حين راحت عيناي تتكيفان مع سطوع الضوء رويدًا رويدًا. عادة ما كان يمشط شعره إلى الخلف، أما الآن فهو ملقى على جبينه، وعدسات نظارته يعلوها الضباب. من خلفه لمحت ألسنة بخار على سطح السفينة كأنها تتصاعد من قدر ماء مغلي، وذلك بفعل حرارة أشعة فترة الضحى المتساقطة على السطح الرطب.

أومأ باج بذقنه نحوي مبتسمًا ابتسامة متكلفة وهو يقول: «يبدو أن تعويذة شؤمنا قد نجت».

ارتقيت العتبات وحذائي مثقل بالماء، وأحاط بنا البحر من كل صوب، هادئًا وساكنًا بلون أزرق عميق صاف.

وقف ويست عند الجانب الأيسر من السفينة، وثمة حبل على ظهره. وكان هناك جرح غائر في ساعده، وجرح آخر في صدغه، وانحدرت على جانب وجهه خطوط من الدم الجاف.

أطللت من فوق السور فرأيت ويلا جالسة في حمالتها قبالة الجانب الخارجي من السفينة، وأسنانها مطبقة على نصل السكين، ثم ارتكزت بقدميها على الهيكل، وعكفت على رأب التصدعات التي خلفتها المرابط الحديدية المقلقلة التي كانت تمسك بالمرساة.

سحبت القدوم من حزامها، ودقت قطعة خشبية مخروطية في كل ثقب. سيحول هذا دون دخول الماء إلى بدن السفينة حتى نصل إلى سيروس، ولكن حين ترسو السفينة هنالك يوجد المزيد من العمل الذي يتعين فعله.

كان أوستر معلقًا بجوارها يحاول سحب الحبل المربوط بالمرساة المفكوكة، لكن الحبل لم يتحرك. راقبه باج من فوق السور وعضلات فكه مشدودة، وتذكرت كيف قفز خلفه إلى

المياه القاتمة، وكيف أمسك بأوستر بين ذراعيه والاضطراب يرتع في وجهه الذي دفنه في شعر أوستر وهو ينفجر بالبكاء. لقد كنت محقة بشأنهما، كان ذلك جليًّا للغاية في تلك اللحظة التي رفعناهما فيها على سطح السفينة.

إياكِ - مهما تكن الظروف - أن تكشفي لأحد عن أشياء تهمك أو أشخاص ذوي شأن عندك.

كان هذا هو السبب في أن سينت جعلني أتعهد بعدم البوح لأي أحد بأنني ابنته.

رفعت عينيَّ صوب الشراع العلوي الذي فرقع وهو متدلٍّ من الصاري الأمامي حيث مزقته الريح. وفي الممر الجانبي المفتوح انفكت الحبال التي كانت تثبت الإمدادات في مكانها. سوف ترسو ماريجولد لمدة أسبوع على الأقل من أجل إجراء كل تلك الإصلاحات.

صعد أوستر السلم الحبلي، وقفز على سطح السفينة ومياه البحر تتقاطر منه، ثم قال: «لا بد أنها عالقة في شعاب مرجانية، لا أستطيع أن أرى في هذا العمق».

أخذ ويست يتفحص سطح البحر، وسأل: «ما مدى العمق؟».

فأجابه: «ربما ستون مترًا، لست متيقنًا».

أمسكت بالحبل وشددته شدة، ثم قلت: «يمكنني تولي الأمر».

لكن ويست أولاني ظهره قائلًا: «لا».

فقلت: «ولم لا؟ إنه عمق ستين مترًا فقط».

حملق أوستر إليَّ، لكن دافع السخرية بث بريقًا في عينيه القاسيتين وهو يقول: «هذا أقل ما يمكنها فعله. جلب الحظ العاثر وما إلى ذلك».

فسألته: «عم تتحدث؟».

عندئذٍ رفعت ويلا ناظريها في اتجاه ضوء الشمس، وقالت: «لقد جمعنا الآراء هذا الصباح». ثمة كدمة حمراء أسفل بشرة خدها السمراء، على الأرجح أنها قد ارتطمت بالسور أو بشيء منزلق من البضائع، ثم أردفت: «وأجمعت الآراء أنك جالبة للحظ العاثر يا أيتها الجرّافة».

ضحكتُ وأفلتُّ الحبل، ثم سألت: «هل يمكننا جمع الآراء مرة أخرى إن حررت المرساة؟».

زحفت عينا ويست صوب يديّ الملطختين بالدماء، وقال: «سننتظر انخفاض المد. وستتحرر المرساة من تلقاء نفسها عندما تنخفض السفينة».

من الأسفل رفعت ويلا عينيها نحوه قبل أن ترميني بنظراتها، وقالت: «إننا بالفعل متأخرون».

بعدها اتكأ ويست على السور منحنيًا إلى الخارج يتفقد عملها، وسأل: «كم ستستغرقين؟».

فأجابت: «ليس وقتًا طويلًا».

فعاد يتساءل: «والشراع؟».

فاندفع باج من موقعه عند جانب السفينة متجهًا إلى صحن السفينة وهو يقول: «سوف أتدبر أمر الشراع».

سِرت على إثره، وسحبت مصباحًا من مدخل الممر، وأشعلت شعلته وأنا أهبط العتبات، ثم جثوت في الحجيرة وراحت يدي تفتش في الماء حتى عثرت على حزامي. لم يكن ثمة سبب لمنعي من الغوص، كما أنه لم يكن ثمة سبب لإجباري على ملازمة متن السفينة في ديرن، أو لإجباري على النزول إلى الطابق السفلي في خضم العاصفة، لكن إذا نجحت في تحرير المرساة فيمكننا القول إنني بذلك أكون قد سددت ثمن أية خدمة أسداها لي ويست. لن أكون مدينة لأحد، وسيكون الطاقم شاهدًا على ذلك.

لم أعثر إلا على ثلاث أدوات من أدواتي، لكنني رأيت أنها كانت كافية لتحرير المرساة، ثم شددت الحزام حول وركيّ، وأوثقت المشبك، ثم عدت وارتقيت العتبات. كان ويست عند مؤخرة سطح السفينة يساعد هاميش على تثبيت آخر الصناديق.

خلعت حذائي، ونظرت في الماء، حيث اختفى الحبل بجانب السفينة.

انحنى أوستر على السور الجانبي متسائلًا: «ماذا تفعلين؟».

قلت بصوت خفيض وأنا أعتلي السور: «سوف أشد الحبل حين أحرر المرساة، عندها يمكنك سحب الحبل».

رمقني أوستر بطرف عينيه قبل أن يومئ بحركة طفيفة، ثم انتقلت إلى الجانب الخارجي من السور، ووقفت وأنا أوازن نفسي بمحاذاته.

ترامى إلى مسمعي صوت هاميش من مؤخرة سطح السفينة ينادي محذرًا: «فيبل».

عندئذ لاحت ابتسامة ماكرة على شفتي ويلا.

والتفت ويست ناظرًا من فوق كتفه فالتقت عيناي بعينيه لحظة قفزي، ثم اختفت صورته وأنا أسقط، ووصلت إلى الماء بقدميّ أولًا، ثم غمر الماء جسمي، واستسلمت للبرد وهو يشتملني والملح يلسع عينيّ.

ثم صعدت مرة أخرى إلى السطح، وأول ما سمعته كان صوت ويست الغليظ وهو ينادي: «فيبل!».

تجاهلته وابتعدت عن السفينة وأنا أستنشق الهواء نفسًا عميقًا يملأ جوفي كله، ثم زفرته في زفير طويل محسوب، بينما تناهى إلى أذني صوت ويست وهو ينادي مرة أخرى: «فيبل!».

أخذت نفسين آخرين، ثم غُصت. ترامى اللون الأزرق المتعكر في كل اتجاه، ولم تستقر الرواسب بعد أن هيجتها العاصفة، ثم لامست الحبل بإصبع واحد لأتبع مساره في هذا الفراغ، ودفع التيار المائي شعري للخلف وأنا أتعمق. ابتسمت وأنا أنظر حولي في الفراغ الشاسع، فمنذ صغري لم يمر يوم تقريبًا لم أغطس فيه، كان الماء وطنًا لي أكثر مما كانت جيفال وطنًا لي.

الحق أن عمل التجريف راقني، بل يمكن القول إنني أحببته بالفعل.

تبعت سربًا من سمك الببغاء إلى أسفل، ثم تماوجت أطرافها البنفسجية وهي تنثني وتعود أدراجها. اعتصرني الضغط، وأخرجت عنقودًا من الهواء عندما لاحت لي المياه الضحلة في الأسفل، ثم امتدت الصخرة السوداء عبر قاع البحر ذي الرمال البيضاء يشقها صدع كأخدود ضيق، ثم حطت قدماي على الحافة بهدوء، حيث كانت المرساة عالقة تحت النتوء الصخري. ومن فوقي لم تكن ماريجولد سوى بقعة سوداء على السطح.

ارتكزت على الصخرة، ودب الوخز في كفيّ، وركلت المرساة بكعبي. عندما لم تتحرر سحبت الإزميل والمطرقة من حزامي، وشرعت أطرق فوق الحافة مفتتة الصخرة مع كل طرقة. غرقت قطع سوداء صغيرة في قاع البحر وأحاطتني سحابة غبار، وعندما وسعت الصدع بما يكفي ارتكزت بقدميّ على الحافة، وشددت الحبل لأسفل بكل قوتي. وعندئذٍ بدأ إحساس الاحتراق الناتج عن قلة الهواء يجيش في صدري رويدًا رويدًا، ودب الوخز في أصابعي.

أحسست بحركة الاحتكاك قبل أن تتحرر المرساة من الصخرة، ويرتخي شد الحبل، وأخذت أجذب الحبل جذبات شديدة متوالية حتى بدأ السحب من السفينة، فوضعت قدميّ على طرفيْ المرساة، وصعدتُ وأنا أشاهد الضوء المتلألئ بالأعلى يزداد سطوعًا وأنا أقترب نحو السطح شيئًا فشيئًا. احتشدت أسراب من الأسماك تحت ماريجولد تتلوى بين أعواد الأعشاب البحرية لتتصيد القشريات والرخويات التي تكسو بدن السفينة من الأسفل. استنفدت آخر ما تبقى في صدري من الهواء قبيل وصولي إلى السطح مباشرة، وعندما

شققت سطح الماء ملأت صدري مرة أخرى بشهقة. كان ويست لا يزال متكئًا على السور، وشفتاه منضغطتان في خط حاد، وحالما رآني زايل موضعه.

تعاون أوستر وباج على العمل على ذراع التدوير منتشلين المرساة من الماء، ومددت يدي نحو السلم في حين أدخلا المرساة إلى السطح. كانت ويلا تطلي مواضع السدادات الخشبية بالقطران إيذانًا بانتهاء مهمتها، وفي أثناء ذلك ابتسمت ابتسامة لنفسها وهي تهز رأسها.

توقفت على السلم بمحاذاتها لالتقاط أنفاسي، وسألتها: «ماذا؟».

ضحكت وقالت: «لا يمكنني تحديد ما إذا كنت تروقينني أم أنني أراكِ غبية».

ابتسمتُ وارتقيتُ السلم ثم تجاوزت السور، وحطت قدماي على سطح السفينة الساخن.

كان ويست بالفعل يتسلق الصاري الرئيسي، ولاحظت ذلك الشد الذي يشتمل ظهره عادة عندما يتولاه الغضب. لم يكن معتادًا العصيان، ولم أكن معتادة أن يملي أحدهم عليَّ ما أفعله.

وضع يديه وقدميه على الدرجات الحديدية المثبتة في الصاري، وتسلق حتى وصل إلى قاعدة الشراع، ثم أمسك بالحبال، وأسنانه مطبقة على السكين، وشعره يتطاير على وجهه.

كان محقًّا، كلما أسرعت في مغادرتي لهذه السفينة كان ذلك أفضل. بيد أنني سأغادر ماريجولد من دون أن أكون مدينة لأحد بأي شيء.

الفصل التاسع عشر

بعد أن حل الظلام دلفت إلى الحجيرة، ولم يكن فيها سوى ويلا مستلقية في أرجوحتها الشبكية. لا يزال جذعي مغمورًا بالمياه، لكنني على أية حال فتحت الباب وألقيت حزامي بالداخل، ثم ترامى إلى أذني صوت دبيب أقدام في حجيرة ويست من فوقنا، وتسلل ضوء الشموع من خلال الشقوق. لم يكن قد نظر إليّ منذ أن غُصت لتحرير المرساة، وربما لن يطالعني إلا بعد أن أغادر سفينته. ولعل ذلك كان أفضل.

قفزت إلى أرجوحتي الشبكية، وسحبت قماش شراع في حِجري ونحن نتأرجح فوق المياه الخضراء التي تغمر الحجيرة. لقد تمزق الشراع بزاوية مائلة، ورحت أتفحص القماش، وأقيس طول الخيط الذي سأحتاج إليه.

قالت ويلا: «إنه ملكي منذ أن كنت في سن الخامسة»، فرفعت عيني لأراها تمسك بخنجرها أمامها، راحت تقلبه في يديها الملطختين بالقطران، وأردفت: «لقد أخذته من رجل ثمل في حي الساحل غاب وعيه في منتصف الشارع. بكل بساطة سحبته من حزامه».

لم يكن هذا ما كنت أتوقع منها قوله.

تابعت: «إنه ليس مميزًا، كل ما هنالك أنه الغرض الوحيد ذو القيمة الذي أملكه. حاولت بيعه لمقايض في ديرن، لكن ويست أعاده لي بطريقة ما» .

أبقيت عيني على الشراع وأنا أسألها: «لماذا؟».

أجابت: «لأن لديه عادة سيئة للغاية، هي انشغاله بالتصدر لحل أزمات الناس كأنها أزماته الشخصية».

سحبتُ الإبرة نحوي جاعلة الخيط يسري عبر القماش، وعندما رفعت ناظريَّ تسني لي استشفاف ما كانت تعنيه. لم تكن تتحدث عن الخنجر فحسب، لكنها كانت تتحدث عني أيضًا. سألتها: «وهل هذا هو السبب وراء وجودك في سفينته؟».

ضحكت نصف ضحكة وهي تقول: «نعم».

فعقبتُ: «لكن باج قال إنك كنت ضمن الطاقم منذ البداية».

حدقت إلى السقف، ولاح في عينيها وميض ذكرى، وقالت: «نشأنا معًا على متن السفن نفسها. وعندما حصل ويست على ماريجولد أراد أن يضم أشخاصًا يثق بهم».

ربطتُ الخيط، ورفعت الشراع أمامي لأتأكد من أن الغرز مستقيمة، ثم سألتها: «وكيف صار متشرد من حي الساحل قبطانًا لسفينة كهذه؟».

هزت كتفيها وهي تجيب: «إنه ويست. يعرف كيف يحصل على ما يريد».

سألتها: «وهل هذا ما تريدينه؟ أن تكوني تاجرة في منطقة المضايق؟».

عندئذٍ انخفض صوتها فجأة وهي تقول: «ما أريده هو ألا أموت وحيدة. لم أختر هذه الحياة، لكنها الحياة الوحيدة التي أملكها».

جمدت يدي على القماش.

وأردفتْ قائلة: «ما دمتُ ضمن هذا الطاقم فلن أكون وحيدة. أحسب أنني أحب أن أكون في هذا الكنف الجيد حين يقرع الموت بابي».

لم أكن متيقنة ما الذي ينبغي قوله. كان حديثًا حزينًا ومألوفًا، مألوفًا للغاية. لقد نطقتُ بالأمنية الوحيدة التي تجرأتُ على تمنيها بيني وبين نفسي، ونُطق الأمنية بصوت عالٍ قد أبرز ملامحها للغاية، جعلها تبدو شيئًا رقيقًا هشًا، شيئًا يسهل سحقه في مثل هذه الحياة. سألتها: «ماذا حدث لمن تولى أعمال التجريف على ماريجولد».

تساءلتْ: «ماذا؟».

فأوضحتُ: «الشخص الذي كان يتولى أعمال التجريف في هذا الطاقم. ماذا حدث له أو لها؟».

زحفت عيناها إلى الصندوق الواقع قبالة العارضة الخشبية، والذي كان خاويًا حين وصلتُ إلى السفينة. ثم قالت ببساطة: «لقد سرق منا».

سألتها: «ولكن ماذا حدث له؟».

فأجابت بهدوء يثير الرهبة: «لم نفعل به مثل كرين، إذا كان هذا ما تلمحين له. لقد ذبحناه قبل أن نلقيه في الماء».

عدت أسأل: «والحرق؟».

فمدت يدها لتلمس الجلد الأملس ذا اللون الوردي عند فكها وهي تقول: «نعم، كان ذلك بفعل كرين. حسنًا، في الواقع كان زولا. حدث ذلك قبل بضعة أسابيع في سيروس».

أردت أن أقول إنني آسفة لمصابها، بيد أنني كنت أعلم المشاعر التي سيثيرها مثل هذا القول في نفسي إن وجهه لي أحدهم. إن الشعور بأنك محل شفقة أسوأ من التعرض للأذى. سألتها: «لماذا فعل ذلك؟».

«رأى أننا نجني الكثير من النقود. لقد حذرنا عدة مرات ولم نكترث له، فقرر اتخاذ إجراء».

هكذا كان ديدن التجار، تحذيرات تليها عقوبات وخيمة على مرأى ومسمع من الملأ، أية عقوبات رادعة من شأنها أن تبقي هؤلاء تحت السيطرة.

سألتني: «ماذا ستفعلين في سيروس؟».

نظرتُ إلى الشراع في يديّ وأنا أطويه بدقة في شكل مستطيل، ثم قلت: «أخبرتك. سأبحث عن سينت، وأطلب الانضمام لأحد أطقمه».

فقالت: «لا، أعني ماذا ستفعلين حين يرفضك؟»، انتفضت عيناي لأعلى وصررت بأسناني.

جاء أوستر إلى الحجيرة قبل أن تسنح لي فرصة للرد عليها، وخلع سترته وعلقها على الخطاف وهو يقول: «العشاء جاهز بالأعلى. إنه ليس وفيرًا، لكنه صالح للأكل».

نزلت ويلا من أرجوحتها، وتوارت في الممر، تبعتها وارتقيت العتبات المفضية إلى سطح السفينة. تقوست الأشرعة على الصاري الرئيسي والصاري الأمامي قبالة الرياح، واندفعت ماريجولد تمخر المياه السوداء. لسنا متأخرين، لكن لن تتسنى لهم العودة من سيروس في وقت مناسب. لقد فقدوا كثيرًا من المخزون في خضم العاصفة، والآن سيتكبدون المزيد من الخسائر في التجارة.

تسلقت الصاري الأمامي، وبدأت في تركيب الشراع الذي أصلحته وتثبيته في الصاري، ثم حللت الحبال وسحبتها فارتفع الشراع، وتلقفته الريح من فوقي. خلت سماء الليل من السحب، وانتثرت النجوم في صفحتها الملبدة بالسواد، لم يكن القمر ظاهرًا، ما ترك سطح السفينة للظلام. انحنيت إلى الصاري، وتركت وزني يسقط على الحبال، وطوحت رأسي للخلف مستشعرة اندفاع تيار الرياح من حولي.

في الأسفل كان أفراد الطاقم يأكلون على السطح، متحدبين فوق أوعية تحوي حساءً، ثم انكب جميعهم على الطعام، باستثناء ويست الذي وقف عند الدفة يكاد لا يُرى في الظلام، قبضت يداه على الدفة، وبدا ظل وجهه حادًّا وهو يرنو إلى الأمام.

حاولت أن أتخيله حين كان طفلًا صغيرًا متشردًا من متشردي حي الساحل. شق العديد من التجار طريقهم على هذا النحو، ينتشلهم طاقم سفينة من الشوارع القذرة، ويسخرونهم في العمل حتى آخر قطرة من رمقهم. لقد لقي كثيرون منهم حتفهم في البحر، لكن ثلة قليلة ارتقت في سلم الرتب لتتبوأ مراكز مهمة على متن سفن مهمة تبحر عبر منطقة المضايق، وبعضها تبحر في منطقة البحر المجهول.

حين كنت على سفينة سينت، وكنا نرسو عند سيروس كنت أشاهد الأطفال في حي الساحل، وأتمنى أن يكون لي رفاق مثلهم يلهون معي. لم تكن لديَّ أية فكرة عن أنهم كانوا يتضورون جوعًا أو أن معظمهم لقطاء ليست لهم عائلات.

بعد أن انبسط الشراع الذي أصلحته بجوار بقية الأشرعة نزلت من فوق الصاري، راقبني ويست وأنا أسير باتجاهه، وبالكاد رأيته، لكن بدا من استنفاره أنه لا يزال غاضبًا.

قلت: «لا أحب أن أكون معدومة النفع»، وخطوت أمامه فلم يكن له مناص من النظر لي.

فقال بأسلوب لاذع: «أنت لست جزءًا من هذا الطاقم. أنت مجرد راكبة»، ومع ذلك لم أكن متيقنة من السبب وراء أسلوبه هذا.

فقلت: «لقد دفعت لك الثمن بالفعل. إن قتلت نفسي قبل وصولنا إلى سيروس فلا تزال نقودي معك».

عندئذ تحركت عيناه تمسحانني. كانت توجد أشياء كثيرة كامنة وراء كلامه، لكن من النظر إلى وجهه استشففت أنه لن يطلعني على أي شيء آخر. ثمة جحافل من الأشرار على متن هذه السفينة، ويبدو أن ويست مستحوذ على معظمها.

اتكأت على العمود المجاور له، وسألته: «هل لا يزال سينت مستوطنًا وادي الضنك؟».

أجاب: «نعم».

قلت: «تعتقد ويلا أنه لن يقبلني».

فقال: «إنها محقة».

شاهدت يده تنزلق لأسفل للإمساك بإحدى أذرع الدفة، وقلت: «لقد قبلك».

فقال: «وقد كلفني ذلك ثمنًا».

فسألته: «ماذا تقصد؟».

وازن كلماته قبل أن ينطقها، وقال: «ما من شيء بالمجان يا فيبل، كلانا يعرف أن النجاة تستلزم أحيانًا اقتراف أشياء تؤرقك».

أججت كلماته ارتباكي، لأنه كان بكلامه يرمي إلى الرجل حبيس الصندوق الذي ألقاه في الماء، لكن ماذا كان عساي أن أقول؟ مات الرجل، قضى نحبه. وبقدر ما أرعبني الأمر فإنني تفهمته؛ وهذه الفكرة بالأخص قد أخافتني حقًّا.

سألته وأنا أعلم أنه لن يجيب: «ما الأمور الأخرى التي فعلتها وتؤرقك؟».

كان ثمة محيط من الأكاذيب تجتره هذه السفينة. لقد قتلوا الجرّاف، ومسئول إمدادات من سفينة أخرى. كل ما فعلوه في مدينة سوان تناقلته الألسن عبر منطقة المضايق. وإن لم يكن كل ذلك كافيًا، فقد كانوا يديرون تجارة جانبية، وهم تحت إمرة صاحب عملهم، سينت.

مهما يكن مدى التغيير الذي اعتراه منذ آخر مرة رأيته فيها فإن أبي لا يزال أبي، لن يتردد في إيذاء ويست بطريقة أبشع من طريقة تعامل طاقم ماريجولد مع كرين. لم أكن أريد أن أرى ذلك يحدث.

كنت خائفة على ويست.

كل العلاقة بيننا أننا كنا نتقايض عند جزر الحاجز حين كان يرسو هناك، لكن النقود التي أعطاني إياها هي التي أمنت لي الطعام، وعلى مدار العامين المنصرمين منذ أن التقيت به لأول مرة لم يتخلف مطلقًا عن الحضور. لقد أنقذ حياتي في مرات عديدة أكثر مما يمكنني أن أحصيها، حتى لو لم يكن يقصد ذلك.

على الأرجح أنني لن أراه مرة أخرى بعد أن ترسو ماريجولد في سيروس وأغادرها، ولم أكن أريد أن أقلق بشأن ما سيحصل له.

قلت: «لا آبه بما اقترفته يداك. لم يكن عليك مساعدتي حين لُذت بك على الأرصفة عند جزر الحاجز».

فقال بوجه لا يشي بشيء: «بل كان عليَّ ذلك».

غزت كلماته أعماق نفسي، وانتزعت الهواء من صدري. وحالما أوشكت على سؤاله عن السبب رفع عينيه وصوبهما على شيء في الأفق. استدرت لأنظر إلى حيث ينظر، حيث لاح ضوء برتقالي خافت.

مدينة سيروس.

وهنالك، عند ذاك الضوء، يكمن المستقبل الوحيد الذي أنتظره لنفسي.

الفصل العشرون

انبلج الفجر مع دخولنا الميناء. وقد وقفت عند صدر السفينة أشاهد المدينة تقترب في حين كان أوستر يحكم ربط آخر ضمادة قماشية على يدي. كثيرًا ما حلمت على مدار أربع سنوات باللحظة التي سأصل فيها إلى سيروس، والآن وقد صرت هنا تركزت كل أفكاري على اللحظة التي سأرى فيها وجه أبي، ورحت أتساءل ماذا سيقول وماذا سيفعل.

تراصت المباني الحجرية في تكدس زاحف على امتداد انحدار التل المفضي إلى البحر، ومع شروق الشمس من خلفي انعكس ضوء الصباح الباكر على زجاج النوافذ المربعة، ما جعل المدينة تتبدى كأنها مرصعة بالألماس. وفوق البيوت انتشرت شبكة معقدة من الجسور المعلقة بالحبال، والتي كانت بالفعل تعج بأشخاص يشقون طريقهم في أرجاء المدينة.

قال أوستر: «أبقيها نظيفة»، وانتظر حتى رددت بإيماءة من رأسي قبل أن يحمل الدلو المجاورة له ويتسلق الصاري.

نظرت إلى يدي المكشوطة الملفوفة الآن بضمادات من الكتان الأبيض. وقد بدأت الحمى تختفي، وبدأ التهاب جروح كتفي يتلاشي، وكذلك بدأت شفتي تتعافى. وفي النهاية صار لديَّ أكثر من ندبة تذكرني برحلتي عبر منطقة المضايق.

تراقص ظل أوستر على سطح السفينة وهو يوازن نفسه بين الحبال وطيور البحر تحوم فوق رأسه باسطة أجنحتها قبالة الرياح، وطوح بسمكة صغيرة في الهواء فالتقفها طائر بفمه، في حين حط طائر آخر على كتف أوستر. لم أستطع كبح نفسي عن التساؤل عما إذا كان الكلام الذي اعتاد أبي قوله بشأن الطيور صحيحًا؛ إن كان صحيحًا فلربما كان كرين أحد تلك الطيور.

عمل الطاقم على تجهيز ماريجولد للرسو، وبالنظر إلى السفن الأخرى الراسية في الميناء يتضح أننا لم نكن وحدنا من خضنا أهوال العاصفة، فثمة سفن عديدة أخرى صواريها مشقوقة وأشرعتها ممزقة وهياكلها متضررة. سيجني عمال الميناء مكاسب جيدة على مدار الأسبوع المقبل، إن العواصف التي ترتع في منطقة المضايق هي مصدر الرزق الأول لأولئك العمال.

أكثر من نصف السفن في الميناء تحمل شعار سينت، ولم يفاجئني ذلك ألبتة. لقد تنامت تجارته على مدار الأعوام التي تلت آخر مرة رأيته فيها، حتى بعد خسارته لسفينة لارك. لطالما أكبرت أمي تلك الخصلة فيه، وهي رفضه الهزيمة وتعطشه للمزيد. ومع ذلك لم يكن ثمة ما يدل على عدد السفن الموجودة تحت إمرته الآن.

جلست ويلا جلسة القرفصاء بجوار المرساة الرئيسية وأمسكت بالحبل ورفعته وهي تفك العقدة. سألتها: «ماذا إن اكتشف زولا ما جرى لكرين؟».

فأجابت: «إنه يعرف».

اشتدت قبضتي على الحبل. يبدو أنني لم أكن قلقة بشأن ويست فقط. عدت أسألها: «ماذا سيفعل؟» .

هزت كتفيها وقالت: «زولا لديه مشكلات أكبر».

فقلت: «أكبر من مقتل أحد أفراد طاقمه؟».

فأجابت: «لقد تورط في أزمة مع تاجر أحجار كريمة كبير من مدينة باستيان، ما عاق تجارته في منطقة البحر المجهول منذ سنوات، إنه لا يستطيع الإبحار هنالك من دون أن يتعرض للذبح. ومع سيطرة سينت على التجارة في منطقة المضايق تكون الأبواب مغلقة في وجهه، ولهذا أبقى عينيه علينا، إذ لا يمكنه توسيع طريقه التجاري، ومن ثم يحتاج إلى

البقاء في القمة في منطقته، وهو يعلم أنه لا يستطيع المساس بسينت، لكن يمكنه الحيلولة دون ارتقاء طواقم صغيرة».

إن الحرب التجارية بين منطقة البحر المجهول ومنطقة المضايق تعود جذورها إلى ما قبل أبي. لطالما سيطرت منطقة المضايق على إنتاج الجاودار وتجارته، لكن مدينة باستيان كانت هي المتحكمة في سوق الأحجار الكريمة، وكلا المنتجين كان ضروريًّا لملء جيوب زعماء النقابات بالنقود.

إنه عالم محفوف بالخطر والاضطراب، ومسألة التوازن فيه حساسة للغاية، كأنه واقف على طرف سكين.

سألتها: «من تاجر الأحجار الكريمة؟».

فأجابت: «صاحبة الحل والعقد. كان مجلس التجارة يمتنع عن منح هولاند ترخيصًا للتجارة في منطقة المضايق، ولكن حصولها على الترخيص مسألة وقت فقط. ولن يجد زولا مكانًا يختبئ فيه وقتئذ».

كانت هولاند أسطورة قبل ولادتي بزمن طويل، وقد تزعمت إمبراطورية باستيان التي حكمت تجارة الأحجار الكريمة. إن قوة تجارة سينت بمثابة غيض من فيض مقارنة بالسلطة التي امتلكتها هولاند على النقابات. في حال منحها مجلس التجارة ترخيصًا للتجارة في موانئنا سيؤدي ذلك إلى القضاء على كل التجارة المنطلقة من منطقة المضايق، بما في ذلك تجارة أبي.

كان الصيادون في الأسفل يجلبون بالفعل أول صيدهم، وتكاثفت رائحة الأعشاب البحرية في الهواء. ألقى أوستر وويلا بحبال التثبيت ناحية الرجال الواقفين على الرصيف، والذين سحبونا ببطء بينما كان مدير الميناء يشق طريقه نحونا متأبطًا حزمة من الأوراق.

هتف وهو يقف عند طرف الرصيف: «ماريجولد!».

عندئذ قالت ويلا موجهة الكلام لي وهي ذاهبة إلى ذراع تدوير المرساة: «هلا أحضرت ويست؟».

نظرت من فوق كتفها صوب الباب المغلق لحجيرة القبطان. كان ويست وهاميش متواريين عن الأنظار منذ ما قبل الفجر، وتساءلت عما إذا كانا يجهزان الدفاتر لسينت. القصور الذي يلحق بدفاترهما جراء التعرض للعاصفة سوف تكون له عواقب، ولم يكن أبي رجلًا متفهمًا.

طرقتُ الباب، وتقهقرت خطوة وأنا أملأ صدري بنفس عميق أهيئ به نوعًا من الوداع. لن أرى إلى الأبد الصباح الباكر من جرف جزيرة جيفال وأنا جالسة هنالك أشاهد أشرعة ماريجولد في الأفق، وَلّى زمن ركوب قارب أسبيك، وأنا أحمل أحجار البايار الثقيلة في حزامي، ولن تقع عيني مرة أخرى على ويست وهو ينتظرني عند نهاية الرصيف البحري. ماجت بطني ما أشعرني بالإعياء، ولم ترقني فكرة عدم رؤيته مرة أخرى، ولم يرقني هذا الإحساس أيضًا.

سمعت دبيب الأقدام قبل أن ينفتح الباب، لكن هاميش هو الذي كان واقفًا وراءه، ومن خلفه تكدست أكوام من العملات النحاسية على المكتب، وكانت الخرائط ملفوفة بإحكام.

ثم أتاني صوت ويست من خلفي وهو يقول: «ما الخطب؟»، فالتفتُّ ورأيته واقفًا تحت المدخل المقوس للممر.

نظرتُ من ورائه إلى الممر المظلم المفضي إلى الطابق السفلي وقلت: «أوه، ظننت أنك...»، ثم أردفت: «مدير الميناء يطلب حضورك».

أومأ برأسه وهو يرتقي العتبة الأخيرة، وعندئذ أدركت أنه كان ممسكًا بحزامي وسترتي، ثم دفعهما بين ذراعي وهو يمضي أمامي.

ثبتُّ عينيَّ على خط الخياطة عند كتف السترة، ورحت أعض على شفتي السفلية. لم يكن يمزح حين قال إنه يريدني أن أغادر السفينة حالما نرسو. تمنيت ألا يؤلمني ذلك، بيد أنه

آلمني فعلًا. كنت واقفة في الممر الجانبي المفتوح وقلبي يتواثب في حلقي، أحاول استكشاف كيف أقول وداعًا، وويست لم يكن يطيق صبرًا على التخلص مني.

لففت الحزام حول خصري، وشددته حتى احمر جلدي، ثم عثرت يدي على عمود المدخل المقوس للممر، وجرت أصابعي فوق الخشب المطلي بالزيت للمرة الأخيرة وأنا أرنو إلى السفينة. لا تزال ماريجولد حسناء حتى بعد اللطمات التي تعرضت لها في خضم العاصفة، ولسوف أفتقدها على نحو ما.

نادى الرجال من الأسفل في حين فتح هاميش السلم، ومد يده ملتقطًا سترته، وناولني مخطوطة مطوية وهو يقول: «خريطة. إنها مدينة كبيرة».

فتسلمتها منه وأنا أبتسم امتنانًا لهذا اللطف النادر، وقلت: «شكرًا لك».

وعندذاك وضعت ويلا يديها على وركيها وقالت: «توخي الحذر هنالك». تساقطت أشعة الشمس على أثر الحرق في وجهها فتبدى مصطبغًا بحمرة قانية، لكن بشرتها كانت تتعافى. وخطر لي كرين وهو في قاع البحر، فتساءلتُ عما إذا كان الشفاء سيسري في دخيلة نفسها كما يسري على ظاهرها بعد أن نالت انتقامها منه.

قلت: «سأفعل».

فالتوى فمها لأعلى وهي تعقب: «بطريقة ما لا أصدق أنك ستفعلين».

ثم مد لي باج يده، فصافحته، وفي أثناء المصافحة ضغط يدي بقبضته ضغطة، وقال: «بالتوفيق يا جرّافة».

أجبته: «شكرًا».

ومن خلفه ابتسم لي أوستر إحدى ابتساماته اللطيفة.

ترامى إليّ صوت نداء: «فيبل»، وشاهدت ويست يقطع سطح السفينة والرياح تلصق قميصه بجسمه فتبرز هيئة جذعه وهو يتوقف أمامي.

مددت يدي في الفراغ بيننا وقلت: «شكرًا لك». أيًّا كانت أسبابه، تبقى الحقيقة أنه قد خاطر بالسماح لي بركوب ماريجولد، وإن لم أره مرة أخرى، فقد وددت أن يكون على دراية بأنني تفهمت ذلك للغاية.

لم يصافح يدي. تحرك خطوة أمامي وبصره يجول في كل مكان عدا وجهي، وقال: «أبقي سترتك مزررة بالكامل، واجعلي سكينك في متناول يدك. لا تقايضي أدواتك، ولا حتى مقابل الطعام. ولا تنامي في الشارع». ثم رفع غطاء الرأس الملحق بقميصي ليكون في مكان مناسب، وأنا أزرر الأزرار العلوية من سترتي، وأردف: «لا تجذبي الأنظار إليك. أن تكوني نكرة في هذه المدينة خير لك من أن تكوني ذات كيان».

وبدا من إطباق فمه وحركة ابتلاع ريقه المتعسرة أنه يمعن التفكير في أي شيء كان سيقوله. عندئذ رفعت يدي مرة أخرى في انتظار أن يصافحني، وصافحني هذه المرة، التفت أصابعه حول معصمي، والتفت أصابعي حول معصمه، وأنا أرفع عينيّ صوب وجهه، وقلت بصوت منخفض: «شكرًا لك يا ويست».

لم يتحرك، بدا كأنه جمد حتى أنه لم يعد يتنفس. حاولت أن أفلت قبضتي، بيد أنه أحكم قبضته مثبتًا إياي في مكاني. وتسارع النبض في الشريان المار بمعصمي، وهو يسحب يدي نحوه حتى أطل طرف الندبة المنحوتة في ساعدي من تحت كمي.

تنفس وقال: «أعني ذلك يا فيبل، توخي الحذر».

ثم أفلتت أصابعه ذراعي، وتقهقرت إلى الوراء لإفساح فسحة أكبر بيننا، وقلبي يخفق في صدري. أسقطتُ عينيَّ على سطح السفينة، ورفعت نفسي فوق السور متوجهة إلى السلم، وقد شاهدني وأنا أهبط السلم، وحالما حطت قدماي على الرصيف المكتظ صدمني شيء

من جانبي، نافضًا إياي إلى الأمام قبل أن أوازن نفسي بالاستناد إلى هيكل السفينة لكي لا أسقط في الماء.

شاهدت أمامي رجلًا عريض الكتفين يحمل صندوق سمك على كتفه ويقول: «انتبهي لخطواتك!»، ولم يتكلف عناء النظر إلى الوراء حتى.

انطلقت إلى الحشد، وسحبت كم سترتي لأسفل لأتأكد من تغطية ذراعي. كانت الأرصفة البحرية محمومة النشاط بالتجارة في الميناء، إنه أكبر من ميناء ديرن بستة أضعاف على الأقل. مضيت أشق طريقي بين زحام الناس، وعندما وصلت إلى الممر الرئيسي المفضي إلى المدينة نظرت خلفي للمرة الأخيرة نحو ماريجولد. كانت راسية في إحدى القنوات المائية الأخيرة في الميناء، واكتسى خشبها الذهبي بلون العسل. وعند مؤخرة سطح السفينة وقف ويست عاقدًا ذراعيه ومصوبًا عينيه نحوي.

التقت عيناي بعينيه لمرة أخرى، وأنا أرجو أن يكون قد عرف مكنون نفسي رغم عدم نطقي به.

إنني مدينة له، إنني مدينة له بكل شيء.

أتبعني بناظريه هنيهة أخرى قبل أن يستدير أخيرًا ويتوارى في سطح السفينة، تنفست واستشعرت دغدغة تدب في عينيّ.

مشيت وسط تيار متدفق من الباعة الذين يحومون حول بعضهم باتجاه أعلى الممر المفضي إلى حي الساحل في سيروس. وكان أفراد أطقم السفن التي رست للتو في طريقهم بالفعل إلى أعلى التل، حيث كانت في انتظارهم هنالك صحبة عابرة وزجاجات من الجاودار في مشارب المدينة.

كان مقر سينت يقع في وادي الضنك، وهي منطقة موحشة لا يعيش فيها إنسان محترم أو يتاجر فيها. السواد الأعظم من المنتمين إلى تلك المنطقة يعيشون تحت جناح أفضال

سينت، ما يعني أن له أفضالًا في أعناق الكثيرين، وقد كان هذا أحد الأسباب التي مكنته من تشييد كل ما يملكه، كان يعرف كيف يجعل الناس يتكلون عليه.

صدمني شخص آخر بكتفه ملقيًا إياي للخلف، فارتطمت بعمود وتعثرت، لكن ثارت في بالي خاطرة وعيناي تتبعان الحذاء المصقول تحت طرف المعطف الأزرق الغامق.

رفعت ناظريّ، فجمُد مشهد فوضى الرصيف، تباطأ كل شيء مع تعثر خفقان قلبي. جاش اللهيب في صدري، وفاض على ذهني سيل من الذكريات غامرًا رأسي.

حدجني الرجل من فوق كتفه وهو يجتازني، وتبدت عضلات فكه المشدودة.

لقد كان هو. كان سينت.

التاجر الذي شيد إمبراطورية، الأب الذي نبذني ورحل، الرجل الذي أحب والدتي حبًّا أشد بأسًا من ألف عاصفة عاتية.

طرف بعينيه، والتمع فيهما بريق لوهلة من تحت قبعته قبل أن يعود ببصره إلى الرصيف البحري.

وكما تخيلت، فقد تابع مسيره ولم يتوقف لي.

الفصل الحادي والعشرون

لقد رآني.

لقد رآني وعرف بالضبط من أكون. بدا ذلك في إطباق قبضته وهو يرنو إلى الخلف بنظرة من فوق كتفه، وبدا في اختلاجة عضلات فكه حين التقت عيناه بعيني. لقد تعرف عليَّ.

عرف سينت أنني قد نجحت في الوصول إلى سيروس، وعرف السبب وراء وصولي، لقد عرف ذلك مثلما عرفت سبب متابعته المسير وعدم توقفه لي. لم أحنث بالعهد الذي قطعته له مطلقًا، لم يعرف أي مخلوق في منطقة المضايق أنني ابنته، باستثناء كلوف، ولن يوليني سينت اهتمامًا على مرأى من الملأ هكذا، لن يخاطر بأن يتساءل أي أحد عن هويتي.

ذاب بين حشد عمال الميناء بخطوات ثابتة تشق طريقه صوب السفينة الكبيرة الراسية في القناة المائية، حيث يلوح شعاره مرسومًا على الشراع عند مقدمتها.

أحكمت ربط غطاء رأسي بقوة، واضطربت الأنفاس في صدري. احترق حلقي وراحت الدموع تدق بمعاول خلف عينيّ. ذلك أنه قد بدا كما هو بلا تغير، كيف أمكن ذلك؟ لقد كان الرجل الوسيم الغليظ الذي رأيته في آخر مرة.

دق الجرس إيذانًا بفتح مقر السوق، واستدرت مسندة نفسي إلى العمود بيد واحدة، وشاهدت سينت يجتمع مع قباطنة سفنه التي وصلت للميناء قبل أن يعود أدراجه إلى موقعه في وادي الضنك. حين يرجع إلى هناك سأكون بانتظاره.

ارتقيت الدرجات صاعدة من الميناء حتى وقفت عند المدخل الحديدي المنزلق المفضي إلى حي الساحل. كان أسوأ أحياء سيروس.. كان امتدادًا قذرًا من الجحور المنتشرة على

طول الساحل فيما يلي الميناء. أما المدينة وراء ذلك الحي فكانت متاهة، تتشابك شوارعها وأزقتها كأنها عُقد محكمة الوثاق، والناس ينتشرون من كل نافذة وباب. كانت أكبر مدينة ساحلية في منطقة المضايق، وكانت مركزًا محمومًا بالتجارة والمشروعات، لكنها لم تكن شيئًا مقارنة بثراء المدن الواقعة في منطقة البحر المجهول.

سحبت الخريطة التي أعطاني إياها هاميش من حقيبتي وفتحتها على جدار طيني في الزقاق. إن كان الميناء ورائي فإن وادي الضنك يقع إلى الشمال الشرقي. لم يكن الوصول إليه سهلًا، ولعل هذا كان من الأسباب التي جعلت والدي يختار ذلك المكان مقرًّا له، إذ لم يتوقع أحد أن يكمن تاجر ثري في أبأس بقاع المدينة.

شببت لأحاول تحديد أقرب سلم مفضٍ إلى الجسور، واستطعت رصد أشباح أشخاص يتسلقون فوق ارتفاع أسطح المباني فيما يلي السوق، فطويت الخريطة، ودسستها في سترتي، وانطلقت في الشارع الرئيسي. اكتظت الطرقات بالناس القادمين من السوق وإليه وهم يحملون سلال بطاطس وأوعية حبوب.

أفضى الشارع إلى الساحة، حيث تظللها الستائر القماشية ذات الألوان الزاهية فتلقي بظلال وردية على السوق. وامتلأ الهواء برائحة شواء اللحوم، وامتدت أكشاك البائعين في صفوف متعرجة، وطاولاتهم وعرباتهم مكدسة بالفواكه والأسماك ولفافات قماشية من جميع الألوان.

انطلقتُ عبر كل ذلك وعيني على الجسور لأتتبع نقطتي المنشودة. كان حزامي وحافظة نقودي مدسوسين بأمان داخل قميصي، حيث لن يتمكن أحد من الوصول إليهما إلا بقطع سترتي، ومع ذلك تحركت يدي بحركة عفوية بين الأزرار للعثور على مقبض السكين.

اندفعت امرأة قصيرة في السوق تحمل على كتفيها سمكة ضخمة فضية اللون، وراحت تشق لنفسها طريقًا وسط الزحام، فتبعتها وبقيت على قرب منها حتى بلغنا الطرف الآخر من السوق. هنالك وجدت طابور ارتقاء السلم، وحين جاء دوري تسلقت الحبال، وعندما

صعدت تلقفتني الرياح الباردة التي تهب على المدينة، وتلاشت رائحة الشوارع العطنة. ملأت صدري بالهواء النقي وأنا أتكئ على الجدار الشبكي للجسر والناس يجتازونني. تقلقلت الألواح الخشبية تحت قدمي وهي تتأرجح قليلًا، فشبكت أصابعي بالحبال، وأرسلت بصري يجول فوق سيروس، حيث كانت الجدران الحجرية المرتفعة والأسقف الممزقة تمتد عبر كل شبر في المدينة، وشبكة الجسور تسري بين كل ذلك.

تسنت لي رؤية وادي الضنك باتجاه الشرق، كان هو الجزء الأدنى من الأرض المتماوجة، وكان هو الأشد اكتظاظًا، وتكدست الهياكل المتهالكة فوق بعضها كأنها بنايات على وشك السقوط.

توقفت فتاة صغيرة تشد حاشية سترتي وقالت: «يا آنسة؟»، ورفعت نحوي قطعة قماش مربعة صغيرة من الحرير الأبيض مطرزًا عليها سفينة بالخيط الأزرق، وفي ضوء الشمس الساطع بدت عيناها الزرقاوان الشاحبتان ضاربتين إلى البياض تقريبًا، وأردفت: «عملة؟».

نظرتُ إلى القماش المتجعد المبسوط على يديها القذرتين، كانت سفينة تجارة كبيرة ذات أربع صوارٍ وما يربو على اثني عشر شراعًا.

هززت رأسي وأنا أتجاوزها وأقول: «آسفة».

انطلقت عبر الجسر وأنا ملتزمة جانبًا واحدًا وأراقب بعناية. في السابق كنت أحفظ الطريق المفضي إلى وادي الضنك، لكن كان من السهل أن يلتبس عليك الطريق بسبب تشابك الجسور، وكان من السهل أن ينتهي بك المطاف لتجد نفسك في الاتجاه المعاكس إن لم تتوخَّ الحرص. انعطفت إلى منعطف نحو الشرق حتى وجدت آخر ينعطف شمالًا. سطعت شمس الضحى ملقية ضوءها على الميناء الزاحف من الماء، بيد أنني من هنا لم أستطع حتى تمييز ماريجولد.

ومن بعيد دقت الأجراس في البرج إيذانًا بإغلاق السوق، ولم يلبث الناس أن تدفقوا متسلقين السلالم في تيار منهمر. انطلقت على جسر مائل للأعلى قبل أن يهبط مرة أخرى، وعندئذٍ كان بإمكاني شم رائحة المكان بالفعل. إنَّ عطن وادي الضنك كان شيئًا يحرق أنفك ويبقى عالقًا فيك لأيام، أما القاطنون هنالك فقد أصبحت تلك الرائحة جزءًا لا يتجزأ منهم.

بدت الشوارع بالأسفل موحلة ومظلمة مع ميلان الجسر بشدة حتى وصل إلى طريق مسدود، وقد كان السلم المفضي إلى الأرض ملطخًا بالوحل أيضًا. رفعت ياقة قميصي من سترتي لأغطي بها أنفي وحبست أنفاسي وأنا أهبط السلم. لقد حجبت المباني أشعة الشمس عن معظم وادي الضنك رغم أننا في منتصف النهار، وترددت أصداء نباح الكلاب البرية وبكاء الأطفال في الشارع الضيق. سحبت خريطتي مرة أخرى لأحاول تحديد اتجاهاتي.

بدت المنطقة كما كانت قبل أربع سنوات، وكان الاختلاف هو وجود المزيد من كل شيء - الطين والناس والقمامة. وفي وجود جدران المباني من حولك بالكاد يمكنك رؤية السماء فوقك.

انطلقت في الزقاق المنبثق من الطريق الرئيسي، لقد امتد متلويًا عبر المباني بضيق شديد لدرجة أنني اضطررت إلى المرور بجانبي في بعض الأماكن، وكانت الأعين تحدجني من النوافذ في الأعلى حيث كانت الملابس المبللة ترفرف على الحبال. على مرمى البصر لاح فوق الأسقف المدخل المقوس المكسور المألوف، إذ شَكّل الحديد الصدئ إكليلًا من الأشرعة المثلثة ذاتها التي زخرفت شعار سينت، فشققت طريقي نحوها مع هبوط الشمس وانخفاض درجة الحرارة.

اتسع الزقاق مرة أخرى، وانفتح على دائرة من الأبواب الخشبية. كلها خضراء ما عدا واحدًا - بابًا أزرق لامعًا معلقًا فيه مقرعة باب برونزية تحمل وجه شيطان بحر. حملقت عينا الشيطان الواسعتان نحوي من أعلى، ولسانه مبسوط.

مقر سينت.

أطلت المزيد من العيون من الأعلى، هم على الأرجح الأشخاص الذين دفع لهم أبي لحراسته، لكنني كنت أعرف كيفية الولوج. لقد فعلت ذلك مئات المرات، وخلعت سترتي وثبتّ طرفها في حزامي قبل أن أضع أصابعي في شقوق جدار الطين الأبيض الناعم. كانت يدي أكبر مما كانت عليه في آخر مرة تسلقت فيها هذا الجدار، لكن الشقوق وأماكن الإمساك كانت متشابهة. رفعت نفسي بعد وضع قدمي على مقرعة الباب، وعندما صارت حافة النافذة الصغيرة في متناول اليد قفزت لأتشبث بها، فوصلت إليها بأطراف أصابعي وتأرجحت.

ثم ثبتت مرفقي في حافة خشب النافذة وأخرجت الإزميل من حزامي. انسل طرف الإزميل بسهولة ورفعته لأعلى كي أرفع المزلاج. كانت نافذة صغيرة وكان عليَّ إقحام نفسي فيها، ألقيت حزامي إلى الداخل، ورحت أزحزح وركيَّ وأضغطهما معًا إلى أن انسللت، وهبطت على البلاط بقوة متأوهة من الألم المبرح الذي انفجر في ضلوعي، ثم أنهضت نفسي.

كانت الغرفة مظلمة، ولم يتسلل إلى الداخل سوى الضوء القادم من النافذة الصغيرة المفتوحة في شعاع مائل، ثم رحت أفتش بأصابعي على طول الرفوف بحثًا عن مصباح، إلى أن اصطدم طرف حذائي بساق مكتب، وعثرت أصابعي على شمعة عليه، ثم أشعلت عود ثقاب، ورفعت المصباح أمامي، وعاودني الشعور بغصة في حلقي.

خرائط. رسوم بيانية. قوائم. مخططات.

منظار برونزي منحوت على جانبه اسمه.

سينت.

كل شيء في المكان كما كان، لا اختلاف مطلقًا، تمامًا كعدم اختلاف صاحب المكان. وكأن السنوات الأربع الماضية لم تمر، ولم يمض الزمن على الإطلاق. إنه لا يزال هنا، لا يزال يبحر، لا يزال يتاجر ويقايض وينشئ سفنًا.

إنه يباشر حياته بشكل طبيعي، كأن لم يكن لي وجود من الأصل.

الفصل الثاني والعشرون

منذ أربع سنوات

في تلك الليلة دوى صوت الجرس الحاد، وهُرع أبي إليّ ساحبًا إياي من أرجوحتي الشبكية، وعيناه غائمتان يلوح فيهما الاضطراب. لم أكن أدري ما يجري حتى انفتح الباب، وبرق البرق في نقطة شديدة القرب من السفينة لدرجة أنه شوش بصري، وانفجر الصوت انفجارًا مؤلمًا في أذنيّ. كل ما رأته عيناي كان بقعًا سوداء، فطرفتُ بشدة محاولة محو تلك البقع.

اكتنفني سينت تحت سترته قدر الإمكان، ثم انطلق في اتجاه الريح الهائجة وماء المطر الذي يدور في دوامة، ولا يسقط في أي اتجاه.

لم أرَ مطرًا مثل هذا من قبل.

هتفتُ وأنا أنظر باحثة من فوق كتف أبي: «أمي!»، لكن ظهر السفينة كان خاويًا تقريبًا. وعندما رفعت عيني صوب الغيوم المتكاثفة من فوقنا صرختُ؛ إذ شاهدت الصاري الرئيسي للسفينة لارك قد انشطر شطرين.

كنت أعلم ما يعنيه ذلك. الصاري المكسور يعني نقطة اللاعودة.

كنا نهجر السفينة ونتركها لمصيرها المحتوم.

أخرجت نفسي من تحت سترة سينت، وانزلقت من قبضته، وارتطمت بسطح السفينة بقوة لدرجة أن أنفاسي انقطعت من صدري.

نادى باسمي: «فيبل!»، ولطمت موجة شديدة الجانب الأيمن من السفينة فأوقعته وجرفته، في حين ركضت أنا نحو الباب.

صرختُ: «أمي!»، لكنني لم أستطع سماع صوتي حتى. لم يكن هناك سوى عواء الريح وزمجرة السفينة.

طوقني ذراعان ساحبان إياي إلى الخلف، ثم ظهر أمامي وجه آخر غير سينت، إنه وجه كلوف. ألقى بي سينت في اتجاهه، وانزلقت فوق السطح المغمور بالمياه حتى اصطدمت به.

لم ينتظر. ارتقى كلوف السور ممسكًا إياي بين ذراعيه، وقفز وسط الريح، سقطنا في الظلام وارتطمنا بالماء على أصداء هزيم الرعد، وفجأة سكن كل شيء. وحل طنين البحر العميق محل هياج العاصفة العاتية. وتماوجت تحت السطح جثث جامدة الحركة في الماء الأسود، ومن أسفلنا كانت بقايا السفن الغارقة منذ أمد بعيد تظهر على ضوء ضربات البرق المتوالية.

عندما عدنا إلى السطح كنت أختنق بالماء، وتشبثت بكلوف بيدين مرتعشتين.

وفجأة ظهر سينت بجوارنا وهو يصيح: «اسبحا!».

قرع مسمعي صوت تصدع آخر كأنه طلقة مدفع، فالتفتُّ في الماء، وإذا بهيكل السفينة ينشطر شطرين، من المنتصف مباشرة.

لم يسبق قط أن سمعت صوت أبي هكذا وهو يقول: «اسبحي يا فيبل!»، لم أر قط الانهيار باديًا على وجهه هكذا جراء الخوف.

شققت الماء سباحةً بأسرع ما يمكن ضد قوة سحب السفينة الغارقة، ثم بقي سينت بجواري يصعد معي فوق قمة كل موجة، وظللنا نسبح حتى لم أعد أشعر بذراعيَّ أو ساقيَّ، وامتلأ نصف بطني بماء البحر. ومع ارتعاشة الضوء البرتقالي لمصباح في الأمام بدأت الغرق، لكن يد كلوف أمسكت بقميصي، وجذبني معه حتى طُفت على الماء في أعقابه. وعندما فتحت عينيَّ مرة أخرى كان أحد أفراد طاقم السفينة يرفعني إلى قارب صغير.

ومن هنالك شاهدت مقدمة السفينة لارك تغرق على مرمى البصر، ورحت أبكي وأصرخ: «أمي... أمي، أمي، أمي...»

لم ينطق سينت بكلمة واحدة عندما صعد إلى القارب ورائي، ولم ينظر إلى الوراء، ولا بدت منه التفاتة واحدة حتى.

لم ننشر الشراع الصغير حتى صباح اليوم التالي، عندما هدأت العواصف واستكان البحر. جلست عند مؤخرة القارب أملأ دلاء من الماء وأسكبها في البحر، حتى أصبح هيكل القارب فارغًا. كان سينت مثبتًا عينيه في الأفق، وفي تلك اللحظة فقط لاحظت أن الرجل الذي سحبني من الماء كان مصابًا، ووشى وجهه الشاحب بمصيره المحتوم، ثم لم يطل به المقام لساعات حتى قضى نحبه، وعقب لفظه أنفاسه الأخيرة بلحظات فقط ألقاه سينت من فوق القارب.

انطلقنا إلى شاطئ جزيرة جيفال الممهد في صباح اليوم التالي، حيث لم تطأ قدماي تلك الجزيرة الغنية بأحجار البايار قط، لكن أمي اضطلعت بأعمال تجريف في شعابها المرجانية، ثم استلقيت على الرمال وكانت الأمواج تزحف لتلمس قدميّ الحافيتين، وفي حين انطلق كلوف بحثًا عن الطعام والماء، استل أبي السكين من حزامه.

ثم سألني وهو ينظر مباشرة في عيني بهدوء أرعبني: «هل تثقين بي؟».

أومأت برأسي، فقبض على يدي بأصابعه الخشنة، وقلبها حتى أصبح الجلد الناعم في ساعدي منبسطًا في الفراغ بيننا. لم أكن أدري ما الذي سيفعله حتى انفجر الدم تحت طرف السكين.

حاولت الابتعاد، لكن النظرة الصارمة التي حدجني بها أسكنتني تحت يده. ودفنت وجهي في ركبتيّ، وحاولت ألا أصرخ وهو يجرحني حافرًا في ساعدي خطوطًا سلسة منحنية

تصل من كوعي إلى معصمي. وعندما انتهى حملني إلى الماء ونظفها، وضمد الجروح بعناية بقطع ممزقة من قميصه.

عاد كلوف ومعه دلو تحوي محارًا قايضه من أحدهم على الشاطئ، وأضرمنا نارًا، وأكلنا العشاء القليل في صمت، ثم اضطربت معدتي جراء الألم الذي تتابعت أمواجه في ذراعي، وقلبي منفطر على إثر فقدان أمي. لم نتحدث عنها، في الواقع لم أتحدث عنها مرة أخرى خلال تلك السنوات في جزيرة جيفال.

لم أسأل عما حدث. لو كانت على قيد الحياة لما كان ليتركها سينت وراءه قط.

نمنا هنالك على الشاطئ، وعندما أشرقت الشمس جهز كلوف القارب، لكن حين خضت الماء على إثر أبي، التفت نحوي ووضع يدًا ثقيلة على كتفي وأخبرني بأنني لن أصحبهما. تحركت شفتاه تنطقان بالكلمات وهو يرنو إلى وجهي من الأعلى، وكالعادة لا تشي تعابير وجهه بأي شيء. بيد أنني لم أستطع فهمه، ردده ثلاث مرات قبل أن يتضح المعنى في ذهني، ودبت ارتجافة في يديّ.

تساءلت بصوت أجش عميق وأنا أحاول ألا أبدو مستعطفة: «لماذا؟»، إذ كان أبي يمقت الاستعطاف.

«لأنك لست من طينة تناسب هذا العالم يا فيبل»، ولوهلة خُيل لي أنني لمحت ترقرق دموع في عينيه، ولاحت عواطف جياشة في صوته، لكن عندما طرفت بعيني كان قناع الأب الذي عرفته قد عاد.

ناديته: «سينت...»، لم أكن أريد أن أتوسل، وأردفت: «لا تتركني هنا». ونظرت صوب القارب، حيث لبث كلوف منتظرًا، لكنه لم ينظر نحوي، وبدا التصلب مكتنفًا كتفيه كأنهما منحوتتان من صخر.

قال سينت: «اقطعي لي وعدًا، وسأقطع لك وعدًا».

أومأت برأسي بلهفة معتقدة أنه قد غيّر رأيه.

«نجِّي نفسك. أخرجي نفسك من هذه الجزيرة. وفي المرة القادمة التي أراك فيها سأمنحك ما هو حق لك».

رفعت عينيّ، ونظرت في وجهه متسائلة: «وإن لم أرك مرة أخرى؟».

لكنه التفت، وانزلقت يده من بين أصابعي وهو يولي مبتعدًا.

لم أجرؤ على البكاء عندما عاد إلى القارب، لم يصدر عني صوت واحد، وانهمرت الدموع على وجهي في مجاري مياه ساخنة تختفي في قميصي. وانفتل قلبي في صدري منذرًا بالتوقف، كل جزء مني كان يصرخ داخل كياني.

وعندما ذاب الشراع المثلث الصغير في الأفق، كنت وحدي.

الفصل الثالث والعشرون

جلست على الكرسي الجلدي المبطن الرابض خلف مكتب أبي، وأزُكم أنفي برائحة دخان غليونه الذي تَشَرّبه كل جزء من الغرفة، رائحة حلوة وحارة ومألوفة للغاية جعلت صدري يؤلمني.

كانت آثار أمي في كل مكان.

بوصلتها على حافة النافذة، أدواتها التي استعملتها في التجريف تطل من صندوق صغير على الأرض، وبجوار الباب يتدلى وشاح حريري فيروزي مهترئ من مسمار صدئ. إن أغمضت عيني يمكنني استحضار المشهد والوشاح ملفوف حول كتفيها، وجديلتها الطويلة تتهادى أسفل ظهرها وهي تمشي.

لذا لم أغمض عينيّ.

أشعلت الشموع عندما غابت الشمس، وذهبت إلى النافذة ألقي نظرة فوق وادي الضنك. لا تزال العيون تراقب من النوافذ المظلمة، وتساءلت إذا كنت سأتعرف على أي من تلك الوجوه، وإذا كان أي منهم سيتذكرني حين كنت فتاة صغيرة اعتادت السير في هذه الشوارع في أعقاب سينت.

نظرت من فوق كتفي إلى المرآة المذهبة على الجدار، حيث بدا كل شيء على صفحتها مموهًا كأنه تحت الماء.

وفي وسطها انعكست صورتي.

لبثت ساكنة؛ لأنني لم أعرف الفتاة الظاهرة في انعكاس المرآة، ولأنني عرفتها أيضًا.

بدوت مثلها، أشبهها للغاية في الشكل واللون وزاوية الفك.

لقد غيرتني السنوات. كنت أطول بالطبع، لكن ثمة انحناءً عند وركيّ لم أكن أدرك وجوده. وأصبح النمش المتناثر على أنفي أكثر من أن يحصى، والكثير من النقاط تذوب معًا، ثم صار شعري البني الداكن أكثر قتامة، وتغيرت الألوان مع تحول الضوء. كان ثمة شيء لم يرقني في رؤية نفسي هكذا. كان الأمر غير مريح.

مددت يدي لأعلى، ولمست وجهي تاركة أطراف أصابعي تتبع هيكل عظام وجهي، وتجمدت يدي عندما استشعرت ذلك، كان شعورًا مثل تيار عميق يندفع بداخلي.

إيزولد.

شعرت بها كأنها تقف في الغرفة بجواري، وكأن دفء جسمها يداعب بشرتي. ومض شيء على الرف حيال الجدار، فحدقت هنالك بعينين نصف مغمضتين، وبصري مركز على الوهج الأخضر الباهت.

داخل صندوق خشبي مفتوح كان ثمة شيء أعرفه، شيء لم أظن أنني سأراه مرة أخرى.

جاش ألم حاد خلف ضلوعي، واغرورقت عيناي بدموع ساخنة. لا يمكن أن تكون هي.

تمركزت القلادة البسيطة داخل الصندوق، وامتدت السلسلة الفضية على الجانب، حيث كانت عبارة عن صدفة أذن بحر تأخذ شكل تنين بحر، لم تكن ذات قيمة مادية مطلقًا، إلا أنها كانت تخصها.

كانت قلادة أمي تتدلى فوقي كل ليلة وهي تقبلني، وكانت تنشد حول حلقها عندما نغوص في الشعاب المرجانية، وكانت ترتديها ليلة وفاتها.

إذن، كيف تكون القلادة هنا؟

رفعتها بعناية كأنها قد تتحول إلى دخان وتتلاشى من يدي.

وعندئذ تسللت الأصوات عبر النوافذ الزجاجية، وأغلقت أصابعي على القلادة وأنا أنظر للخارج.

تألق معطف سينت الأزرق في الضوء الخافت، كان المعطف هو الشيء الوحيد المتألق في الشارع الكئيب. تنحى الناس عن طريقه وهو يمشي، ويبدو أن وجوده الصامت يترك وراءه أثرًا، لطالما كان كذلك.

عادت الارتجافة تدب في عظامي. دسست يدي في جيبي سترتي، وتشابكت القلادة في أصابعي الزلقة وأنا أعود إلى الكرسي، جلست باستقامة مولية كتفيّ شطر الباب.

توقف أطيط حذائه في الخارج، ولبث هنيهة قبل أن يدس مفتاحه في القفل، ثم حاولت إبطاء خفقان قلبي المتسارع، لكن حبات العرق كانت تحتشد بالفعل على جبيني، وعضضت على شفتي السفلية لمنعها من الارتعاش.

انفتح الباب فأدخل نسيمًا باردًا، ووقف أمامي الرجل الذي لم يُسمح لي مطلقًا بأن أناديه بأبي، وفي ضوء الشموع احتدت عيناه المصطبغتان باللون الأزرق الفاتح.

جمدتُ غير قادرة على استنشاق نفس حتى، ثم قلت: «أنا...»

فقال: «فيبل». تردد صوته الأجش العميق مالئًا الغرفة الساكنة.

لقد تعرف عليَّ حين رآني على الرصيف. كنت أعلم أنه عرفني.

أغلق سينت الباب خلفه وسار باتجاه المكتب متكئًا عليه بكلتا يديه وهو ينظر لأسفل صوب وجهي. حاولت أن أطرف بعينيّ لقهقرة كتائب الدموع المنذرة بالزحف إلى عينيّ،

لكن من دون جدوى. لبثت منتظرة حتى يتكلم، وأفكاري تتسارع بدراسة احتماليات ما قد يقوله، ما قد يفعله، لكنه لبث محدقًا في وجهي وحسب.

قلت وصوتي يبدو غريبًا عليَّ: «دفعت ثمن نقلي إلى منطقة المضايق لإحدى سفنك».

فقال: «ماريجولد».

أومأت وقلت: «صحيح».

أصدرت الألواح الخشبية صريرًا على الأرض تحت قدميه حين انتصب واقفًا، وانطلق إلى الرف ليلتقط غليونه ويملأه بأوراق نبتة البوصير.

سألته: «أين كلوف؟»، لم يكن ملاح سفينة سينت يبتعد عنه مطلقًا، وتساءلت عما سيقوله حين يراني.

قال: «رحل».

فكررت كلمته متسائلة: «رحل؟».

احدودب على اللهب، وأخذ ينفخ حتى احترقت الأوراق ببطء.

لكن هذا لا يمكن أن يكون صحيحًا، لقد أبحر كلوف وسينت معًا منذ ما قبل ولادتي، ولم يكن من سبيل لانتقاله من سفينة أبي. إلا إذا...

مسحتُ عبرة خائنة شردت من عند زاوية عيني حين أدركت مقصده. مات كلوف، وإن مات كلوف فهذا يعني أن سينت وحيد. جعلتني الفكرة أشعر كأنني عدت تحت ذاك الماء المظلم ووميض البرق الصامت يومض من فوقي.

تنشقتُ وغيرت الموضوع: «رأيت سفنك في ديرن وهناك في الميناء. كم عدد سفنك الآن؟».

جلس على الكرسي أمامي، وأجاب: «ثمانٍ وعشرون».

اتسعت عيناي، ظننت أنها ربما عشرون سفينة، لكن ما يقرب من ثلاثين سفينة تبحر تحت شعاره كان شيئًا أكبر من مجرد مجموعة تجارية. امتلاكه هذا العدد الكبير من السفن يعني أنه ليس التاجر الصاعد الذي عهدته قبل أربع سنوات، لقد صار على قمة سلم التجارة الآن.

همستُ بابتسامة ترتسم على شفتيَّ: «لقد فعلتَها».

فتساءل: «فعلتُ ماذا؟».

فأجاب: «لقد فتحت لنفسك طريقًا تجاريًا في منطقة البحر المجهول».

سحب نفسًا من فمه المليء بالدخان، ثم أخرجه من خلال شفتيه ببطء.

وأردفتُ: «تمامًا مثل إيزولد...»

عندئذٍ دب التصلب في عضلاته، وضيق عينيه قائلًا: «لا تنطقي اسمها».

أحنيت رأسي جانبًا وأنا أحاول استشفاف أفكاره، لكن سينت كان حصنًا منيعًا، هاوية ما لها من قرار. ثمة أشياء قلائل قادرة على استنفار أعصابه، ولم أكن أشك في أن اسم أمي من ضمن تلك الأشياء.

لم يكن الاستقبال الذي توقعته. إنه ليس بالرجل الحنون، ولم أكن بحاجة إلى عناق أو مشهد عاطفي، بيد أنه لم يسألني حتى عما حدث بعد أن تركني في جزيرة جيفال، كيف نجوت، كيف وصلت إلى سيروس.

قلت والغضب يمور في كلماتي: «لقد جئت من أجل ما وعدتني به».

فتعمقت التجاعيد حول عينيه وهو يستطلعني لبعض الوقت، ثم عض على الغليون ونهض مرة أخرى دافعًا الكرسي الذي تزحزح محدثًا صريرًا على الأرضية، وعاد إلى الرف. التقط بين ذراعيه مجموعة من الكتب التي يعلوها التراب، ووضعها على المكتب قائلًا: «ميراثك».

انحنيت إلى الأمام وأنا أتساءل: «ماذا؟».

فسحب من ظهر الرف مخطوطة ملفوفة بشدة، ووضعها على المكتب أمامي، فأخذتها ببطء ودبيب الوخز يسري على جلدي. راقبني وأنا أفتحها وضوء الشموع ينسكب عليها ليكشف عن خريطة باهتة، كانت خريطة بحر شرك العواصف.

قلت: «لا أفهم».

فأخرج سينت عملة نحاسية من جيب سترته واضعًا إياها عند نقطة في أعلى يمين الخريطة، ثم قال: «سفينة لارك».

ازداد دبيب الوخز على جلدي، واجتاح سائر جسدي، حتى ضج رأسي بحرارة تلك العاصفة الفكرية. تساءلت: «ماذا؟».

فوضع بنانه على العملة المعدنية قائلًا: «إنها هنالك، وهي لك».

رفعت عيني أرنو إليه.

قال: «لقد استبقيتها من أجلك».

فسألته: «لم تعد إليها قط؟».

فقال متنحنحًا: «مرة واحدة»، وعندئذٍ شددت أصابعي على القلادة في جيبي، هكذا إذن أتى بالقلادة، لقد عاد، عاد من أجل إيزولد. وأردف: «لكنني تركت حمولة السفينة كما هي».

تهدج صوتي وأنا أقول: «كانت ثمة ثروة على متن تلك السفينة».

قال: «نجا ثلاثة فقط في تلك الليلة»، ولوهلة بدا أن وميض الذكرى أوجعه، وأردف: «ثلاثة فقط من عرفوا مكان غرق لارك».

أنا، وسينت، وكلوف.

قال: «إنها لك».

نهضت وتحركت حول زاوية المكتب، ثم طوقته بذراعي، ودفنت وجهي في كتفه، فوقف منتصبًا وتعاظم الشد مجتاحًا جسده، بيد أنني لم آبه، لقد قضيت كل يوم من السنوات الأربع الماضية وأنا أحاول العودة إليه، وقضيت كل يوم في التساؤل عما إذا كان سيفي بوعده لي.

وقد أوفى.

اضطجعت السفينة لارك في قعر بحر شرك العواصف، طاوية أمي في جوفها، وماكثة في انتظاري، في انتظارنا.

تحوي السفينة ما يكفي من النقود والأحجار الكريمة التي تخولني لفعل أي شيء أبتغيه. لقد قضيت كل يوم على مدار أربع سنوات أضطلع بأعمال التجريف، والآن قد ولى زمن العوز.

ثم أفلته وأنا أمسح عيني. وسألته: «متى نذهب؟».

عندئذ تغير وجهه، وتحولت نظرته، وقال: «لن نذهب».

حدقت إليه.

فأردف: «تركت تلك السفينة في قاع البحر من أجلك. إن كنت تبغينها فاذهبي وخذيها».

ندت عني الكلمات متقطعة وأنا أقول: «لكنني ظننت...»، وتابعت: «قلت إنك ستمنحني ما هو حق لي».

فأجاب: «وقد فعلت».

قلت بصوت متهدج: «ظننت أنك تعني بذلك مكانًا لي هنا»، وأردفت: «عدت لأكون معك، لأبحر ضمن طواقمك».

فتساءل: «تبحرين ضمن طواقمي؟».

عقبت: «أنا جرّافة جيدة، وجيدة جدًّا في فحص الأحجار الكريمة. لست بمستوى إيزولد، لكن...»

فقال مشددًا على كلامه ومقطعًا جملته: «لا... تنطقي... اسمها».

فقلت بهمس: «أنا لا أفهم».

فقال: «لم يكن ينبغي لي أن أسمح لأمك بأن تطأ متن سفينتي. إنني لا ألدغ من جحر مرتين»، ونهض سائرًا نحو النافذة، وشاهدت عضلات رقبته مشدودة وعضلات فكه تنقبض.

علقتُ: «أنت تتخلى عني؟ هكذا بكل بساطة؟».

فطوح يده ناحية الخريطة قائلًا: «لقد منحتك مستقبلك للتو!».

أمسكت بالخريطة وألقيتها في الجو عبر المكتب، فاصطدمت به قبل أن تسقط على الأرض، وقلت: «لست أريد السفينة لارك. أريد أن أبحر تحت شعارك».

فقال: «لا».

انسالت الدموع الساخنة على وجهي، وتملكني الذعر, فتسارعت أنفاس الفزع في صدري، وقلت: «ليست لديك أدنى فكرة عما تعين عليَّ فعله للوصول إلى هنا».

فرفع ذقنه قائلًا: «والآن أنت تعرفين كيف تبقين على قيد الحياة في هذا العالم».

تساءلت: «ما الذي يعنيه ذلك؟».

فأجاب: «خير ما فعلته من أجلك هو تركك في جزيرة جيفال».

فحدجته وأنا أصر بأسناني، وقلت: «تقصد خير ما فعلته من أجل نفسك. كنت أتضور جوعًا، تملكني الرعب والفزع». لقد توقع أن أكون ممتنة للجحيم الذي أقحمني فيه. وتابعت: «لقد فقدتُ أمي ومنزلي، ثم ألقيتَ بي عند أقرب صخرة، وتركتني لأتدبر أمر نفسي وحدي».

عندئذ تحدث بهدوء طافح بالمرارة والقسوة: «تتدبرين أمر نفسك وحدك؟»، ثم ارتفع صوته: «من برأيك أمن لك مطعمك؟ من برأيك ملأ جيبك بالنقود التي دفعتِها للعبور في منطقة المضايق؟».

حدقت إليه، وقد انتابني التحير.

سألني: «ما الذي تعتقدينه بشأن ماريجولد يا فيبل؟».

فأجبت: «إنني أعرف ما هي سفينة الظل. إنه الطُّعم الذي تستخدمه للتلاعب بالتجارة وجمع المعلومات. أنا لست غبية. على الأرجح أن ويست مثقل بدين لك لن يكون قادرًا على

سداده أبدًا».

بدا راضيًا، وقال: «إنك ذكية جدًّا».

سألته: «وما علاقة ذلك بي؟».

فأجاب: «أتحسبين أن ويست كان سيظهر عند جزيرة جيفال لو لم أرسله إلى هنالك؟ أتحسبين أنه كان سيدفع لك ثمن أحجار البايار لو لم أكن قد أمرته بذلك؟».

اتسعت عيناي وفُغِر فمي، ومددت يدي المرتجفة نحو المكتب لأسند جسدي الذي رزح تحت وطأة الكلمات، ثم تساءلت: «ماذا تقول؟».

فقال: «لقد اعتنيت بأمرك».

اندلع حزن في صدري قبل أن يتحول إلى ضحكة مريرة. بالطبع. عرف ويست من أكون بالضبط. طيلة ذلك الوقت كان يعرف. وعندما أبحر إلى جزر الحاجز قبل عامين بحثًا عن أحجار بايار كان يفتش عني حقًّا، لهذا لم يكن يريدني على متن سفينته، ولهذا لم يسمح بحدوث أي شيء لي.

كنتُ أغلى حمولة نقلها ويست عبر منطقة المضايق.

حدقت إلى الأرض محاولة مقاومة الدوار الذي أصابني، وجعل الغرفة تدور من حولي. لم يكن شيء على ما يبدو عليه، كل شيء كان خطأ.

وعندئذٍ قال: «أنت لا ترين ذلك بعد. وربما لن تري ذلك أبدًا، لكنني اتخذت الخيار الأفضل لكل منا. لقد أوفيتِ بوعدك، وأوفيتُ بوعدي». رفع الخريطة مرة أخرى، وطواها بإحكام، ثم قال: «آن أوان مُضيك في طريقك الخاص يا فيبل».

انسلت صيحة بكاء أخرى من شفتي، ودفنت وجهي في يديّ مستشعرة المهانة. لقد عبرت منطقة المضايق قاصدة رجلًا على الأرجح لم يحبني مطلقًا، قاصدة حلمًا لن يتحقق أبدًا، وفي تلك اللحظة لم تكن لديّ أدنى فكرة عن سبب اعتقادي في أي وقت مضى بأن هذا الحلم ممكن.

قال: «أنت قوية وذكية، سوف تكتشفين كيف تشقين طريقك».

حدقت إلى الخريطة، وغزاني فجأة شعور بالثقل، وقلت: «إن كنت لن تصحبني فهذه الخريطة عديمة الجدوى. حتى إن وجدت طريقة للوصول إلى هناك فلن أتمكن أبدًا من الإبحار في بحر شرك العواصف من دونك. أنت الوحيد الذي يعرف الطريق عبر تلك الشعاب المرجانية».

مد يده نحوي، فجفلت، وتقهقرت، لكنه تابع، ورفع ذراعي، وشمر كمي إلى مرفقي، وعلى دفقات الضوء الخافقة التمع الجلد الناصع الذي يبرز ندبتي.

أشار إلى الزاوية اليمنى العليا، عند طرف أطول مسار من آثار الندبة، وقال: «هناك».

عندئذ انتابني شعور سيئ أسفل بطني وأنا أربط الخيوط ببعضها في ذهني، كأنني أرى الندبة للمرة الأولى. ظهر النمط متشكلًا أمام عينيّ.

كانت خريطة.

ذلك الوغد العنيد المتفاخر قد نحت على جلدي خريطة الطريق الموصل إلى السفينة لارك. كان هذا هو المسار المعقد الذي يشق منطقة المقبرة التي ترقد فيها بقايا سفن غارقة على مدار مائتي عام.

انتزعت ذراعي بعيدًا، والحرارة تلفح وجهي.

قال: «لديك كل ما تحتاجين إليه لبناء حياتك الخاصة».

كان يقصد حياة بعيدة عنه. لم يكن ذلك ميراثًا، لم تكن هدية حتى، لقد كانت رشوة للابتعاد عنه. قلت باختناق: «لا بأس. سأذهب في طريقي... وإن كنت تظن أنني سأكون مدينة لك بأي شيء...»

لكنه قاطعني قائلًا: «أنت ابنتي يا فيبل».

حدجته بنظرات في عينيه، وقلت بصوت يتأجج بكل قطرة كراهية تغلي بداخلي: «أنا ابنة إيزولد».

عندئذ لاح أثر من الاضطراب على قناعه الصارم، بالكاد لاح، وعرفت أن الكلمات قد آلمته، لكنني قصدت ما قلت. لقد كنت حمقاء لظني أن سينت سيرحب بي مرة أخرى في منطقة المضايق، كنت حمقاء لظني أنه سيكون سعيدًا لرؤيتي.

لقد كان كما كان دائمًا، مستبدًّا قاسيًا باردًا.

وبُغضي له فاق بغضي لأي شيء آخر في حياتي.

أخذت الخريطة، ومشيت بجواره مباشرة. وعندما مررت بالمرآة المذهبة انعكست صورتي عليها لوهلة خاطفة، ثم فتحت الباب فتدفقت رائحة وادي الضنك النتنة. خطوت في الوحل، ودسست الخريطة في سترتي.

وهذه المرة تركتُ سينت ورائي.

الفصل الرابع والعشرون

انطلقت على الجسور تحت جنح الظلام.

هبت من البحر الرياح المشوبة بالملح، وركضت يدي على طول أسوار الجسر الحبلية المربوطة في عُقد، متبعة تلك الأسوار إلى أي اتجاه توجهني إليه، لم أكترث إلى أين، لم يكن ثمة مكان أقصده على أية حال.

مر بي أشخاص ينتعلون أحذية ملطخة بالطين، وومضت المصابيح مضيئة في الأسفل في حين ابتلع الظلام أسقف منازل سيروس سقفًا تلو آخر. وعندما أوصلني الجسر أخيرًا إلى نهاية مسدودة، وجدت نفسي وحدي فوق موضع من المدينة متواريًا خلف حي الساحل. هبطت السلم وارتطم حذائي بالوحل ناثرًا الطين، وبالكاد وصل إلى هنا آخر شعاع من الضوء البرتقالي المنتشر عبر الشوارع الملتوية.

ترامى إلى أذني صوت امرأة ذات شال قرمزي ملفوف فوق رأسها المطل من نافذة متصدعة وهي تقول لي: «حري بك ألا تكوني في الخارج يا فتاة».

رفعت غطاء الرأس الملحق بسترتي، وواصلت المشي.

كانت المدينة عبارة عن شبكة من الممرات الضيقة، والمباني تحتل كل شبر منها. اعتادت أمي أن تقول إن سيروس تشبه الشعاب المرجانية بكائنات المرجان العالقة عليها، باستثناء الضوضاء. كانت الكائنات الحية عالقة في كل شق وصدع، لكن تحت الماء لم يكن يوجد سوى الصمت العميق الذي تحس بذبذباته في عظامك. لم تحب هذه المدينة كما أحبها سينت قط، كانت أمي تنتمي للبحر.

سحبت القلادة من جيبي، ورفعتها لتتدلى في ضوء القمر.

لم أقصد أن آخذها، لم أكن عاقدة النية على ذلك. ولكن مع كل كلمة مؤذية انطلقت من فم سينت كانت أصابعي تشد على قلادة أمي أكثر فأكثر، حتى شعرت بأنها لم تعد تخصه بعد الآن.

طوقت عنقي بالقلادة، وشبكت أصابعي بها جاذبة إياها حتى تركت أثرًا في جلدي. لو لم تغرق إيزولد مع السفينة لارك فلربما كنا نسير في هذه الشوارع معًا الآن، كنا نجوب تلك الجسور في حين ينكب أبي على تفقد الدفاتر في مقره، ويلتقي بالتجار في الميناء، كنا نشتري الخوخ المحمص من السوق، ونعثر على مكان مرتفع لمشاهدة غروب الشمس، وعصير الخوخ الدافئ لزج في أيدينا.

كان المشهد المتخيل مثيرًا لألم طاغٍ لدرجة لم أستطع استبقاءه في ذهني، كأنه ماء مغلي يملأ دماغي.

ظهر رجل في الزقاق، وسد طريقي قائلًا: «مرحبًا». لمعت عيناه في ضوء المصباح وشفتاه المنفرجتان كشفتا عن أسنان مفقودة.

رفعت عيني إليه ويدي تمتد ناحية السكين في حزامي من دون أن أنطق بكلمة.

خطا خطوة تجاهي قائلًا: «إلى أين تذهبين؟»، فاستللت السكين.

وقلت: «دعني أمر».

انحنى نحوي فصار أقرب، ثم تعثر للأمام وهو يحاول مد يده إلى حزامي بحركة غير متقنة. وقبل أن يتمكن من جمع شتات نفسه سددت السكين لأعلى بحركة واحدة سلسة أصابت طرف أذنه.

فألقى بنفسه إلى الوراء، وتبخرت آثار الثمالة من عينيه فجأة، فتبعته على الأثر قاطعة ثلاث خطوات سريعة إلى أن صار ظهره ملتصقًا بالجدار، ورفعت النصل مثبتة إياه في

حلقه، وضغطت بما يكفي لينزف قطرة دم واحدة.

تجمد في مكانه، وانتصب في وقفته، وحدجته بنظرات مباشرة في عينيه أتحداه بها أن يجرؤ على التحرك حركة واحدة. أردت سببًا لأؤذيه، أردت ذريعة تجعلني أنكفئ للأمام حتى تغوص حافة النصل في جلده، بدا أن ذلك هو الشيء الوحيد الذي قد يخفف الألم المبرح بداخلي، الشيء الوحيد الذي قد يخفف الحرارة المستعرة التي لا تزال تلفح وجهي.

تنحى جانبًا بخطوات بطيئة، وتحرك حولي، وانطلق يذوب في الظلام وهو يرمي وابلًا من السباب. لبثت واقفة هنالك أحدق إلى الجدار، إلى أن ترامى إلى أذني صوت انكسار زجاج جعلني ألتفت، فشاهدت نافذة تنفتح عند نهاية الزقاق والضوء يظهر من ورائها، وزفرت عندما نقلت الرياح لأنفي الرائحة الحامضة المألوفة للجاودار المسكوب، واتجهت مباشرة نحو الباب.

دخلت مشربًا ذا إضاءة خافتة يعج بأشخاص جلودهم وملابسهم ملطخة بوسخ سيروس: تجار، عمال الميناء، أطقم إصلاح السفن، متكدسين في كل ركن وأياديهم قابضة على كئوس خضراء صغيرة، ورائحة الأجساد غير النظيفة تفعم المساحة الصغيرة.

لم يكن هناك سوى مقعد واحد خالٍ على المنضدة بين رجلين هائلي الجثة، فرفعت طرف إحدى قدمي، وانزلقت على المقعد، عندئذ أومأ لي الساقي برفع ذقنه نحوي، فدسست يدي في حزامي لأتصيد عملة نحاسية.

جمدت حركة يدي وأنا أشعر بثقل الحافظة، كانت أثقل، وأكثر امتلاءً.

سحبت الحبال لأفتح الحافظة، ونظرت إلى الداخل، كان ثمة ما يزيد على عشرين عملة نحاسية لم تكن موجودة في اليوم السابق. ورحت أتحسس حزامي وأنا أحاول فهم الأمر، حتى انبثقت الفكرة في ذهني فجأة لافحة إياي كأنها سوط من اللهب.

ويست.

وتراءى لي المشهد وهو واقف عند الممر الجانبي المفتوح في ماريجولد هذا الصباح، وقد عاد من الداخل، لقد ملأ الحافظة، لهذا كان ممسكًا بحزامي عندما خرج من الحجيرة.

تأفف الساقي ويده ممدودة أمامي، وقال متبرمًا: «حسنًا؟». أسقطت عملة نحاسية في راحته، وأحكمت وثاق الحافظة قبل أن يتسنى لأي أحد النظر فيها.

عقدت ذراعي على المنضدة، وطأطأت رأسي لأسفل محدقة إلى حذائي.

عرف ويست هويتي طوال الوقت، وعرف بالضبط ما سيحدث عندما أذهب إلى سينت. كان يرعى أمري، كما كان يفعل ذلك طوال العامين المنصرمين بشراء أحجار البايار عند الحاجز، حتى إن فعل ذلك بأمر من سينت، فقد فعل، لكن النقود الإضافية في حافظتي لم تجعلني مرتاحة، وقد كان ذلك تذكيرًا بأن النقود لم تكن مبتغاي الأساسي.

انسكب شيء من الكئوس المترعة حين وضعها الساقي بقوة على المنضدة أمامي، وانتقل نحو اليد التالية المرفوعة في الهواء. كانت الكئوس ذات اللون الأخضر الزمردي تتلألأ كالجواهر عندما رفعت الكأس الأولى وأنا أستنشق الرائحة النافذة للجاودار قبل أن أرتشف رشفة صغيرة.

ذكرتني الرائحة بسينت، إذ كانت ثمة كأس خضراء صغيرة رابضة على مكتبه كل ليلة وسط الدخان الضبابي الذي يملأ غرفة القبطان على السفينة لارك، هذا على الرغم من أنه لم يكن من المفترض أن يوجد أي مشروب جاودار على السفينة.

أردت أن أكرهه، أردت أن ألعنه.

لكن خلال الدقائق التي مرت منذ أن خرجت من بابه اجتاحتني حقيقة أنني لم أكرهه كرهًا خالصًا. لم أكن أعرف أي شيء عن المكان الذي أتى منه، لكنني علمت أن هذا شيء لا يروقه التحدث بشأنه. لقد بنى تجارته من الصفر، سفينة بسفينة، وحتى إن كان قد تركني وخانني، فلا يزال جزء صغير مني يحبه، ولقد عرفت السبب وراء ذلك، إيزولد.

لقد أحبت أمي سينت حبًّا بوسعه أن يشعل البحر نيرانًا، كانت تلك حقيقة صعبت عليَّ تمني هلاكه، لكن بعد أن تجرعت ثلاث كئوس من الجاودار اعتقدت أن كل شيء ممكن.

طوحت رأسي للخلف، وتجرعت الكأس كلها وأنا أعتصر أجفاني بقوة جراء إحساس الاحتراق في حلقي من أثر المشروب الذي شق الطريق إلى معدتي مشعرًا إياي بأنني أخف وزنًا على الفور، وانتشر الدفء في ساقيّ، وانكفأت على المنضدة.

ما من أحد كان من الممكن أن أركض إليه في منطقة المضايق سوى كلوف، لكنه رحل، مثلما رحلت أمي.

جثمت الفكرة في رأسي بوطأة ثقيلة، وتدافعت الدموع تملأ عينيّ. طوال المدة التي قضيتها في جزيرة جيفال لم أشعر قط بالوحدة التي تتنازعني الآن.

ترامى من وراء ظهري صوت عميق ينادي: «يا جرّافة»، والتقطت الكأس، واستدرت على المقعد.

وقف زولا متكئًا على العارضة الخشبية في جانب المشرب، وارتسمت ابتسامة على وجهه. لم يكن يرتدي قبعته، فكشف ذلك عن رأس يكتسي بشعر أسود طويل تخطه خصلات فضية.

قال: «قلت إن هذه أنت».

حدجته بصمت قبل أن أطوح رأسي للخلف، وأفرغ الكأس في جوفي.

حول عينيه الحادتين إلى الرجل بجواري، فنهض الرجل على الفور تاركًا مقعده شاغرًا، وجلس عليه زولا واضعًا عملة نحاسية على المنضدة.

ثم تساءل: «ماذا تفعلين في مشرب بمفردك ليلًا في أخطر مدينة بمنطقة المضايق؟»، وبدا أنه مستمتع بالفكرة.

وضع الساقي أمامه ثلاث كئوس مترعة بالجاودار ببطء، وهو يحرص بشدة ألا ينسكب منها شيء.

حدقت إلى وجهه وقلت: «ليس من شأنك».

انحنى ليصير أقرب، وسأل: «أين طاقمك؟».

أجبته: «إنهم ليسوا طاقمي».

ضحك نصف ضحكة وقال: «هذا أفضل. لا تحسبي أن ماريجولد ستواصل الإبحار لفترة طويلة، ولا حتى قبطانها».

تجرعت آخر كأس أمامي وأنا أسأل: «ما الذي يفترض أن يعنيه ذلك؟».

هز زولا كتفيه وهو يحدق إلى كأسه، وقال: «كل ما في الأمر أن ويست ذلك يعرف كيف يوقع نفسه في المتاعب، وفي نهاية المطاف سوف توقعه المتاعب»، ثم أمسك كأسًا وتجرعها جرعة واحدة، وأردف: «سمعت شيئًا عن جرّافة في ديرن لم يرها أحد من قبل، اكتشفت أحجارًا كريمة مزيفة. كانت أنت؟».

أجبته: «لا».

فارتكز بمرفقيه على المنضدة مشبكًا أصابعه وقال: «أنت كاذبة بارعة. هل أخبرك أحد بذلك من قبل؟».

انزلقت عيناي لمقابلة عينيه. قال كوي الأمر نفسه قبل أن يحاول قتلي.

أردف: «ليس الكذب سمة سيئة في منطقة المضايق. يمكنك التجريف، وأنت جيدة في فحص الأحجار الكريمة، وكذلك تعرفين كيف تكذبين. هل تبحثين عن عمل ضمن طاقم أم لا؟».

استدرت لمواجهته وقلت: «ليس ضمن طاقمك».

فتساءل: «ولم لا؟».

أجبته: «أنا أعرف ما فعلته بويلا».

التمعت عيناه ولاحت ابتسامة عريضة على وجهه، وقال: «لا أحسب أن عليَّ إخبارك بمقتضيات النجاة في منطقة المضايق».

قلت: «لا أكترث لأسبابك، أنا لست مهتمة بالعمل معك».

تفحصني وأنا أتجرع آخر جرعة من الجاودار، وعندما رفعت عينيّ إليه مرة أخرى كان التعبير المرتسم على وجهه قد تبدل. ضيق عينيه مفكرًا، ومال رأسه جانبًا.

سألته: «ماذا؟».

طرف بعينيه كأنه نسي لوهلة أين هو. ثم قال بصوت هامس يكاد لا يُسمع: «أنت تذكرينني بشخص ما». وتجرع آخر جرعتين على التوالي، ثم أسقط عملة نحاسية أخرى وهو يشير إلى الساقي.

هدأت أصوات المكان مع تباطؤ خفقان قلبي وتسارع زحف تأثير مشروب الجاودار في عروقي. بدا كل شيء متمددًا، وكانت أشعة الضوء أكثر ليونة.

نهض زولا، وازداد صوته عمقًا وهو يقول: «توخي الحذر بالخارج يا جرّافة».

وُضعت ثلاث كئوس أخرى مترعة بالجاودار على المنضدة، ونظرت من فوق كتفي. ذهب زولا وترك مقعده شاغرًا بجواري. في اليوم الذي التقيته لأول مرة عند ميناء ديرن قال إن كرين كان مسئول الإمدادات على سفينته، لكن سفينة زولا المسماة لونا كانت أكبر كثيرًا من ماريجولد، وقد أشرف على إدارة طاقم أكبر كثيرًا من طاقم ماريجولد، فهل كان زولا

يعرف الرجل الذي شاهدت ويست والآخرين يقتلونه أم أنه مجرد وجه بالكاد تعرف عليه وأرسله لأداء مهمة قذرة؟ وماذا اقترف هذا الرجل أيضًا بأمر من زولا؟

أنهيت الكأس التالية، وفركت وجهي بأسفل يدي. تلك الليلة على سفينة لارك، سنوات جيفال، أيام ماريجولد، جاءت جميعًا تزحف نحوي على ضوء الشموع في المشرب كأنها حشد هائج يصرخ. أردت أن أغمض عينيّ، ولا أفتحهما مرة أخرى إلى الأبد.

وضعت الكأس الثانية على المنضدة، وشمرت كمّي، وبسطت ذراعي أمامي. بدت الندبة التي نحتها سينت في ذراعي كأنها شبكة مصبات نهرية هائجة. امتدت مسارات ملساء بارزة تتلوى باتجاه معصمي، وتتبعتها بإصبعي حتى وقفت عند الطرف الأبعد، بالقرب من معصمي.

حيث ترقد السفينة لارك في الأعماق.

تناهى إليّ صوت ينادي: «فيبل؟».

سحبت كمي مرة أخرى مخفيةً ذراعي التي ضممتها إليّ، ورفعت عينيّ فرأيت ويلا. تراءت صورتها في عيني متمايلة ومتراقصة، وشعرت بغتة كأنني أهوي من فوق المقعد، فارتكزت بيدي على حافة المنضدة لأثبت نفسي.

جلست بجواري وهي تنحني إلى الإمام لتنظر إلى وجهي، وسألتني: «ما الذي تفعلينه هنا؟».

عندئذ رفعت آخر كأس وتجرعتها قبل أن أضعها على المنضدة بقوة.

فسألتني: «كم كأسًا تجرعتِ؟».

أغمضت عيني وأنا أتنفس أنفاسًا تهبط إلى صدري عبر إحساس الغثيان الزاحف إلى حلقي، وتساءلت: «وما يهمك في هذا؟».

فقالت وهي تنهض: «حسنًا. هلمي».

وقبضت على يدي، بيد أني جذبت يدي وأفلت منها، وقد كدت أسقط، فالتقطتني بذراعيها وأجلستني مرة أخرى قبل أن أنهض وأتحرك مخترقة الحشد المتكدس في المكان الذي يدور من حولنا، وعندما تعثرت وارتطمتُ بالجدار انخفضتْ ويلا بسرعة، وطرحتني على كتفها.

فقلت بتلعثم وذراعاي متدليتان: «إليكِ عني!»، لكنها لم تصغ لي. صعدنا درجًا مظلمًا، وترامت إلى أذني جلجلة مفاتيح جعلتني أفتح عينيّ، وفي اللحظة التالية كنت مستلقية على سرير.

تمتمت ويلا: «غبية».

فقلت بصوت محشرج عميق: «ماذا؟».

فعقبت: «أخبرتك بأنني كنت أحاول استكشاف ما إذا كنت تروقينني أم أنني أراك غبية».

اختلطت الكلمات في صوت واحد صارخ يتردد في رأسي. حطت ويلا دلوًا معدنية بجوار السرير، وقلبتني على جانبي وهي تفتح فمي.

قلت: «ماذا تفعـ...»

لكنني لم أكد أتم الجملة حتى انحشر إصبعها في حلقي، وجعلت أركل محاولة التحرر من قبضتها، لكنني كنت أتقيأ بالفعل، فرفعت ويلا الدلو إلى وجهي، ولكمتني على ظهري براحة كفها.

سعلت وأنا أدفعها بعيدًا وأقول: «ماذا تفعلين؟».

فضحكت وهي تنهض وقالت: «سوف تشكرينني غدًا حين لا يتبقى في عروقك سوى نصف هذا السم».

سألتها: «كيف عثرت عليّ؟».

فقالت: «لقد كنت أقتفي أثرك لساعات. وقلت إنه يجدر بي اصطحابك لسرير قبل أن تفقدي وعيك على المنضدة».

دفعتها بعيدًا مرة أخرى، وأنا أسألها: «تقتفين أثري؟».

فحدجتني قائلة: «صدقيني، هذا ليس ما وددت إهدار ليلتي فيه».

سألتها: «إذن لماذا أنت هنا؟».

فأجابت: «أوامر»، وراحت ترمقني وهي تنتظر أن تستقر الكلمات في ذهني لتشكل معنى منطقيًا. وعندما حدث ذلك أخيرًا أدركت أنها كانت تتحدث عن ويست. كان لا يزال يعمل على مهمته، ألا وهي إبقائي على قيد الحياة. سألتني: «ماذا حصل مع سينت؟».

تدحرجت لأستلقي على ظهري، وثبتُّ عينيّ على عوارض السقف، وأنا أحاول إيقاف الدوار في رأسي، ثم تمتمتُ: «بالضبط ما قلتِ إنه سوف يحصل».

عقدت ذراعيها وهي تتكئ على الجدار وقالت: «أوه، أرى ذلك. إذن هل تحسبين أنك الفتاة الوحيدة في منطقة المضايق التي لم تتحقق أحلامها؟».

فقلت بأنين: «اغربي عني».

لكنها اقتربت ووقفت فوق رأسي، ثم قالت: «هل تريدين شيئًا في هذه الحياة؟ عليك أن تأخذيه بقوة يا فيبل».

سألتها: «عم تتحدثين؟».

قالت: «تريدين الانضمام إلى طاقم على متن سفينة تجارية».

لم يكن الأمر مقتصرًا على رغبة الانضمام إلى طاقم، بل رغبت في الانضمام إلى طاقم تحت إشراف أبي، بيد أنني لم أستطع إخبارها بذلك من دون أن أحنث بوعدي لسينت.

قالت بهدوء: «تعلمين أن ماريجولد ينقصها جرّافة».

«ثم؟».

تنهدت قائلة: «ثم؟».

طرفت بعيني مفكرة، لكن كل شيء كان مبهمًا للغاية، وشديد الضبابية.

قالت مرة أخرى بصوت أعلى: «إن كنت تريدين شيئًا في هذه الحياة فعليك أن تأخذيه بقوة. لست متأكدة أن عليَّ إخبار فتاة عاشت في جيفال بذلك».

قلت: «لن يضمني ويست أبدًا».

فقالت: «أخبرتك بأن لديه عادة حل أزمات الآخرين كأنها أزمته الشخصية».

كانت محقة. لم تكن لديَّ أية فرصة مع أي قبطان في الميناء هنالك، وما لم أطلعهم على مهارتي في فحص الأحجار الكريمة فلن يرغب أحد في التعامل مع جرّافة من جزيرة جيفال لم يعرفوا عنها شيئًا، وقد كانت تلك مخاطرة لا يمكنني تحملها، إذ وجد خبراء الأحجار الكريمة أنفسهم فريسة للتجار المتناحرين وبيادق في يد نقابات الأحجار الكريمة، لدرجة أن تلك المهارة أصبحت مصدر خطر آخر يمكن أن يفتك بصاحبه.

لكن إن كنت سأصل إلى لارك فأنا بحاجة إلى سفينة. سألتها: «هل أخبرك بأن تقتفي أثري؟».

تلاشى قناع الصلابة الذي لطالما ارتسم على وجه ويلا، وهي تجلس على السرير بجواري، وتساءلت عما إذا كانت هي ذاتها قد تجرعت بضع كئوس جاودار أثملتها. قالت: «اجعليه يضمك إلى طاقمه».

ما زلت غير متأكدة من طبيعة عمل ماريجولد بالضبط، لكن لا يمكن أن يكون أسوأ من العمل الفاسد الذي اضطلع به سينت، أو ربما هو أسوأ. في غضون أيام قلائل اكتشفت أن طاقم ويست كان يحاول استباق عدة أعداء، وإن كنت سأنضم إليهم فأنا بحاجة إلى معرفة ما أتعامل معه بالضبط.

انتهزت الفرصة لطرح هذا السؤال: «ماذا حدث للتاجر في مدينة سوان؟».

ألقت ويلا ببصرها إلى خارج النافذة، وتعمق صوتها وهي تجيب: «اقترف ويست شيئًا سيئًا بحق رجل صالح لأنه اضطر إلى ذلك. والآن عليه أن يتعايش مع الأمر ويتقبل تبعاته».

الفصل الخامس والعشرون

كل جزء من جسمي يؤلمني.

تسللت أشعة الضوء إلى الغرفة فأحسست بها تخترق جمجمتي كأنها سكاكين. نظرت بعين واحدة مفتوحة، وازدردت الرغبة في التقيؤ مرة أخرى. نظرت بجوار السرير فلم أجد الدلو التي كنت أتقيأ فيها طيلة الليل، وكانت النافذة قد انفتحت فهب هواء البحر إلى الداخل، وأنهضت جذعي ببطء لأجلس، لم تعد الغرفة تدور.

رأيت حوض ماء مثبتًا على حامل في الزاوية، فتوجهت إليه وغسلت وجهي، وتمضمضت بأفضل ما استطعت، ثم أعدت تضفير شعري، وسقط ضوء الصباح على الضفائر المصطبغة بطيف من اللون الأحمر فبدت ضاربة إلى اللون الأرجواني. رأيت حزامي موضوعًا على الأرضية بجوار السرير، وأمسكت بحافظة النقود ملقية إياها في الهواء قبل أن تقع في يدي مرة أخرى. إن كانت ويلا تقول الحقيقة وكان ويست قد أمرها باقتفاء أثري فلربما ثمة فرصة لأجعله يضمني إلى طاقمه.

كانت الحركة قد دبت بالفعل في المشرب بالأسفل. سمعت قرقعة أكواب الشاي والأصوات وأنا أهبط، وأخذت كل خطوة بحذر والطنين يتوالى في رأسي، وحالما ظهرتُ بالأسفل رفعتْ ويلا يدها من مقعد عند الزاوية، ولاحت ابتسامة عريضة على وجهها، ولمحتها تعض شفتها كي لا تنفجر ضحكًا.

انكفأ باج وأوستر وهاميش على أطباق الخبز والزبد، وحيوني بأفواه ممتلئة.

وقطع أوستر قطعة خبز من رغيف ومدها نحوي وهو يقول: «انظروا ما الذي جرفته أمواج الجاودار». هززت رأسي وأنا أعثر لنفسي على مكان للجلوس بجوار باج، لكن أوستر دفع قطعة الخبز نحوي وقال: «صدقيني أنت بحاجة إلى إدخال شيء لمعدتك».

وضعت ويلا كوب شاي أمامي، وملأته بشاي أسود تتصاعد منه ألسنة البخار. وعندما دوى صوت اصطدام طبق على مائدة من خلفنا جفلتُ، وانفجر الألم في رأسي، فدفنت وجهي في يديّ، وحاولت التنفس.

أسقط أوستر قطعتيْ سكر في الكوب. كان شعره مضمومًا للوراء فتبدت صفحة وجهه واضحة، وقال: «إذن ماذا حدث لخطتك التي استهدفت الانضمام لطاقم من أطقم سينت؟».

غمغمتُ: «لم... تنجح».

ضحك وقال: «كنت سأخبرك بأنها لن تنجح».

فرددت ويلا صدى الجملة قائلة: «لقد أخبرتك بأنها لن تنجح».

وقد كانت محقة. حتى إن كنت ابنته، إلا أن سينت هو سينت.

راقبني باج من فوق حافة كوبه، وسأل: «ماذا ستفعلين؟».

عبثتُ بعصبية بطرف الضمادة القماشية الملفوفة حول يدي. لقد كان هذا الطاقم أفضل من أغلبية الطواقم، حتى إن كان طاقمًا صغيرًا، ويوقع نفسه في المتاعب. لم يضع أحدهم نصله في حلقي، باستثناء الليلة التي صعدت فيها السلم إلى سفينتهم. لقد اعتنى كل فرد منهم بالآخر، وتاجروا بذكاء، حتى إن كانت تجارتهم محفوفة بالمخاطر. كانت ثمة أرجوحة شبكية مُتاحة على سفينة ماريجولد، وفي الحقيقة لم يكن هناك مكان آخر أذهب إليه.

التقت عيناي بعينيْ ويلا، واستنشقت نفسًا عميقًا، ثم سألت: «أين ويست؟».

زحفت عيناها نحو الدرج وقالت: «لم ينزل بعد».

ارتشفتُ رشفة حذرة من الشاي. إن طلبت الانضمام إليهم في غياب ويست فلربما تكون لديَّ فرصة أفضل لكسب الآراء المؤيدة، بيد أنني بذلك سأجعل بيني وبين ويست عداوة حين يكتشف الأمر. يستحسن الانتظار.

قال هاميش: «على الأرجح أنه خرج مبكرًا»، وأخرج دفتره الجلدي من سترته، ووضعه على الطاولة، ثم أردف: «حسنًا يا ويلا، أنت وأوستر ستعملان على توفير إمدادات مطبخ السفينة. فقط املآ برميل الحبوب، وسنتدبر أمرنا من دون لحوم».

بدا أوستر مستاءً وهو يقول: «ماذا؟».

تنهد هاميش قائلًا: «نحتاج إلى الإمساك في النفقات حتى نصل إلى مدينة سوان إن كنا نريد تعويض تكاليف الخسائر التي خسرناها وثمن الإصلاحات».

هز أوستر رأسه قائلًا: «أنا أكره العصيدة».

حدجه هاميش وقال: «حسنًا، لن تأكل غيرها إلى أن نقدم مرة أخرى على سيروس، وربما لفترة أطول من ذلك»، ثم أردف: «يا باج، نحتاج إلى استبدال حبال السفينة التالفة، لكن لا تذهب إلى ذلك الوغد في حي الساحل مرة أخرى، فأسعاره باهظة، وبعد هذه العاصفة سوف يساومنا لوجود العديد من السفن التي تبحث عن إصلاحات».

ارتكزت ويلا على مرفقيها وقالت: «وهيكل السفينة؟ يجب أن نعود إلى المياه بأسرع ما يمكن».

فقال هاميش: «إن الطاقم الذي استأجرناه عمل طوال الليل على إصلاح الهيكل، لذا من المفترض أن يتموا الإصلاحات الطارئة هذا الصباح. فلنذهب إلى الميناء ونتفقد الحبال

أولًا، على الأرجح أن ويست هنالك بالفعل، ويمكنني تزويدك بالأرقام الدقيقة للحبال التي تحتاج إلى استبدال».

بسط باج طبقة سميكة من المربى بظهر الملعقة على شريحة خبز أخرى وقال: «حسنًا».

وضع هاميش بضع علامات أخرى على الصفحة قبل أن يغلق الدفتر وينهض، فتبعه الآخرون في حين رفعت عيني أحدق إليهم. لقد ارتدوا قبعاتهم وستراتهم وهم يحتسون بقية الشاي، وملأ أوستر جيوبه بالخبز المتبقي على المائدة، في حين أخذ باج بقايا الطعام المتبقية على المائدة المجاورة لنا ذات المقاعد الشاغرة.

أومأت ويلا بذقنها تجاه الباب وقالت: «هلمي يا جرَّافة».

ترددتُ وأنا أتطلع للآخرين في انتظار اعتراض، لكن لم يند عن أحد منهم اعتراض. وقف الأربعة منتظرين تحت ضوء الصباح اللطيف المتدفق من النافذة، وضغطت شفتي معًا لأمنع نفسي من الابتسام، ثم عببت الشاي، واتبعتهم إلى الزقاق.

قلت بصوت منخفض لا يُسمِع سوى ويلا: «لن يوافق أبدًا».

فقالت: «إذن يجدر بك أن تقدمي حجة قوية إذا أردت كسب أغلبية الأصوات مقابل صوته».

كانت محقة، لم أكن بحاجة إلى موافقة ويست، كل ما أحتاج إليه هو أغلبية الأصوات. لم يكن ثمة ما يمكن أن يفعله حيال الأمر إن أراد الطاقم ضمي. سيضطر إلى الإذعان.

غمزت لي قبل أن تنطلق للأمام تاركة إياي في ذيل الطابور.

عجت الجسور من فوقنا بالناس، وانطلقنا عبر الشوارع قاطعين ممرات ضيقة ومنعطفات حادة حتى بلغنا الطرقات المرصوفة بالحصى في حي الساحل. ضربتنا الرياح بقوة كأنها جدار يصدمنا ونحن ننطلق في الشوارع، وترامى البحر أمامنا، خلف صف لا نهاية له من

السفن المتمايلة أمام الأرصفة البحرية. احتشد الأطفال حفاة الأقدام حولنا ووجوههم ملطخة بالسخام والأوساخ وأيديهم مبسوطة.

إنهم متشردو حي الساحل، مثلما كان ويست.

لم أستطع أن أتخيله بشعره الأشقر وجلده الذهبي يتسول الطعام في زوايا الشوارع، وينبش القمامة في الأزقة، لم أرغب في تخيل ذلك.

سحب باج الخبز من جيوبه ومزقه إلى قطع وناولهم إياها، بينما رفع أوستر قطع الخبز التي معه في الهواء، وبعد هنيهة ظهر سرب من الطيور البحرية ينقر القطع من يديه وهو يسير.

كانت ويلا تسير أمامي مباشرة، توقفت فجأة فاصطدمتُ بها في حين ندت عنها شهقة مكتومة. عندئذٍ اجتاح شعور بالوخز كل أنملة من جلدي، وجال بصري في الأنحاء بحثًا في الأرصفة عن ما كانت تراه. مد باج يده إلى الخلف مفتشًا عن يد أوستر، وتجمد هاميش في مكانه، واتجهت جميع الأوجه إلى الأعلى نحو شيء في الأفق.

قالت ويلا بصوت هامس: «لا».

تجاوزتها وتحول شعور الوخز الذي اجتاح جلدي إلى نار ملتهبة تلفحني حين وقعت عيناي عليها.

سفينة ماريجولد.

ارتفعت صواريها باتجاه السماء الزرقاء، ولاحت أشرعتها ممزقة، كل شراع من الأشرعة ممزق إلى شرائح بيضاء ترفرف في الرياح.

انطلق باج وأوستر يركضان وأحذيتهما تصفع الحجارة المبللة في الطريق، وضغط هاميش بقبضة يده على فمه.

قلت بتلعثم: «ماذا...مَن...؟»

لكن ويلا كانت بالفعل تلتف حول نفسها وبصرها يجوب طول خط السفن الراسية حولنا إلى أن رأت الشعار الذي تفتش عنه، سفينة لونا.

ثم زمجرتْ قائلة: «زولا...»

ركضنا خلف أوستر وباج، واخترقنا حشد الناس الذين كانوا متجمعين بالفعل حول السفينة يحدقون إلى الحادث. كان الرجلان اللذان استأجرهما هاميش لحراسة السفينة طريحين على الأرض في بركة من دمائهما اللزجة، وعيونهما شاخصة على اتساعها تحدق إلى السماء بنظرة خاوية.

راحت ويلا تنادي وهي ترتقي السلم بأقصى سرعة تستطيعها: «ويست!». تبعتها وراحتاي تحترقان من احتكاك الحبال القوي، لكن أوستر وباج كانا منتظرين بالفعل على سطح السفينة.

قال باج وعيناه ما زالتا معلقتين على الأشرعة الممزقة: «إنه ليس هنا».

النظرة التي ارتسمت على وجهه كانت مطابقة للنظرة على وجهيْ القتيلين بالأسفل، لقد كان ذلك بمثابة حكم بالإعدام، فتكلفة مجموعة جديدة من الأشرعة ستفرغ الخزائن، والوقت الذي يستغرقه إصلاحها سيؤدي إلى تأخرها أكثر وأكثر في خط سيرها.
سيتكبدون خسائر أكثر من التي تكبدوها في خضم العاصفة، إن أصيب تاجر ثري يملك العديد من السفن بهذا المصاب فستكون تلك مجرد خبطة، أما بالنسبة إلى طاقم سفينة مثل ماريجولد فسيؤدي هذا إلى الانهيار.

اصطبغ خدا هاميش بحمرة عميقة وهو يفر دفتره بعصبية وإبهامه يمشط الصفحات ذهابًا وإيابًا. لم تكن ثمة طريقة لحساب هذا أو تفاديه. لقد انتقم زولا لعملية القتل، بسرعة ودقة.

ذهبت ويلا إلى السور والشرر يتطاير من وجهها. وعلى مسافة ثلاث قنوات مائية كان زولا واقفًا على سطح سفينته لونا وبصره موجه نحونا.

ثم قالت بصوت هامس والدموع تنهمر على خديها: «لأقتلنه. لأذبحنه ذبحًا وأحطم عظامه بيديّ هاتين وهو لا يزال على قيد الحياة ويتنفس».

عندئذٍ قلت وأنا أستحضر ذكرى زولا في ضباب الليلة السابقة: «لقد أخبرني».

أتى هاميش والبقية ليقفوا بجوارنا، وتساءل: «ماذا؟».

فقلت: «أخبرني الليلة الفائتة بعدم مواصلة الإبحار لفترة طويلة».

صرت ويلا بأسنانها من الغيظ والحنق، والدم يتدفق سيلًا إلى وجهها. لم يكن ذلك كل ما قاله.

لا تحسبي أن ماريجولد ستواصل الإبحار لفترة طويلة، ولا حتى قبطانها.

تحولت الرياح إلى رياح باردة فجأة، وجعلتْ تتلوى وتدور حولنا على سطح السفينة الفارغ، إلى أن طوقت نفسي بذراعي.

ولا حتى قبطانها...

بدا أن الخاطرة ذاتها لطمت الجميع في اللحظة ذاتها، واعترى وجوههم التغير نفسه تقريبًا.

اتسعت عينا ويلا فجأة، وامتلأت بالرعب، ثم قالت: «أين ويست؟».

الفصل السادس والعشرون

أمسك باج بمدير الميناء من سترته وخبطه في العمود القائم في وسط الحشد وهو يسأله: «من رأى ذلك؟».

انطلقت الأصوات في كل مكان حولنا، وتركزت جميع الأعين على ماريجولد.

زأر باج متسائلًا: «من؟».

استل الرجل نفسه ليتحرر من قبضة باج، وراح يعدل ياقة قميصه وهو يقول: «أخبرتك... حين أشرقت الشمس كانت الأشرعة ممزقة، ما من أحد رأى أي شيء».

إن رأى أحد ما حصل فلن ينطق بكلمة. كان ثمة ميثاق في منطقة المضايق بين التجار لم يخالفه أحد مطلقًا، إن رأيت شيئًا فاحتفظ به لنفسك. ما من أحد يريد استقطاب هذا النوع من المتاعب لنفسه، وذلك ما عول عليه زولا في إقدامه على فعلته تلك، إذ لو علم مجلس التجارة بجرمه، وثبت اسمه في التحقيق فقد يفقد رخصته عقابًا على تمزيقه أشرعة سفينة أخرى، لكن ما من أحد سيفتح فمه بكلمة واحدة.

طوح مدير الميناء بيده نحو الجثتين على الأرض، وقال: «يجدر بك أن تعثر على قبطانك. لست في حاجة ملحة إلى نقودك لدرجة تجعلني مضطرًا إلى التعامل مع هذه الفوضى على أرصفتي»، واستدار على عقبيه منطلقًا في الممر، وتفرق الحشد من حولنا ببطء.

اخترقتنا ويلا قائلة: «فلنمضِ»، وقادت طريق عودتنا إلى حي الساحل. مشينا في صف واحد، وراقب أوستر وباج الأبواب والنوافذ في أثناء مرورنا.

اشتد خفقان قلبي في صدري وأنا أحاول أن أتذكر ما إذا كنت قد رأيت ويست في زحام المشرب الليلة الفائتة. لم أره.. أو ربما رأيته.. لم أتذكر سوى ويلا، وزولا، والرجل في الزقاق

الذي أشهرت عليه سكيني.

دفع باج باب المشرب، وارتقينا العتبات الخشبية مباشرة إلى الردهة المعتمة. لم تطرق ويلا الباب، فقط اندفعت بكتفها تخبطه حتى انكسر القفل، وانفتح الباب.

كانت الغرفة نظيفة، والبطانية الصوف الرمادية مفروشة على السرير بشكل مرتب.
أحسست بأن قلبي يسقط في أعماقي.

لم ينم ويست هنا الليلة الفائتة.

بدا صوت ويلا واهنًا وهي تسأل: «من آخر شخص رآه؟»، وبدت الهشاشة غريبة جدًّا عليها. ولاح الاستغراب عليهم جميعًا. كانوا خائفين. أردفت ويلا: «فكروا. من آخر شخص رآه؟».

قال أوستر: «ليلة أمس. تناول العشاء و...»، ثم مرر يده عبر شعره الداكن المسترسل مفكرًا وأردف: «لست أدري ما إذا كنت قد رأيته يصعد الدرج».

قال هاميش: «لم يصعد»، وأومأ برأسه صوب الطاولة الصغيرة في الزاوية حيث لاحت هنالك شمعة لم يشتعل فتيلها في الشمعدان. ربما لم تطأ قدمه الغرفة قط.

ذرعت ويلا المكان أمام النافذة وأصابعها تنقر على الأزرار في سترتها.

ثم قالت: «يا هاميش، امض إلى سينت، وانظر ما إذا كان قد سمع شيئًا عنه، ربما ذهب إلى وادي الضنك الليلة الفائتة. باج وأوستر، تفقدا كل مشرب في أرجاء المدينة. وأنا وفيبل سوف نذهب إلى مقر المُقايض بعد أن نتحدث إلى الساقي».

انطلقوا على الدرج بعد لحظة، وبمجرد أن غابوا عن الأنظار زفرت ويلا زفرة طويلة، وماجت عيناها بالدموع.

تفحصت وجهها بعناية وأنا أسألها: «ماذا يجول في خاطرك؟». الآن قد ولى الغضب الذي اتقدت به هنالك على الأرصفة البحرية، ولم يتبق سوى الخوف.

قالت: «يجول في خاطري أنني سأحرق هذه المدينة حرقًا إلى أن أجده».

مرت أمامي، وتبعتها على الدرج مباشرة صوب منضدة الساقي، حيث انكب الساقي على تجميع كئوس خضراء نظيفة في صفوف مرتبة. أخذت ويلا زجاجة جاودار كانت أمامه، فرفع بصره إليها ورمقها بنظرات من أعلى عينيه.

تساءل الساقي: «ما الأمر يا ويلا؟».

كل ذرة هشاشة بدت عليها في الطابق العلوي قد تبددت، وحل محلها وجه التجار القاسي البارد. سألته: «هل رأيت ويست الليلة الماضية؟»، وفتحت الزجاجة وتجرعت جرعة طويلة.

انحنى الساقي على المنضدة ناظرًا بيننا وقال: «لا، لماذا؟».

خيم هدوء غريب على نبرتها وهي تسأله: «أسمعت أي حديث بشأنه؟»، ولاحت نظرة في عينيها تكاد تكون خالية من أي طيف للحياة.

فقال: «لا شأن لي بالقيل والقال»، والتقط كأسًا أخرى متجاهلًا إياها.

فقالت: «هذا شأنك الآن»، وقلبت الزجاجة رأسًا على عقب، فانسكب الجاودار على المنضدة متدفقًا فوق الحافة حتى وصل إلى المقاعد، وتجمع في بركة عند أقدامنا.

مد يده عبر المنضدة وهو يقول: «ما هذا بحق الـ...؟»، لكنها بالفعل كانت قد أمسكت بزجاجة أخرى في يدها، وأسقطتها على الأرضية الخشبية، فتحطمت إلى شظايا من حولنا، وعرفت ما كانت ستفعله قبل أن تفعله، ثم استدارت على عقبيها، وسارت بجواره مجتازة

إياه إلى الجدار المعلق عليه مصباح زجاجي يحوي ثلاث شموع مشتعلة، فرفعته من مكانه على الخطاف، وأمسكته أمامه.

فرفع الرجل يديه أمامه، وثبتت عيناه المتسعتان على المصباح قائلًا: «ويلا...»

حام المصباح فوق بركة الجاودار عند قدمي ويلا، وكنا نعلم جميعًا ما سيحدث إذا أسقطته. سوف يشتعل المشرب على الفور، وسوف تحترق الأرضية، وتنتشر النار إلى كل مبنى متاخم لهذا المبنى، سيحدث ذلك بسرعة فائقة تفوق قدرة أي شخص على احتوائها. حريق في مدينة كهذه يعني هلاكًا مضمونًا لنا جميعًا.

لقد كانت جادة حين تحدثت عن حرق المدينة حرقًا.

كررت كلامها ببطء والشمع يتقاطر من الشمعة على زجاج المصباح: «هل سمعت أي حديث بشأن ويست الليلة الفائتة؟».

اقترب خطوة وقد سرت في يديه ارتعاشة وقال: «ربما! ربما تحدث بشأنه مسئول حسابات من إحدى السفن التجارية».

سألته: «من؟».

فأجاب: «لست أدري... أقسم... سأل فقط عما إذا كان طاقم ماريجولد يقيم هنا».

مال رأسها جانبًا وهي تسأله: «وماذا قلت له؟».

فازدرد ريقه قائلًا: «قلت إنكم تقيمون هنا. هذا كل شيء. ما من شيء آخر. أقسم إنني لا أعرف أي شيء آخر».

فحدقت ويلا إلى اللهب الأبيض الساخن، وقالت: «ظننت ألا شأن لك بالقيل والقال»، ثم أردفت: «إن لم أجد ويست قبل غروب الشمس فسوف أعود، وقبل أن أضرم النيران في

هذا المشرب سوف أثبت جسدك على تلك المنضدة».

أومأ برأسه بحركة محمومة، ولمعان العرق يتألق عند منبت شعره. لقد كان منظرها مثيرًا للرعب في النفس، ووجهها المليح قد شوهته ندبة النصل الساخن. فتحتْ باب المصباح، وأطفأت الشمعة قبل أن تسقطه على الأرض ليتحطم إلى شظايا تناثرت فوق الأرضية الخشبية.

ثم فتحت الباب وقالت: «هلمي»، فامتلأ المشرب بضوء النهار، وخرجنا إلى الشارع.

تبعتها مرة أخرى نحو الميناء، وانطلقنا في الأزقة ذاتها التي قطعناها صباحًا، ولكن هذه المرة بخطوات سريعة. نثرت أحذيتنا الوحل، واندفعنا عبر الأجساد التي تكتظ بها الشوارع حتى اصطدمت بنا رائحة البحر الباردة مزيلة الرائحة الكريهة للمدينة. قادتنا ويلا بعيدًا عن الأرصفة البحرية، حيث تكدست أكواخ حي الساحل مشكلّة متاهة من الهياكل المتعفنة المائلة.

قلت وأنا أحاول مجاراتها: «ظننت أننا ذاهبتان إلى مقر المقايض».

لكنها لم تحر جوابًا، وانطلقت تنعطف يمنة ويسرة من دون النظر في محيطها، كأنها كانت تعرف وجهتها بالضبط.

عندما توقفت أمام إطار باب فارغ أغمدت سكينها في حزامها، وأخذت نفسًا عميقًا قبل أن تستدير لتواجهني، ثم سألتني: «هل يمكنني الوثوق بك؟».

قلت: «نعم»، واندهشتُ من سرعة جوابي، لم أتلكأ ولو لحظة للتفكير في الأمر.

وقبل أن تدلف إلى الداخل نظرت في عيني وقالت: «فليظل هذا سرًّا بيني وبينك. أنا وأنت فقط».

كانت قذارة المدينة أشد سوءًا في هذه الغرفة الضيقة المظلمة. لقد كانت مقفرة، لم يكن يوجد أي أثاث تقريبًا، والجدران خالية لا تحمل أي شيء. هواؤها خانق، ما جعل التنفس صعبًا. لم تنضوِ الغرفة إلا على كرسي خشبي صغير بجوار النافذة، حيث شاهدت هنالك ما يشبه المطبخ، يتألف من حوض وحاوية صغيرة تستعمل لإشعال النيران فيها.

نادت ويلا: «أمي؟».

فتجمدت خطواتي.

وأتى الجواب بصوت عالي النبرة: «إمممم».

تكيفت عيناي مع ظلام الغرفة ببطء. وظهر شبح امرأة في الزاوية المعتمة بهيكل نحيف يشبه العصا. طوقت عظام كتفيها البارزة بشال أرجواني، ولاحت مسحة حمرة على شفتيها الرقيقتين.

جلست ويلا بجوارها، ومدت يدها فأمسكتها المرأة التي ابتسمت وهي تطرف ببطء وتقول: «ويلا».

لقد رأيت كثيرًا من النساء على شاكلتها في حي الساحل، فقيرات جائعات يبعن أنفسهن للتجار الذين يرسون بسفنهم لليلة، وينتهي بهن المطاف ببطون منتفخة، وهذا هو السبب وراء امتلاء حي الساحل بالأطفال.

تحدثت ويلا بلين: «أمي، هل أتى ويست هنا؟ ليلة أمس؟».

جال بصري في شتى أرجاء الغرفة بحثًا عن أي أثر له، وهبطت عيناي على سلة تحوي لفتًا موضوعة في الزاوية بجوار برطمان يحوي سمكًا مخللًا وعلبة شاي مغلقة. لعله اعتبر أزمة أم ويلا من أزماته الشخصية أيضًا.

أومأت المرأة برأسها، لكن الإعياء بدا عليها.

فسألتها ويلا: «متى؟ متى جاء؟».

فسحبت المرأة يدها من يد ويلا وقالت وهي تميل إلى الجدار وتغمض عينيها: «ليلة أمس. أخبرتك».

نهضت ويلا وبصرها يذرع الأرضية جيئة وذهابًا وهي مستغرقة في التفكير.

همست أسألها: «لم عساه يأتي إلى هنا؟».

تورد وجه ويلا وأعرضت عني، ثم شدت لحافًا من حيث هو معلق على مسمار في الحائط، وغطت به المرأة.

قالت المرأة: «إنه شديد النحافة يا ويلا، يجب أن يأكل».

فردت ويلا: «أعرف يا أمي».

عادت المرأة تقول: «ينبغي أن تتأكدي من أنه يأكل».

فهمست ويلا: «سوف أفعل يا أمي. اخلدي للنوم».

تحركت ويلا من حولي، وحدقتُ إلى المرأة لوهلة والحزن يتكاثف على وجهها. كان سريرها الصغير قديمًا، وهيكله بالكاد متماسكًا، والخزانة الصغيرة تكاد تكون فارغة إلا من بعض الطعام.

تبعت ويلا إلى الخارج، لكنها وقفت في الزقاق، وجمدت في مكانها.

انتظرت أن تنظر إليّ. وسألتها: «ماذا كان يفعل هنا؟».

فتململت في وقفتها ويداها تندسان في جيبيها وقالت: «إنه يعتني بها».

عدت أسألها: «لماذا؟».

فأجابت: «لأنه ما من أحد آخر سيفعل ذلك».

عندئذٍ لطمتني الخاطرة بغتة، فضحتها النظرة المرتسمة على وجهها. سألتها: «هل هو... هل ويست شقيقك؟».

لم ترمش رمشة، ولم تتنفس نفسًا واحدًا.

إياكِ - مهما تكن الظروف - أن تكشفي لأحد عن أشياء تهمك أو أشخاص ذوي شأن عندك.

همستُ: «هل يعرف الآخرون؟».

فأسقطت عينيها أرضًا، لقد أبقيا الأمر سرًّا حتى عن رفاقهما في الطاقم.

ثم قالت بنبرة يائسة فجأة: «إن أخبرتِ أحدًا فسوف أقتلك. لن أكون راغبة في ذلك، لكنني سأفعلها».

أومأتُ بإيماءة واحدة. لقد فهمت هذا النوع من الأسرار، مثل تلك المعلومات من شأنها أن تسلبك كل شيء.

لبثت ويلا جامدة في مكانها وهي ترسل بصرها من فوق كتفي، فاستدرت لأرى صبيًّا حافي القدمين غارقًا في ملابس فضفاضة من ملابس الرجال، ويقف في الطريق أمامنا، راح يعتصر يديه بعصبية وهو يلقي نظرة من فوق كتفه نحو ويلا.

بدا كأنهما تشاركا سرًّا ما، وغادر الصبي فجأة، فتبعته ويلا تركض وراءه. انطلقنا في المسار الملتوي والصبي يتوارى في المنعطفات أمامنا حتى اقتربنا من زاوية كوخ، فتوقف وقفز على حافة سطح متهالك، وربض هنالك كأنه طائر، ثم أشار إلى كومة من الصناديق قبل أن ينهض وينطلق فوق الجدار، واختفى.

خطونا نحو البقعة التي أضاءتها أشعة الشمس على الأرض الرطبة، وشهقتُ شهقة حادة بينما كانت ويلا تطيح بالصناديق ملقية إياها على الأرض. وتجمدت ويلا قبل أن تتهاوى حين انطرحت أمامها يد مبسوطة في البقعة المشمسة.

ويست.

الفصل السابع والعشرون

جررتُ السرير من أغطيته في حين تعاون أوستر وباج على حمل ويست والصعود به على درج المشرب، والمعالج في أعقابهما. طرحاه على السرير وأضاء ضوء الشموع وجهه. لقد تعرض للضرب المبرح ووجهه منتفخ ودامٍ، لكن ما من أحد يعرف مدى سوء الوضع.

وضع المعالج حقيبته على الأرض، وشمر كمي قميصه قبل أن يشرع في عمله.

تمتم قائلًا: «ماء، وقماش... ويستحسن إحضار بعض الجاودار أيضًا».

أومأ باج بإيماءة قوية، ومضى خارجًا من الباب.

انكفأت ويلا على ويست وإحدى يديها تلمس برفق الجرح المفتوح في جبينه، وسألته: «ماذا حصل؟».

ندت عنه حركة انقباض، واستنشق نفسًا في حين ضغط المعالج على ضلوعه بأطراف أصابعه، ثم أجابها: «زولا»، كانت الإجابة متوقعة على الأرجح، وأردف: «ما كان ينبغي أن نغادر السفينة. ليس بعدما حدث في ديرن».

انزاحت عينا ويلا لتلتقي بعينيّ. لم ينطق بكلمة واحدة عن ماريجولد، لكن لا شك أنه علم ما أصاب الأشرعة.

عاد باج بالطلبات، ومد ويست يده باتجاه زجاجة الجاودار قبل أن يفتحها أوستر حتى، ثم تجرعها كلها بنهم. استلقى على ظهره وصدره يعلو ويهبط، وراح ينقبض من الألم.

ثم رفع عينيه فجأة، كأنه قد رآني للتو فالتقت أعيننا، وسأل: «ما الذي تفعلينه هنا؟».

حاولت أن أبتسم، لكنها كانت ابتسامة واهنة، وقلت: «كنت أنتشلك خارج تلك الأزقة». لم ترقني رؤيته وهو غارق في الدماء، وأثار منظره ألمًا يضطرب في بطني.

وقبل أن تخونني تعابير وجهي اندفعت إلى الردهة لأراقب المكان في حين انكب المعالج على عمله على ضوء الشموع تحت جنح الليل.

امتلأت الأرضية بالضمادات المستعملة وآثار الأقدام الموحلة، وكان ويست يتأوه، ويغمغم باللعنات مع كل لمسة من يدي المعالج. وعندما انحنى المعالج مقتربًا منه كرة أخرى دفعه ويست إلى الخلف حتى كاد يطيح به من مقعده.

ضحك أوستر بجواره وهو يمسح لطخة من دم ويست عند موضع من ذراعه فوق وشم الثعبانين المتشابكين، بيد أنها كانت ضحكة فاترة. وقف الطاقم على بعد ثلاثة أمتار من ويست، وكان القلق الصامت محفورًا في وجوههم.

جلس ويست مؤرجحًا ساقيه على جانب السرير، وارتكز على مرفقيه منكفئًا إلى الأمام حتى يتمكن المعالج من خياطة الجرح العميق على كتفه من الخلف. بدا جلد ظهره وذراعيه ضاربًا إلى اللون الذهبي العميق في الضوء الدافئ، لكن انتشرت على جلده كدمات ورضوض باللونين الأسود والأزرق كأنها بقع حبر على قماش.

همست وأنا أقترب من ويلا: «كم كان عمرك عندما أخذك سينت؟».

فزفرت زفرة طويلة وهي تحدق إلى حذائها كأنها تحاول أن تقرر ما إذا كانت ستجيب، ثم قالت: «لم يأخذني».

سألتها: «إذن كيف انتهى بك المطاف على ماريجولد».

أومأت بذقنها ناحية ويست، وقالت: «هذا الوغد الغبي»، وأردفت وهي تبتسم ابتسامة حزينة: «أخذه تاجر بصفته متشردًا من متشردي حي الساحل عندما كان في التاسعة من

عمره، وبعد عام عاد من أجلي، تسللنا إلى السفينة في منتصف الليل، وفي الصباح التالي وقد أوغلنا في البحر تظاهر بأنه اكتشف وجودي بصفتي راكبة متهربة من دفع الثمن. لقد أقنع القبطان بإبقائي على متن السفينة لأنني كنت صغيرة، ويمكنني تسلق الصواري أسرع من أي أحد آخر».

هذا ما قصدته ويلا عندما قالت إنها لم تختر هذه الحياة، لقد اختارها ويست لها. سألتها: «ووافق؟».

هزت كتفيها وأجابت: «لم يلقني في الماء. قال إنه يجدر بي أن أتعلم كيف أنجو، وإلا فليس لي مكان على سطح البحر».

همست أسألها: «هل تمنيت لو أنه لم يصطحبك إلى تلك السفينة قط؟».

فأجابت بلا تردد: «كل يوم، لكنه لم يود أن يتركني في حي الساحل. والآن لا أريد أن أتركه على ماريجولد».

كانت تلك هي اللعنة التي تلقي بأغلالها على أي إنسان يحب أي إنسان في منطقة المضايق. من خلال الباب الموارب كان بوسعي رؤية ويست وهو يغمض عينيه والمعالج يقص بقية الخيط الذي خاط به جرحه.

مالت ويلا مقتربة مني، وخفضت صوتها وهي تسألني: «ماذا بينك وبين سينت بالمناسبة؟».

انتصبت في وقفتي وأنا أسألها: «ماذا تقصدين؟».

فقالت: «أقصد، ما الباعث على عبور منطقة المضايق من أجل الإبحار ضمن طاقم من طواقم رجل مثل ذاك الرجل؟ لا يمكن أن تكوني قد ظننتِ حقًّا أنه سيقبلك».

حدقت إليها وأنا أصر على أسناني، وقلت: «أنا...»

اندفع المعالج خارجًا من الباب وحقيبته مضمومة إلى صدره، وهبط الدرج متأففًا وقميصه الأبيض ملطخ بدماء طازجة. وعبر الباب رأيت ويست يضغط على جانبه بإحدى يديه وهو يتجرع زجاجة أخرى من الجاودار.

تناهى صوته المحشرج إلى الردهة وهو يقول: «ادخلوا».

دلف الطاقم إلى الغرفة الضيقة وجميعهم يتطلعون إلى ويست. يكاد يكون نظيفًا تمامًا من أثر الدماء، لكن الغرز انتشرت على جسمه ومنظر الكدمات يزداد سوءًا. لو تُرك في متاهة حي الساحل يومًا أو يومين آخرين فلربما كان قد لفظ أنفاسه الأخيرة هنالك.

لمس زاوية شفته المنتفخة بمفصل إصبعه وقال: «أخبروني».

أخذ هاميش نفسًا عميقًا قبل أن يقول: «الأشرعة غير قابلة للإصلاح. إن أصلحناها فسوف تنهار عند أول عاصفة تضربنا. ومع الخسائر التي تكبدناها في المخزون فليس لدينا ما يكفي من النقود للإبحار بالسفينة مرة أخرى».

جال بصر ويست بيننا وهو يفكر، وتساءل: «ماذا إن اقترضنا حتى مدينة سوان؟».

هز هاميش رأسه قائلًا: «لن يقرضنا أحد هذا القدر».

مد ويست يديه قائلًا: «دعني أرَ»، فوضع هاميش دفتره فيهما.

وقفنا صامتين في حين راح ويست يقلب الصفحات وإصبعه يجري فوق الأرقام، وعندما أغلقه أخيرًا تنهد قائلًا: «سوف أذهب إلى سينت».

سقطت يد ويلا على جانبيها فجأة وقالت: «لا. إنك مدين له بالفعل».

فقال: «سوف أستزيد».

عادت ويلا تقول: «لا يا ويست».

فقاطعها: «هل تريدين معاودة الإبحار مع أي طاقم سيقبلك؟».

ضاقت عيناها وقالت: «لا، لكن على الأقل في هذا الوضع يمكنك إعادة السفينة له، وتخرج منها لا لك ولا عليك».

فرمقها بعين الشك وهو يسأل: «ونفقد ماريجولد؟».

فعقبت قائلة: «هذا خير من بيع آخر ما تبقى من روحك. إنه دين لن تتحرر من أغلاله أبدًا».

نظر ويست إلى الآخرين متسائلًا: «ماذا ترون؟».

كان هاميش أول من أجاب: «أعتقد أن ويلا محقة، لكنك أنت الآخر محق. سينت هو السبيل الوحيد للخروج من هذا المأزق».

وأومأ أوستر وباج برأسيهما بإيماءة موافقة، وهما يتحاشيان نظرة ويلا المحتدة.

تأوه ويست وهو ينهض، وعادت يده ناحية اللون الأزرق الداكن على ضلوعه.

فمدت ويلا يدها لتسنده، وسألته: «إلى أين تذهب؟».

أجابها: «إلى وادي الضنك، سنقترض من سينت، وسنعثر على طريقة أخرى للخروج من هذه الفوضى».

عندئذٍ قال أوستر وعيناه تتسعان من حيث وقف متكئًا على إطار النافذة: «أنا، إحم... لا أعتقد أنك ستحتاج إلى الذهاب لوادي الضنك كي تحادث سينت».

مضيت لأقف خلفه وأنا أطل من فوق كتفه ناحية الشارع، فرأيت شبحًا يرفل في معطف بلون أزرق عميق يتوهج في الضوء الخابي، ومن أمامه يتفرق حشد الناس كأنه بحر

منفلق.

سينت.

قال ويست: «أخرجوها من هنا»، ومرر يده عبر شعره المشعث ليضمه خلف أذنيه.

فقبضت ويلا على ذراعي، ودفعتني عبر الغرفة.

فدافعتها وأنا أقول: «انتظري»، لكن باج قبض على ذراعي الأخرى، وسحبني مرة أخرى إلى الردهة.

قالت ويلا بغضب: «هل تريدين زيادة الطين بلة؟»، وفتحتْ باب الغرفة المجاورة، ودفعتني إلى الداخل.

قلت: «هل هذا ممكن حتى؟»، وأفلتُّ ذراعي من قبضتها في حين أغلق باج الباب، وتركني وإياها في الظلام.

أشعلت ويلا الشمعة الموجودة على الطاولة، بينما أصخت أنا السمع إلى الهمهمات المتصاعدة من المشرب قبل أن أسمع دبيب خطوات ثقيلة ترتقي الدرج.

هدر صوت سينت في الردهة قائلًا: «تحركوا!»، وأعقب ذلك اصطفاق الباب.

ألصقت أذني على الجدار الخشبي الرقيق الفاصل بين غرفتنا وغرفة ويست، وكذلك فعلت ويلا، وخيم صمت مشحون بالقلق، ما جعل صوت خفقان قلبي يرن في أذنيّ.

ثم تكلم سينت بهدوء مشوب بالبرود: «أهكذا يكون القبطان في رأيك؟».

تحركت على طول الجدار بخطوات خفيفة حتى عثرت على الصدع الذي كان الضوء يتسلل من خلاله، وشاهدت ويست يقف شامخًا أمام النافذة رافعًا ذقنه رغم الألم الذي كان

يعتصره، ونظر إلى سينت في عينيه مباشرة وهو ثابت.

قال سينت: «لقد أبرمنا اتفاقًا حين منحتك ماريجولد».

فقاطعه ويست قائلًا: «أنت لم تمنحني ماريجولد».

تساءل سينت: «ماذا؟».

فكرر ويست كلامه: «أنت لم تمنحني ماريجولد».

حدجه سينت وقال: «منحتك فرصة، فرصة أن تكون قبطانًا لطاقمك الخاص وتُنمي تجارتك الخاصة. وعوضًا عن ذلك أجد سفينتي معطلة في الميناء بأشرعتها الممزقة، وطاقمك يسحبك من حي الساحل نصف ميت».

قال ويست: «زولا...»

فقاطعه الآخر بصوت عالٍ: «لا أريد حديثًا عن زولا. أريد حديثا عنك. إن كانت لديك مشكلة مع تاجر آخر فتدبر حلًّا لمشكلتك».

فقال ويست: «سأفعل يا سيدي».

أردف سينت قائلًا: «أبحر مجددًا، وابحث عن طريقة لتصحيح شئون دفاترك».

فسقطت عينا ويست إلى الأرض، وقال: «لا أستطيع».

سكن سينت، ثم سأله: «ماذا؟».

فقال ويست: «ليس لديَّ ما يكفي من النقود لشراء أشرعة جديدة، ليس بعد الخسائر التي تكبدتها في العاصفة».

تحولت عينا سينت ناحية الشقوق ومنخاراه يتسعان في بادرة غضب، ثم قال: «هل تخبرني بأن السفينة تقف كالميت في البحر؟».

أومأ ويست بإيماءة واحدة.

سأله سينت: «وتريد مني أن أحضر لك أشرعة جديدة؟».

فأجاب: «يمكنك إضافة الحساب إلى دَيني».

همست ويلا بجانبي: «لا».

وبعد لحظة ردد صاحب الدين الكلمة: «لا».

فرفع ويست عينيه متفاجئًا من إجابته في استغراب لا يخفى.

وتابع سينت قائلًا: «لا يمكنك أن تجلب الفوضى إلى بابي، ثم تطلب مني النقود لتنظيف فوضاك. إن لم تتمكن من إصلاح هذا الوضع فليس لك شأن بتلك السفينة».

بدا التشنج في عضلات فك ويست، ولكنه لجم غضبه الذي كان يتأجج بداخله.

واصل سينت كلامه: «لديَّ عمل وأنت تقف عائقًا في طريقه»، ونهض فدارت حاشية معطفه حول حذائه وهو يستدير، لكنه توقف ويده على مزلاج الباب، ثم قال: «وإن اكتشفت أن أي مخلوق عرف عن الحمولة التي أحضرتها من جيفال فسوف تلملم أشلاء طاقمك من شتى أرجاء هذه المدينة».

اعتصرت يدا ويست حزامه، وقال: «هذا مناط الأمر إذن؟ هي؟».

جاش صدري بلهب حارق، وأدركت فجأة أنني كنت حابسة أنفاسي.

وخطا ويست خطوتين ناحية سينت مواصلًا حديثه: «هذه عقوبة إذن».

فقال سينت: «سمها ما شئت. عملك هو أن تفعل ما أقول لك. لا ينبغي أن تتحرك حركة من دون إذني. إن كان هذا الوضع لا يعجبك فثمة مائة رجل على تلك الأرصفة سوف يحلون محلك».

فقال ويست: «لو لم آخذها من جيفال لكانت مقيدة بالشعاب المرجانية الآن، عظمًا منزوع اللحم».

تعمق صوت سينت وهو يقول: «بمقدور فيبل الاعتناء بنفسها».

وعندئذٍ تحول وجه ويلا نحوي وعيناها تتسعان.

فقال ويست: «إذن لماذا كنت أتكبد تكاليف الذهاب إلى تلك الجزيرة كل أسبوعين على مدار العامين المنصرمين؟ لو كان أصابها مكروه فكلانا يعرف عنق من التي كانت ستتعرض للذبح. لقد أنقذتُ حياتي وحياتها بإحضارها إلى هنا».

صرَّ أبي على أسنانه ووطأة غضبه تملأ الصمت، ثم قال: «لا أريد أن أرى وجهك مرة أخرى حتى تنظف كل تلك الفوضى. وإن لم تفعل، فلن يكون زولا هو من يلاحقك، سأكون أنا من يلاحقك، ولن أتركك تتنفس».

صُفق الباب مرة أخرى فارتجت الجدران، وسمعت دبيب خطوات سينت وهو يهبط الدرج. ذهبت إلى النافذة، وشاهدته يمضي في الزقاق، زرر أعلى سترته بترتيب الأزرار قبل أن يغوص في الظلام من دون أن يلتفت.

عقدت ويلا ذراعيها وهي تحدجني، ثم قالت: «هل ثمة شيء تريدين إخبارنا به؟».

فتنهدت وقلت: «نعم. يجب أن نتكلم».

الفصل الثامن والعشرون

كان ويست واقفًا عند النافذة عندما دلفنا من الباب، وعيناه مصوبتان على الشارع.

رفعت ويلا إحدى يديها تجاهه وهي تقول: «ويست...»، بيد أنه تحرك بعيدًا عن متناول يدها.

ثم قال: «لن يقرضنا النقود. يمكننا اللجوء إلى المدخرات».

خيم الصمت عليهم جميعًا، وثبتت أبصارهم عليه.

قال أوستر: «لا نستطيع. اتفقنا على أننا لن نلجأ للمدخرات أبدًا».

فتمتم باج من ورائه: «أقسمنا على ذلك».

ساد صمت تام، ولأول مرة استطعت أن ألمح التصدعات الرقيقة في جدار هذا الطاقم.
سألت: «ما المدخرات؟».

«إنها النقود التي كنا نجنيها من تجارة جانبية نديرها. إنها مخصصة لما... بعد»، أدهشني أن هاميش هو من نطق هذا الجواب، ربما لأنه لم تعد ثمة أهمية لأي شيء.

تساءلت: «بعد؟».

خلع النظارة تاركًا إياها تتدلى بين أصابعه، وأردف: «بعد أن نتحرر من دين سينت».

قال ويست مصححًا: «يمكننا استخدام المدخرات إن اتفقنا جميعًا»، وتابع وهو يحاول أن يبدو واثقًا: «يوجد ما يكفي لشراء أشرعة وتغطية خسائرنا التي تكبدناها جراء العاصفة.

يمكننا الإبحار مجددًا، وجمع النقود مرة أخرى. يمكنني استئجار سفينة لتأخذني إلى الجزر المرجانية غدًا».

بالطبع. كانت الجزر المرجانية مَخبأ.

كل طاقم لديه مخبأ في الجزر المرجانية، إذ من الحماقة الاحتفاظ بكل ممتلكاتك في مكان واحد ما دام بالإمكان غرق السفن وبالإمكان اقتحام مقراتك في المدينة في أثناء تواجدك في البحر. أي طاقم يملك نصف عقل سيكون لديه أكثر من مخبأ لإخفاء نقوده.

قالت ويلا: «لقد استغرقنا عامين لتوفير هذا القدر من المال».

فهز ويست كتفيه قائلًا: «إنه خيارنا الأوحد».

لكن كلامه ليس صحيحًا. وإن كنت سأحاول أن أحجز لنفسي مكانًا ضمن هذا الطاقم، ففرصتي المثلى سانحة الآن. مددت يدي إلى فتحة سترتي، وعثرت على قلادة تنين البحر بأطراف أصابعي، ثم فتحت فمي لأتكلم فأحسست بقلبي يغوص في أعماقي.

قلت وعيناي تلتقيان بعينيْ ويست: «إنه ليس الخيار الأوحد».

ساد الصمت في الغرفة مرة أخرى، والتهب جلدي بحرارة لافحة عندما تركزت أعينهم عليَّ. بمجرد أن خرجت الكلمات من فمي لم يعد ثمة سبيل للرجوع.

بدا هاميش مرتابًا وهو يسأل: «ماذا؟».

فقلت وأنا أشد قامتي: «لديّ سبيل آخر للخروج من هذا المأزق»، ثم أردفت: «إن شئتم».

فرفع هاميش النظارة إلى عينيه مرة أخرى متسائلًا: «ماذا تقصدين؟».

فقلت والكلمات تتدفق معًا في نفس واحد: «ضموني إلى ماريجولد بصفتي جرّافة، وسوف أتدبر أمر أشرعتكم».

فرد ويست رافضًا والكلمة تخرج ثقيلة من شفتيه: «لا».

بيد أن ويلا تملكها الفضول فسألت: «وكيف ستفعلين ذلك بالضبط؟».

فأجبتها: «هل يهم ذلك؟ بوسعي تدبر أمر الأشرعة. ضموني بصفتي جرّافة، وسوف أوفر لكم ما يكفي من النقود لتحرير أنفسكم من أغلال دين سينت في صفقة واحدة».

فقال أوستر وهو يتحرك من عند الجدار: «عم تتحدثين؟».

كان تركيزي لا يزال منصبًّا على ويست وأنا أقول: «هذا هو الاتفاق».

فعاد يقول بشيء من الغضب هذه المرة: «لا».

رددت ويلا نظرتها بيننا وقالت: «ولم لا؟ إن كان لديها سبيل لـ....»

قاطعتها وأنا أضيف: «ما من أحد أنسب مني للانضمام لهذا الطاقم. أنا جرّافة بارعة».

فكرر رفضه: «لا!».

فتقهقرت بخطوات للوراء، في حين تبادل الآخرون نظرات التحير.

حدجته ويلا في استغراب وقالت: «ليس لدينا من يتولى مهمة التجريف، وتقول إنها ستتكفل بثمن الأشرعة، وتحررنا من دين سينت، وأنت تقول لا؟».

فأجاب: «نعم، لن نضمها».

فألحت ويلا في السؤال: «ولم لا؟».

لقد منحتُ ويست فرصة أخيرة، وتركت الصمت يخيم مرة أخرى. أحسست بأن السر يحترق في حلقي كلهيب الجاودار الذي تجرعته الليلة الفائتة، لم ينطق لساني بمضمون هذا السر مطلقًا، سر أقسمت على عدم النطق به أبدًا، بيد أن سينت قد نكث بوعده إياي، صحيح أنه ترك لي سفينة لارك، لكنه لم يمنحني حقي، لم يمنحني ما دان لي به.

والآن سأنكث بوعدي له.

همس ويست كأنما يقرأ ما يجول بخاطري: «لا تفعلي».

قلت: «سينت هو أبي».

اشتدت حدة التوتر في الأجواء، واجتاحتني قشعريرة، لقد نطقت بشيء يستحيل ازدراده مرة أخرى.

شهقت ويلا وهي تقول: «ماذا بحق الـ...؟»

أردفتُ: «ولهذا كان ويست يعرج على جزيرة جيفال بماريجولد كل أسبوعين. ولهذا كنتم تقايضون أحجار البايار معي، أنا فقط من دون الجميع. لقد جعلكم سينت تتفقدون أمر ابنته التي هجرها. لم أعلم أنكم كنتم تعملون لحسابه حتى وصلنا إلى ديرن».

استطعت أن أرى من النظرات التي تلوح في عيونهم أنهم يصدقون كلامي، إذ لم يكن من المعقول أن يكون كلامي غير حقيقي.

نظرت إلى ويلا وقلت: «كنتُ جزءًا من صفقته مع ويست عندما أعطاه ماريجولد. وأنت كنت محقة. لقد بعت روحك لرجل بلا روح، ولن تسددي دين ماريجولد أبدًا، سيعثر دائمًا على طريقة تجعلك مدينة له، هذا دأبه وديدنه».

تهدج صوت ويلا وهي تقول: «إن كان سينت أباك، فهذا يعني أن...»

فهرعت أكمل كلامها: «كانت إيزولد أمي، ولهذا فأنا بارعة فيما يخص الأحجار الكريمة».

عقبتْ قائلة: «أنت خبيرة أحجار كريمة».

فأومأتُ «نعم».

تحدث ويست بهدوء قائلًا: «لن تكوني جرّافة على ماريجولد»، لكنه بدا كأنه يستخدم كل ذرة مما بقي لديه من طاقة ليتكلم. وأردف: «لن يسمح سينت بذلك أبدًا، وحتى إن سمح، فسيذبحنا جميعًا إن أصابك مكروه. إنّ ضمك بمثابة تمنٍّ للموت».

لكن بجواره بدا أوستر مستمتعًا، وسألني: «وما مصلحتك في كل هذا؟».

تحركت حركة طفيفة في وقفتي وأنا أزدرد مهانة ما سأقوله: «ما من خيار آخر أمامي. سينت لا يريدني».

حدقوا جميعا إليّ.

أردفتُ: «إن ضممتموني فسوف أعيد ماريجولد إلى الإبحار، وسأملؤها بما يكفي من النقود لسداد ديونكم كلها. هذا هو عرضي».

سألني هاميش وهو يحرص على عدم النظر إلى ويست: «وكيف ستفعلين ذلك؟».

«لديّ شيء - شيء ما من أحد يعرف عنه. إنه فقط قابع تحت الماء ينتظرني لأحضره».

عندئذٍ تحدث باج أخيرًا متسائلًا: «ما هذا الشيء؟».

أجبت: «لن أخبركم ما لم توافقوا على الصفقة».

فتنهد باج قائلًا: «تجريف الشعاب المرجانية لن يخرجنا من هذه الفوضى يا فيبل».

فعلقتُ: «إنها ليست شعابًا مرجانية، وهي ثروة تكفي لسداد دين سينت وزيادة».

ارتسمت ابتسامة على فم ويلا وتألقت عيناها.

عاد ويست إلى موقفه عند النافذة وقال: «اتركونا وحدنا»، وعندما لم يتحرك أحد صاح: «اتركونا!».

فخرجوا من دون أن ينبس أحد بأية كلمة أخرى، وأغلقت المزلاج من ورائهم، واتكأت على الباب مصوبة بصري نحوه. لقد سارت الغرز على كتفه سيرًا متلويًا إلى أسفل منطقة لوح الكتف، وحتى على حالته هذه لا يزال وسيمًا.

سألته بهدوء: «كيف جرت الأمور؟».

صوب بصره تجاه الشارع والضوء يضيء نصف وجهه فقط، وسأل: «أي أمور؟».

فتساءلت: «هل كنت تشتري أحجار البايار مني عند جزيرة جيفال وتبيعها في ديرن، ثم تعطي سينت الربح؟».

هز رأسه قائلًا: «لم أعطه الربح. لم يكن يريده».

فسألته: «إذن احتفظت به؟».

أجاب: «إنه في المخبأ، كل النقود هنالك. والمبلغ الذي أعطيتك إياه عندما وصلنا إلى سيروس جزء من تلك النقود».

لهذا توقفنا عند الجزر المرجانية في طريقنا إلى ديرن. همست قائلة: «طوال تلك الفترة ظننت أنني أشق طريقي بنفسي، ظننت أنني وجدت طريقة للبقاء على قيد الحياة».

فعقب قائلًا: «لقد فعلتِ».

قلت: «لا، لم أفعل. إنني لم أتضور جوعًا على تلك الجزيرة بسببك فقط». بدا أن كلامي أحرجه، فسقطت عيناه على الأرضية الفاصلة بيننا، ثم سألته: «كان بوسعك الكذب على سينت بشأن الذهاب إلى الجزيرة، لم يكن ليعرف مطلقًا».

فعلق: «ما كنت لأفعل ذلك به».

فقلت: «لكنك تدير تجارتك الجانبية الخاصة، وتختلس من دفاتره؟».

فقال ببساطة «هذا شيء، وذلك شيء آخر».

قلت: «لا تقل لي إنك معجب بالرجل الذي أحكم عليك قبضته؟».

فتمتم: «لن تفهمي».

سألته: «أمتيقن من ذلك؟».

بدا أنه يفكر مليًا في السؤال قبل أن يجيب قائلًا: «أخذني تاجر من حي الساحل، واصطحبني على متن سفينته وأنا في التاسعة من عمري، لقد علمني كل ما أعرفه عن الإبحار والتجارة، لكنه كان رجلًا سيئًا. انتشلني سينت من تلك السفينة، وضمني إلى سفينته، إنه وغد حقير، بيد أنه السبب الوحيد في أنني الآن لست منكبًا على كشط المحار الملتصق بهياكل السفن على تلك الأرصفة أو جثة متعفنة في قاع البحر».

لم أرغب في تخيل ما قصده ويست بقوله إن التاجر كان رجلًا سيئًا، كان بوسعي استشعار مدى السوء من طريقة ابتلاعه ريقه بين كلماته أنه أحس بالخزي من الذكرى، أيًا كانت تلك الذكرى.

قلت: «هكذا إذن عرف أنه يمكنه الوثوق بك. إنه يتقن ذلك، يجعل الجميع مدينين له بما يكفي».

فعقب: «إنه ذكي».

هززت رأسي وقلت: «كيف تدافع عنه بعد ما فعله للتو؟ لقد تخلى عنك».

أجاب: «لأنه كان محقًّا. أنا مسئول عن طاقمي وسفينتي، وقد أخفقت. وهو لم يتخلَّ عنا؛ إنه فقط لن يمد يده لإنقاذنا».

حدقت إليه من دون أن أنطق بكلمة. كان ويست يدافع عنه حقًّا.

ثم قلت: «أنت محق، إنني أنظر له بعين الإكبار. يعتقد التجار في منطقة البحر المجهول أن منطقة المضايق سوف تقع في أيديهم في نهاية المطاف. ويظهر لهم سينت أنه بوسعنا الوقوف وحدنا باستقلالية».

لن أقر بذلك أبدًا، لكن ثمة جزءًا من قلبي شعر بالفخر به حتى إن كنت أكرهه ببقية قلبي. وأدركت في تلك اللحظة أن ويست ربما يكون الشخص الوحيد الذي يمكن أن يفهم كيف يمكن أن يجتمع هذان الشعوران معًا في قلب واحد.

سألته: «كم سيستغرق الأمر حتى تتحرر من دَينه؟».

لم يحر جوابًا.

ألححت في السؤال: «كم سيستغرق الأمر منك؟».

فرفع يده، وضغطها على جانبه مرة أخرى على إثر الألم. لم أكن متأكدة كيف استطاع الوقوف حتى الآن وهو بحالته تلك. ثم أجاب: «ست عشرة سنة».

خطوت نحوه، وانتظرت أن ينظر في عيني قبل أن أقول له: «ست عشرة سنة أم ليلة واحدة؟».

تساءل: «ماذا؟».

فقلت: «يمكنك قضاء ست عشرة سنة في الكد للتحرر من أغلال دَين سينت، أو يمكنك تحقيق ذلك في ليلة واحدة، معي. لا مزيد من أعمال سفن الظل، لا مزيد من إرسال التقارير له، أو التجسس لصالحه، أو تنفيذ أوامر كتلك التي نفذتها في مدينة سوان».

تصلب جسده، واستطعت أن أرى وقع الكلمات المؤلم عليه. لم يكن يريد لي أن أعرف بشأن ما حدث في مدينة سوان. قال مرة أخرى وهو يمرر كفه عبر شعره ليزيحه عن وجهه: «لا أستطيع أن أضمك يا فيبل».

قلت: «تظن أنني لا أستطيع تدبر أمر نفسي».

فعلق: «لقد عشتِ في جزيرة جيفال لمدة أربع سنوات. أعلم أنه يمكنك تدبر أمر نفسك».

سألته: «ما الأمر إذن؟ أهو سينت؟».

نظر إلى حذائه وعضلات فكه تضطرب، ثم قال: «إن سينت هو التاجر الوحيد في منطقة المضايق الذي له حق التجارة في منطقة البحر المجهول منذ أن حُظرت سفن زولا من التجارة هنالك. إنه المنافس الشرعي الوحيدة لتجار مدينة باستيان، وهو وضع يحسده عليه جميع التجار في منطقة المضايق، ويودون لو يبذلون الغالي والنفيس من أجل أن يحلوا محله، وإن اكتشف أي أحد هويتك فسيسارع جميع التجار لاستغلالك ضد سينت».

كانت وجهة نظر صحيحة، لكن قبل أن يتسنى لي الرد عن نفسي واصل حديثه: «ولكن علاوة على ذلك، أنا لا أثق بك».

تساءلت: «ماذا؟».

فقال: «لقد حاولتِ للتو استمالة طاقمي ضدي».

لطمتني الصدمة، فقلت: «أنا...»

تابع حديثه: «لقد تلاعبتِ بالأشخاص الوحيدين الذين أئتمنهم على حياتي. أنا أعتمد عليهم».

قلت: «لم تكن لتسمعني حتى. كنت أعرف أنهم إذا عرفوا هويتي فسوف ينصتون إلى ما أريد قوله».

فقال: «هذه ليست الطريقة التي تجري بها الأمور بين طاقم واحد».

زفرت زفرة طويلة، ثم قلت: «علمني إذن».

دس ويست يديه في جيبيه، ولبث ساكنًا هنيهة قبل أن يقول: «إن آلت الأمور إلى نقطة تختارين فيها بيننا وبين سينت، فسوف تختارين سينت».

فضحكت وقلت: «لِمَ عساي أفعل؟ لم يخترني قط».

فألح في دعواه قائلًا: «السبب الوحيد الذي يجعلك تريدين أن تكوني على متن ماريجولد هو أن سينت نبذك».

فعقبتُ: «والسبب الوحيد لكونك قبطان ماريجولد هو أن سينت جعلك قبطانًا لسفينة ظل تابعة له. لا يهم سبب وجودنا هنا يا ويست. المهم أننا هنا. وأنا أحتاج إلى شخص يمكنني ائتمانه على حياتي».

زم شفتيه بشدة.

عندئذ انخفض صوتي وأنا أقول: «أنت لا تثق بي، لكنني أثق بك».

فقال: «ليس لديك سبب لتثقي بي».

عقدت ذراعيّ وأنا أشيح بناظري بعيدًا عنه، ثم قلت: «لقد عُدتَ».

فتساءل: «عم تتحدثين؟».

رحت أقول: «كنت أجلس على المنحدرات فوق شاطئ جزيرة جيفال كل ليلة، أتخيل أشرعة سفينة أبي في الأفق، وآمل أن يعود من أجلي»، ثم سكتُّ هنيهة قبل أن أواصل: «لم يعد، أنت عدت».

عندئذ رفع عينيه ونظر في عينيّ.

أردفت قائلة: «أريد أن أتولى مهمة التجريف على متن ماريجولد. أريد أن أحررك من دَين سينت».

اتكأ على الجدار من خلفه، وراح يفرك مؤخرة فكه، ثم قال: «ما كان ينبغي أن أسمح لك بركوب ماريجولد من الأصل».

سألته: «ما علاقة هذا بما حدث في جيفال؟».

فأجاب: «كل شيء».

فعلقت: «لقد أخبرت سينت للتو بأنك اصطحبتني لإنقاذ رقبتك».

فقال بهدوء: «أخذتك من جزيرة جيفال لأنني لم أرغب في تركك هنالك. لم أستطع تركك هنالك». كان ذلك أول شيء يقوله لي أستشعر فيه ثقل الحقيقة بين ثنايا الكلمات.

حاولت استشفاف مقصده، ورحت أتفحص ما لاح على وجهه، بيد أنني لم ألمح سوى شذرات مما يختلج في نفسه، كما هي الحال دائمًا. لطالما كان يلوح منه أجزاء فقط، ولا تظهر حقيقته كاملة قط.

لبث ساكنًا هنيهة قبل أن يخطو تجاهي حتى استشعرت الدفء المنبعث من جسده يكتنفني، ثم قال: «سوف أؤيد قرار ضمك بصفتك جرّافة طاقمنا. هذا إن أخبرتني بأنك تفهمين شيئًا معينًا».

تساءلت: «ما هذا الشيء؟».

ركزت عيناه على وجهي، ثم قال: «لا أستطيع أن أهتم بأمر أي شخص آخر يا فيبل».

إن المعنى الذي قصده قد ملأ المساحة الصغيرة الفاصلة بيننا، وشحن الأجواء جدًّا، حتى أحسست كأن جدران الغرفة تزحف ناحيتنا؛ لأنني كنت أعرف لماذا قال ذلك. لاح ذلك في عينيه اللتين كانتا تهبطان ناحية فمي أحيانًا حين كان ينظر إليّ، كما لاح ذلك في نبرة صوته التي كانت تتعمق حين كان ينطق اسمي. كان ويست يخاطر مخاطرة مختلفة بتأييد ضمي إلى طاقمه، وفي هذه اللحظة سمح لي برؤية ذلك.

مد يده بيننا منتظرًا، وقال: «أخبريني بأنك تفهمين».

لم يكن ذلك مجرد قبول لانضمامي، إنما كان عقدًا.

عندئذٍ نظرت في عينيه، لم تظهر في صوتي أية اختلاجة وأنا أصافح يده وأقول: «أفهم».

الفصل التاسع والعشرون

ظهر على ماريجولد مصباح واحد مضيء وأنا أسير على الرصيف المائي تحت جنح الظلام، وكانت السفن الخاوية تطفو في الميناء مثل عمالقة نائمين، في حين كان البحارة في المدينة يتجرعون الشراب ملء بطونهم، ولم يكن في الميناء سوى عمال الميناء المستأجرين للحراسة. حتى حي الساحل بدا خاويًا، إذ اختفت الوجوه الصغيرة التي عادة ما تصطف في تلك الأزقة. لقد بدت سيروس أَضْأل كثيرًا في الظلام، لكنني لم أشعر بأنني ضئيلة أو قليلة الشأن وأنا أسير بداخلها الآن.

عندما وصلت إلى موضع رسو ماريجولد توقفت خطواتي عند أثر الدم على الرصيف مكان الجثتين في ذلك الصباح، لقد نُظفت الدماء، ولكن ثمة أثرًا من اللون الأحمر يلطخ الخشب. ما زال يتراءى لي مشهد الجثتين - هيكلان مقوضان مستلقيان في الشمس، وتساءلت عن هويتيهما. غالب الظن أنهما رجلان فقيران يقضيان لياليهما في الحراسة لتوفير مصدر دخل إضافي. لقد كانت طريقة بائسة للموت، أن تموت في غمرة خصومة ليس لك شأن بها.

كان السلم مفتوحًا على جانب السفينة في انتظاري، فرفعت عيني لأعلى، وثبتُّ يدي المكسوة بالضمادات على الدرجات. في وقت سابق ظننت أنني أقف على سطح ماريجولد للمرة الأخيرة، لكن الآن سوف تصبح هذه السفينة موطني، سوف يصبح هذا الطاقم عائلتي. ولقد شعرت بأن كل شيء على وشك التغيير مثلما أشعر بالتحول الذي يعتري تيارات الرياح قبيل أشد العواصف المباغتة.

اعتليت السور واجتزته، ووجدت البقية مجتمعين بالفعل على سطح السفينة متحلقين في دائرة أمام حجيرة القبطان. امتدت فوقنا الصواري العارية من الأشرعة مثل الهياكل

العظيمة، شاهقة في الظلام حتى توارت في طياته. وكانت الأشرعة الممزقة قد أُنزلت وملفوفة الآن في مكان بالسفينة.

كان ويست يرنو إلى سطح السفينة في حين عثرت لنفسي على مكان بجوار ويلا، وقد بدا الشد واضحًا في وقفته. لقد وافق على انضمامي، بيد أنه لم يكن مسرورًا بذلك، وقد جرحني هذا بدرجة أكبر مما أردت الاعتراف بها.

ضغطت ويلا على يدي وهي تميل نحوي، وتقول: «هل أنت متأكدة من هذا يا جرّافة؟».

فرنوت إلى ويست الذي نظر في عيني لوهلة، وقلت: «أنا متأكدة».

وقد كنت متأكدة فعلًا. لم يكن الأمر مقتصرًا على عدم وجود مكان آخر أقصده غير هذه السفينة، إذ منذ أول ليلة نمت فيها على أرجوحة شبكية شاغرة في الطابق السفلي بدا لي أن ثمة مكانًا لي هنا، أحسست بأنه مكاني. حتى إن كان ويست لا يريدني في الطاقم، إلا أنه يمكنني تحسين الوضع بيني وبينهم جميعًا، يمكنني الوثوق بهم، وكان ذلك كافيًا، بل أكثر من كافٍ.

خلع أوستر القبعة الصوفية عن رأسه فانبسط شعره المسترسل على كتفه، ثم أمسك بالقبعة مقلوبة في منتصف الحلقة.

عندئذ أخرجت ويلا عملة من حزامها وقالت: «أريد أن نسمح لهذه الجرّافة الجيفالية عديمة النفع بالانضمام إلى طاقم ماريجولد. حتى إن كانت جالبة للسوء»، ثم ألقت العملة في الهواء فومضت بضوء المصباح في أثناء دورانها قبل أن تهبط في قبعة أوستر.

أمسك باج بعملة بين أصابعه، وسددها نحو القبعة على إثر عملة ويلا وهو يقول: «لا أرى بأسًا في ذلك».

تبعه أوستر وهو يغمز لي قائلًا: «وأنا أيضًا».

وأخرج هاميش عملة من سترته وهو يرمقني، ولم يكن التردد خافيًا على وجهه، ثم سأل: «ماذا كانت تفعل ابنة سينت في جيفال؟».

تحركت في مكاني ويداي تندسان في جيبي سترتي، وتساءلت: «ماذا؟».

فقال: «إن كنا سنثق بك فأريد أن أعرف الحكاية. كيف انتهى بك المطاف في جيفال؟».

حدجه ويست بنظرة تحذير قائلًا: «لا حاجة لنا بمعرفة ذلك».

فقال الآخر: «لي حاجة في ذلك».

عندئذٍ قلت وإحساس بالشد يجتاح حلقي: «لقد تركني هنالك. في الليلة التي أعقبت غرق السفينة لارك، تركني في جيفال».

جثم عليهم صمت، وهبطت عيونهم إلى الأرضية. لم أكن أعرف حكاياتهم، لكنني تخيلت أنها لن تكون أفضل حالًا بكثير من حكايتي. لم أكن حمقاء لدرجة تجعلني أشعر بالأسى على نفسي. كانت منطقة المضايق بمثابة نصل قاطع، لا يمكنك العيش هنا من دون جراح. ولم أستشعر خجلًا من ذكر المكان الذي أتيت منه، لقد ولت تلك الأيام.

عندئذ أومأ لي هاميش بإيماءة قبل أن يرمي عملته نحو القبعة، ثم نظروا جميعًا إلى ويست، وقد وقف صامتًا في حين راحت الطيور البحرية تزعق في الظلام من خلفه، وتساءلت عما إذا كان سيبدل رأيه، ويخالف إجماع آراء الطاقم.

ثم رفع يده أخيرًا فالتمع بريق عملة نحاسية بين أصابعه، وأسقطها في القبعة من دون أن ينبس بكلمة.

ترددت أصداء كلماته التي قالها سابقًا في ثنايا الصمت المخيم. سوف يقبلني على سفينته، سوف يقبل نقودي لإنقاذ ماريجولد، ولكن هذا كل شيء.

قال أوستر: «أحضري الجاودار يا ويلا»، ودفع إليّ القبعة فنظرت إليها بين يدي.

هكذا جرت العادة، أن يهدي كل فرد من أفراد الطاقم عملة نحاسية للعضو الجديد، كبادرة لإبداء حسن النية. لقد رأيت أطقم البحارة على سفن أبي يفعلون التقليد نفسه مرات عديدة. ولكن في الأعوام التي قضيتها على جيفال لم يهدني أحد أي شيء قط. لم أكلف نفسي عناء محاولة حبس دموعي، إذ سالت على وجهي عبرة تلو أخرى وأنا أضم القبعة إلى صدري.

كنتُ كطائر منهك يحلق فوق أقفر بحر على الإطلاق، وأخيرًا وجدتُ مستقرًّا أحط عليه.

فتحت ويلا إحدى الزجاجات ذات الزجاج الأزرق المجلوبة من المشرب، ووزع باج الكئوس في حين راحت ويلا تملؤها، وتساقط السائل الطافح من الكئوس عند أقدامنا، ثم تجرعنا المشروب جميعنا في آن واحد وفي جرعة واحدة، وانفجروا هاتفين في مرح، بينما رحت أنا أضحك وأسعل جراء إحساس الاحتراق الذي يلهب حلقي.

ثم تساءلت وأنا أقلب الكأس الفارغة في يدي: «كم المبلغ؟».

فقالت ويلا وهي تعيد ملء كأسها: «كم مبلغ ماذا؟».

فقلت: «كم المبلغ الذي نحتاج إليه من أجل الأشرعة؟».

بدا هاميش متفاجئًا بعض الشيء من السؤال، إلا أنه سحب الدفتر من داخل سترته، وأخذ المصباح المعلق على الصاري، ووضعه على السطح بيننا، ثم فتحه على آخر صفحة عليها علامة، وجلسنا جميعًا حوله، ووجوهنا مضاءة بالضوء الخافت. ظهر على الورقة ما خطه بخط يده السريع في صفوف، ولاحت الأرقام على الجانب الأيمن مرتبة في مسائل حسابية.

ثم قال: «بعد دفع أجر طاقم الإصلاح وتعويض الخسائر التي كبدتنا إياها العاصفة سوف نحتاج على الأقل إلى ثمانمائة عملة نحاسية من أجل الأشرعة».

بدا باج متشككًا وهو يتساءل: «ثمانمائة؟».

فقال هاميش: «بالطبع سنضطر إلى دفع هذا المبلغ كي يرضى أي صانع أشرعة بتولي تلك المهمة، فلا أحد يريد أن يوقع نفسه في متاعب مع زولا».

عقب ويست على الكلام: «إنه محق».

الجاودار الساري في عروقي لم يخفف من وطأة الرقم. كنت أعلم أن التكلفة ستكون باهظة، بيد أنني لم أظن أنها ستكون باهظة إلى هذا الحد، ورجوت أن تنجح خطتي في ظل هذه المستجدات.

انعكس الضوء على نظارة هاميش وهو يرفع عينيه من الصفحة تجاهي ويسأل: «هل يمكنك توفير هذا المبلغ أم لا؟».

فقلت: «يمكنني توفيره».

عندئذٍ أعادت ويلا غلق الزجاجة ووضعتها بيننا، ثم قالت: «لم تخبرينا قط كيف ستفعلين ذلك».

فسألتها: «هل الكيفية تهم؟».

فهزت كتفيها وقالت: «لا. ومع ذلك أود أن أعرف».

فقلت: «سوف يدفع سينت ثمن الأشرعة».

ارتفعت عينا ويست تجاهي بحركة مفاجئة، وتنحنح باج وهو يتساءل: «سينت؟».

فقلت: «نعم».

بدت ويلا مستمتعة للغاية وهي تتساءل: «وكيف ستجعلينه يفعل ذلك؟».

أجبتها: «بحوزتي شيء يريده، شيء أعرف أنه سيبذل الغالي والنفيس ليسترده».

لم يسألوا عن ماهية هذا الشيء، لكن كان بوسعي أن أرى في وجوههم أن الفكرة أثارت توترهم. لقد كان سينت غاضبًا منهم بالفعل بشأن موضوع زولا، وحالما يكتشف أنني أساومه على إصلاح ماريجولد فغالب الظن أنه سيريد قطع رؤوسنا جميعًا.

قالت ويلا: «أنت تلعبين بالنار يا فيبل»، لكن الابتسامة الخبيثة على شفتيها ألقت بظلالها في نظرتها فالتمعت عيناها.

استطعت رؤية أن فكر ويست انشغل بالخاطرة ذاتها، لكن لم يلح في وجهه أثر للاستمتاع بالفكرة، بل حدق إلى كأسه الفارغة والضوء يسقط على زجاجها الأخضر. توارى الجرح الممتد على جبينه تحت شعره، لكن جانب وجهه الأيسر بالكامل كان لا يزال منتفخًا، وكانت إحدى عينيه محتقنة بالدماء.

لقد كان هذا الطاقم في مأزق بالفعل عندما صعدت إلى سفينتهم، لكنني لم أستطع منع نفسي من التساؤل عما إذا كنتُ أنا العاصفة التي ستغرقهم في النهاية.

الفصل الثلاثون

لقد حنثت بعهدي لسينت، بيد أنني لا أزال أعيش وفق قواعده.

شاهدت تقدم طلائع الفجر في الأفق من موقفي بين بنايتين وعيناي مصوبتان على الجسر. إذا أصاب ظني فإن قدمي سينت سوف تطآن ألواح الجسر الخشبية في أية لحظة الآن وهو يشق طريقه صوب مشرب جريف. أتذكر في صغري أنه دأب على تناول الشاي في مشرب جريف كل صباح قبيل شروق الشمس.

جال بخاطري أن سينت ربما اعتراه تغير خلال الأعوام التي لم أره فيها، ولكن إذا كان لا يزال هو التاجر الغاشم الذي دأبه جرح رُكب كل المحيطين به كي يجثوا ويظل هو الأطول بينهم، فلعل هذا الوغد لم يغير عادته أيضًا بتناول الشاي في مشرب جريف قبيل شروق الشمس.

ترامى إلى مسمعي وقع أقدام من بعيد، فرفعت بصري صوب الجسر الوحيد المفضي إلى وادي الضنك. رغم أن الشوارع تكون خاوية في هذا الوقت من الصباح الباكر، فإن سينت لم يكن يحب أن يسير في وحلها وقذارتها.

لاح شبح إنسان على الجسر، ومن شكل تطاير معطفه في الريح أستطيع القول إنه هو. نهضت من مجلسي على الصندوق الذي كنت أجلس عليه وانطلقت في الشارع أتبع مسيره، وقد انعطف سينت عند المنعطفات ذاتها التي اعتاد السير فيها في صغري متجهًا إلى حي الساحل، وسرت ويداي مدسوستان في جيبيّ وعيناي ترقبان ظله وهو ينزلق فوق المباني في أثناء سيره، هذا من ديدن سينت أيضًا، دائمًا ما يلقي بظله على كل شيء من حوله.

وحين شرع في هبوط السلم القريب من الميناء التصقت بجدار أقرب بناية، ولبثت منتظرة بأنفاس مكتومة. وقد ارتمى الضوء الخابي على معطفه، فجعله يتألق كتألق الثعابين

المرجانية الزرقاء التي كانت تسعى فوق الشعاب المرجانية الشرقية عند جزيرة جيفال. ارتطم حذاؤه بالأرض وانطلق في الزقاق الذي كانت مصابيح المدينة لا تزال مضاءة فيه. سوف يكتظ الشارع بعمال الرصيف والخبازين في غضون دقائق، وستدب حركة النشاط في مدينة سيروس.

لبثت منتظرة أن يتوارى عند المنعطف قبل أن أتبعه وأنا أحافظ على رشاقة خطواتي وخفتها. وفي الزقاق شاهدت لافتة مشرب جريف معلقة فوق الزقاق، والكلمات على اللافتة متقشرة بفعل رياح البحر، لكنني كنت أعرف المكان. كانت الجدران الحجرية مؤطرة بعوارض خشبية ضخمة، والسقف مائلًا بزاوية حادة للغاية لدرجة أن الطيور لا تستطيع الحط عليه.

توارى سينت خلف باب المشرب، وتوقفت أنا أمام النافذة أراقبه. كان المكان خاليًا من الناس، باستثناء جريف الواقف خلف المنضدة مطوقًا خصره بقطعة قماش، والذي لم يكلف نفسه عناء رفع عينيه للنظر إلى سينت وهو يسحب كرسيًا من حول إحدى الطاولات ويجلس.

وظهرت امرأة من الخلف تحمل بين يديها صينية شاي قبل أن تنزلها بعناية، وتضع إبريق الشاي عند زاوية الطاولة التي يجلس عليها سينت في حين انشغل هو بسحب لفافة أوراق من معطفه، وبدا كوب الشاي صغيرًا في يده وهو يرتشف منه رشفة وانتباهه منصبّ على الصفحات المبسوطة أمامه.

وضعت يدي على المزلاج، ولملمت شتات نفسي قبل أن أفتح الباب.

عندما فتحت الباب رفع جريف عينيه من المنضدة وصوبهما تجاهي، وظهرت المرأة مرة أخرى في إطار الباب الذي خرجت منه منذ قليل، ولاح الذهول عليهما، لكن نظرة سينت هي التي كان وقعها ثقيلًا على نفسي، إذ رمقني من أعلى كوب الشاي وهو يحتسيه، وتقوس حاجباه السميكان فوق عينيه الزرقاوين المتألقتين.

أومأت للمرأة وقلت: «صباح الخير. سأطلب إبريق شاي من فضلك».

فنظرت المرأة إلى جريف كأنها تأخذ إذنه قبل أن تتحرك، فأومأ لها برأسه، وكان جليًّا أنه ارتاب بشأني، لكن عينيه اتسعتا حين سحبت الكرسي المقابل لسينت وجلست حياله ويداي مطويتان على الطاولة.

عاد سينت ببصره إلى الصفحات المبسوطة أمامه وهو يسألني: «ماذا تفعلين هنا؟»، بيد أن تململه في كرسيه وشى بأنني باغته.

انحنيت للأمام متظاهرة بالاهتمام وأنا أسأله: «دفاتر حسابات؟».

فأجاب: «نعم، وصلت سفينتان في وقت متأخر من الليلة الماضية»، ثم رفع الكوب مرة أخرى فظهر على زاوية الصفحة أثر دائري لقعر الكوب، وأردف: «ماذا تريدين؟».

ابتسمت وخفضت صوتي حد الهمس وأنا أقول: «أريد أن أحتسي الشاي برفقة أبي».

لكن بدا الشد متمكنًا من كل عضلة في جسد سينت، واشتدت قبضته على الكوب حتى خيل لي أنه سيتحطم بين أصابعه. ثم زحفت عيناه لتلتقيا بعينيَّ في حين وضعت المرأة إبريق شاي آخر بيننا، وأعادت ترتيب الطاولة ليكون كل شيء في تناسق.

وسألتني: «تريدين إضافة لبن؟».

فأجبتها: «نعم من فضلك».

عادت تسأل: «وماذا عن السكر يا عزيزتي؟».

فرنوتُ إلى سينت وقلت: «بالطبع. لم أذق طعم السكر منذ سنوات».

عندئذ أعاد وضع كوب الشاي على الطاولة بشيء من القوة فتناثرت منه قطرات وأنا أملأ كوبي. وعادت المرأة حاملة طبقًا صغيرًا من القشدة وبعض مكعبات السكر في منديل كِتانيّ. وتجاهلني سينت وأنا أذيب مكعبات السكر في الشاي.

سألته: «هل تضررت أيٌّ من سفنك في تلك العاصفة التي هبت قبل بضعة أيام؟».

فتمتم قائلًا: «تضررت سفن الجميع في تلك العاصفة».

عدت أسأله: «وسفن زولا أيضًا؟».

فأسقط الورقة من يده وسألني: «ماذا تعرفين عن زولا؟».

فرمقته وأنا أجيب: «لا شيء، اللهم إلا حقيقة أنه وقع في خصومة ما مع تاجر أحجار كريمة من منطقة البحر المجهول. وماريجولد، سمعت أن أشرعتها قد تمزقت».

فعقب قائلًا: «كلما قلت معلوماتك عن شئونه كان ذلك أفضل».

أمسكت بإبريق الشاي الموضوع على جانبه من الطاولة، وأعدت ملء كوبه، وسألته: «هل لديك مشكلة معه أيضًا؟».

قال: «أمك كانت لديها مشكلة معه»، عندئذٍ تجمدت يدي وأنا ممسكة بالإبريق، ثم أردف: «ومن ثم، فنعم، لديَّ مشكلة معه».

سألته: «هل كان يعرفها؟»، وحرصت على عدم ذكر اسمها، إذ إن غضبه كان آخر شيء أحتاج إليه في تلك اللحظة.

فأجاب: «لقد عملت لحسابه بصفتها جرّافة قبل أن أضمها إلى طاقمي».

حدقت إليه وأنا مصدومة من صراحته. لطالما دأب سينت على التحدث بكلام ملغز، لكنه الآن يعطيني بعض المعلومات التي لم أطلبها حتى. كان من المفهوم أن تكون إيزولد قد عملت لحساب أطقم أخرى قبل أن تنضم لسينت، لكنها لم تتحدث قط عن الفترة الفاصلة بين مغادرتها مدينة باستيان والانضمام إلى طاقم سفينة لارك.

سألته: «أي نوع من المشكلات؟».

اتكأ على الطاولة وقال: «لا يهم».

فصررت على أسناني وأنا أقاوم الرغبة التي تغريني بالإمساك بمعطفه اللطيف والصراخ.

لست من طينة تناسب هذا العالم يا فيبل.

اعتقد أنني لا أستطيع تدبر أمر نفسي. لقد أعطاني السفينة لارك، بيد أنه اعتقد أنني لا أستطيع أن أشق طريقي بنفسي.

ملأت صدري بالهواء الذي بدا كأنه هو الهواء نفسه الذي يحوم حول سينت دائمًا، وأغاظني سلوكه الفظ المتفاخر الذي لطالما تألق أثره في عينيه، لكنني ألجمت إحساس الألم الذي يحتل وسط صدري، ويناشده بصوت مكتوم أن يمد يده عبر الطاولة ويمسك يدي، تمنى ذلك الجزء الصغير المهيض في نفسي أن ترتفع عيناه عن الصفحة وينظر إليّ. انظر إليّ.

سألني: «متى ستخبرينني بسبب مجيئك إلى هنا؟».

ارتشفت رشفة من الشاي ومرارته المستساغة تلسع لساني، ثم أجبته: «إنني أحتاج لبعض النقود».

فسألني ونبرته تخلو من أي أثر للاهتمام: «كم؟».

فقلت: «ثمانمائة عملة نحاسية».

عندئذ ثار اهتمامه، واتكأ على ظهر كرسيه مبتسمًا، وقال: «تريدينني أن أعطيك...»

فقاطعته: «بالطبع لا. فهذا يخالف إحدى قواعدك. ما من شيء بالمجان»، ونطقتها بالطريقة التي كنت أرددها بها على مسمعه في صغري. ثم أردفت: «أريد أن أجري مقايضة».

ثار فضوله، وقال: «مقايضة».

فقلت: «نعم».

سألني: «ولماذا تحتاجين إلى ثمانمائة عملة نحاسية؟».

فأجبته: «لقد طلبت مني أن أشق طريقي الخاص. وهذا ما أعمل عليه».

أومأ برأسه مسلِّمًا بما قيل، ثم سألني: «وماذا يمكن أن يكون بحوزتك يجعلني أدفع هذا القدر من النقود مقابله؟».

فمددت يدي إلى سترتي قبل أن تنبثق أية خاطرة تجعلني أغير رأيي، وسحبت قلادة تنين البحر من جيبي، ووضعتها على الطاولة بيننا. حتى سينت لم يستطع إخفاء الصدمة التي لطمته في تلك اللحظة، لقد تجمد كأنه صخرة، واتسعت عيناه عندما سقطتا على القلادة.

ثم سألني بصوت قاسٍ عميق: «من أين حصلت عليها؟».

كنت أعلم أن ما أفعله مجانب للصواب. إن استغلال شيء يخص أمي ضده هو أمر لا يخلو من دناءة، وقد كان من الشنيع استخدام أعز غرض على قلبه في مقايضة، لكن القلادة نادتني وأنا واقفة أمام المرآة في غرفة سينت، كما لو كانت إيزولد تعلم أنني سوف أحتاج إليها، لهذه اللحظة بالذات.

أمسكها بعناية وشكل تنين البحر يتأرجح تحت أصابعه.

قلت: «لهذا عدت إلى لارك. عدت من أجل قلادتها».

لم يرد. كان قد صنع تلك القلادة لأمي في باستيان على يد صائغ يصنع حُليًّا فريدة من نوعها لا شبيه لها. صدفة أذن البحر التي صنعت منها هذه القلادة كانت نادرة، تلك الصدفة ذات اللون الأخضر الصافي التي لا توجد إلا في منطقة البحر المجهول. لم تخلعها أمي قط.

رفعت عينيّ إليه والدموع تلهبهما، وقلت: «إذن؟».

أغلق يده حول القلادة قبل أن يسقطها في جيب الصدر بسترته، ثم تنحنح وقال: «لا بأس، ثمانمائة عملة نحاسية».

مددت يدي نحوه فصافحني إبرامًا للصفقة. لم يرفع عينيه لأعلى حين نهضت، وأحسست بثقل ما فعلته للتو يغوص في أعماقي بوطأة رهيبة؛ لقد عرفت ما يهتم بأمره وقد استخدمته ضده، لقد مثلتُ أنا مصدر الخطر الذي يجعله محتاجًا إلى قواعده كي يحتاط منه.

وانسلت من عيني دمعة واحدة بعد أن أوليته ظهري.

ثم ترامى إلى أذني صوته وهو يناديني: «يا فيبل».

فتجمدت في مكاني، وقد خطت إحدى قدميّ بالفعل خارج الباب.

نظرت إليه فوجدت الهدوء قد رجع إلى محياه، وقد عاد إلى جلسته المستقرة في كرسيه وهو مصوب عينيه نحوي، وقال: «حاولي أن تبتزيني بشيء يخص أمك مرة أخرى، ولسوف أمحوك محوًا كأن لم تكوني موجودة قط».

الفصل الحادي والثلاثون

أحسست بأن أمي تفارقني وأنا أخرج من مشرب جريف تاركة القلادة ورائي، فمنذ أن أخذت القلادة من غرفة سينت لازمني شعور بحضور إيزولد معي كأنها شبح في الهواء.

ربط باج حافظتين مملوءتين بالنقود بطرف رباط في وركيّ، وثبتهما بحزامي، ثم قال: «بمجرد أن نشرع في السير لا تتوقفي».

أومأت متفهمة، وأحكمت تثبيت إبزيم الحزام أكثر لكي لا ينفك من ثقل الوزن.

عاد يقول وهو ينتظر أن أنظر إليه: «لا تتوقفي».

فقلت: «أفهم».

وقفت ويلا من ورائه في عتمة الزقاق تراقب الشارع. كان مسئول الحسابات الذي يعمل مع سينت قد جاءنا في منتصف الليل برفقة رجلين يحمل كل منهما سكينين في كلتا يديه، وقد حدجوني جميعًا بعيون ضيقة وأنا أوقع ورقة استلام النقود في غرفتي بالمشرب، لكن لم ينبس أي منهم بكلمة، فمن يعمل لحساب أبي يتعلم عدم طرح الأسئلة.

حثنا هاميش على إبرام شروط الصفقة مع صانع الأشرعة أولًا قبل أن نسلمه أجره وعدم المخاطرة بحمل أي نقود عبر المدينة، لكن ويست رأى أن احتمالية قبول صانع الأشرعة لتولي المهمة ستزداد إن رأى بعينيه كل تلك النقود.

ما من وسيلة إقناع أجدى من بريق العملات النحاسية، هكذا قال.

تفحص أوستر الحافظتين مرة أخرى ثم قال: «سنوصلك إلى الأبواب، وسننتظر في الخارج».

فرددت بصري بينه وبين باج وأنا أتساءل: «لن تدخلا معنا؟». لم ترقنى فكرة أن أكون في مقر صانع أشرعة وأنا أحمل هذا القدر من النقود وليس برفقتي سوى ويلا التي يمكن أن ترفع نصلها في وجه أي شخص يحاول أخذ النقود مني.

عندئذ ابتسم باج ابتسامة متكلفة وهو يتكئ على الجدار بجوار أوستر وقال: «إن تيني لا يحبنا كثيرًا».

سألته: «وما السبب؟».

فقال: «إنه لا يتعامل مع ذوي الدم المملح».

اتسعت عيناي وأنا أرددهما بين الاثنين، ثم استقر بصري على باج وقلت: «أخبرتني بأنك من حي الساحل».

فأجاب أوستر دونما اكتراث: «لقد وُلدنا في باستيان».

وبدا شيء من الانزعاج على باج، ربما لم يشعر بالارتياح لأن أوستر أخبرني بشيء حقيقي عنهما.

كانت المدينة الثرية المتألقة على شواطئ منطقة البحر المجهول هي مسقط رأس أمي. ويندر أن تجد شخصًا ذاق عيشة باستيان ثم يرضى بعيشة منطقة المضايق، ولم يرض بهذا الوضع سوى الفارّين من شيء ما.

ثمة مزيد من التفاصيل في حكاية قدومهما إلى هنا. ولم يفتني غرض أوستر من وراء إخباري بهذه المعلومة؛ لقد كان يمنحني شيئًا من الثقة ليرى ما سأفعله بها.

عندئذ قالت ويلا وهي تنظر من فوق كتفها: «حان وقت الذهاب».

أغلقت سترتي وأخذ كل من أوستر وباج مكانهما عن يميني وشمالي.

واستلت ويلا الخنجر من حزامها، ثم قالت: «مستعدة؟».

أجبتها بإيماءة.

فانطلقتْ إلى بحر الشارع، وتبعتُها وخطواتي تجاري خطوات أوستر وباج اللذين التصقا بي بما يكفي لإخفائي بينهما.

كان مقر صانع الأشرعة هذا واحدًا من اثني عشر مقرًّا تمتد فوق المياه عند الجانب الشرقي من مدينة سيروس. تراصت النوافذ المؤطرة على جانب كامل من المبنى يطل على المدينة، وكان الطوب الأحمر مغطى بطحالب خضراء كثيفة، والمِلاط متفتت. سرت ويداي مدسوستان في جيبيّ، وأصابعي قابضة على الحافظتين الثقيلتين للحيلولة دون اصطكاك العملات.

لاحظت النظرات الطويلة التي سددها كل من مر بنا نحو وجه ويلا ذي الندبة، لكنها أبقت رأسها مرفوعًا كأنها لم تلحظ النظرات. لم أرها من قبل تحاول تغطية ندبتها، وتساءلتُ عما إذا كانت تلك الندبة تعود عليها بالنفع الآن؛ إذ تُعلم الناس في منطقة المضايق أنها قد لاقت نصيبها من وحشية المنطقة. لم يكن بالغريب أن تنضم النساء لأطقم السفن، لكنهن كن قلة قليلة مقارنة بعدد الرجال، وكلما بدت المرأة أكثر رقة ازدادت احتمالية أن تصبح فريسة.

لقد طارت أخبار ماريجولد وويست وعرفها الآن كل التجار، وقد تحولت خصومته مع زولا إلى شيء أكبر من مجرد خصومة - صارت حربًا، وكان بوسع أي شخص ملاحظة أن طاقم ماريجولد مستنزف ماديًّا، لكن ما من أحد يعرف أي شيء عن الفتاة الجيفالية التي ابتزت سينت كي تحصل منه على نقود لإنقاذ السفينة.

وصلنا إلى عتبات المقر، وأخذ أوستر موقعًا جيدًا عند جانب البناية، وسحب غليونًا من جيبه، وتبعه باج وهو معلق يديه في سترته، وكلاهما يراقب ويلا من طرف عينه وهي تفتح البوابة الحديدية الضخمة قبل أن ندلف إلى البناية التي أضيء دورها الأرضي بالضوء المتسلل من النوافذ.

اكتظ المكان بقماش أشرعة مطوي من شتى الأحجام والسماكات، فكانت أكوام القماش تحتل الأرضية كلها، بحيث لا سبيل أمامك تسلكه سوى الدرج المفضي للطابق العلوي. وعلى طول الجدار المجاور للبوابة تراصت الطلبات الجاهزة، معبأة ومجهزة لتنقل إلى السوق، وملفوفة بورق بني مكتوب عليه أسماء السفن.

برز رأس رجل أصلع من وراء ستارة، وأخذ يراقبنا ونحن نرتقي الدرج المفضي إلى الطابق العلوي. وكان الطابق العلوي عبارة عن غرفة واحدة كبيرة مفتوحة ينتشر فيها قماش الأشرعة مبسوطًا ومقصوصًا ومحاكًا يدويًا، والضوء يتسلل من النوافذ من كل اتجاه، وكل شبر من الأرضية مغطى بقماش أبيض مموج يجلس عليه العمال بصناديقهم الخشبية التي تحوي أدواتهم. وتدلت الحبال من حلقات لامعة مثبتة في السقف كأنها سلاسل فضية.

نادت ويلا: «تيني!»، فظهر رجل من خلف كومة صناديق عند الطرف الآخر من الغرفة.

اتسعت عيناه حين رآها وتواثب شاربه وهو يغمغم قائلًا: «أوه، لا لا. محال يا ويلا!».

سارع العمال إلى سحب الستارة ليفتحوا مسارًا لويلا تسلكه عبر الأشرعة نحو تيني.

راح الرجل يهز رأسه وهو يغرز الطرف المدبب لمسمار تجديل الحبال في زاوية الشراع الذي بين يديه، وقال: «محال ولو بعد مليون سنة!»، وجعل يُلوي المسمار ليوسع الثقب وخاتمه يتألق في الضوء. كان الخاتم مرصعًا بحجر عقيق بني ضارب إلى الحمرة، وهيكله الفضي السميك مختوم بختم مدينة سيروس للدلالة على أنه تاجر معتمد من نقابة صناع الأشرعة. كل من في هذا المقر يعملون تحت إمرته، يقضون سنين عددًا من عمرهم في

التدرب تحت إشرافه على أمل أن يحصلوا في يوم من الأيام على خاتمهم الخاص. وأردف الرجل: «ما من صانع أشرعة في سيروس سيتولى مهمة إصلاح أشرعة ماريجولد، فلا داعي لأن تطلبي ذلك حتى».

وضعت ويلا إحدى يديها على النافذة المجاورة له، واتكأت عليها، ثم سألته: «هل أتى زولا إلى هنا؟».

فأجابها: «لقد ذهب إلى كل مكان».

فنظرت إليّ ويلا من خلف ظهره، كان هاميش وويست على حق.

سحب تيني حلقة معدنية من إزاره، ووضعها في الثقب الذي ثقبه، ثم قال: «ما من أحد يريد أن يقحم نفسه في صراع مع طاقم سفينة لونا، حسنًا؟ قد لا يكون صاحب أسطول كبير كسابق عهده، لكنه يقاتل بقذارة. أنا آسف لما أصاب ماريجولد». ثم رفع عينيه وجال ببصره على وجه ويلا، وأردف: «وأنا آسف لما أصابك وأصاب ويست. لست أدري ما فعلتموه لاستجلاب عداوة شيطان بحر مثل زولا، لكنني لست بحاجة إلى النقود التي ستأتي من وراء إصلاح أشرعة ماريجولد لدرجة تجعلني أتحدى زولا».

من ورائنا جلس عامل صغير السن يرهف السمع وهو يسحب إبرته ليكمل حياكة خط طويل من الغرز، وعيناه مصوبتان نحو مكان الحافظتين أسفل سترتي.

قالت ويلا: «كثيرًا ما أحسنت معاملتنا يا تيني. وكثيرًا ما دفعنا لك الأجر الذي ترتضيه».

فقال: «أنا أعلم ذلك، لكن كما قلت...»، ثم تنهد وأردف: «ستكون فرصكم أفضل في مدينة سوان؛ هذا إن لم يصل زولا إلى هناك أولًا».

حدقت إليه ويلا لكنه لم يتزحزح عن رأيه، ثم سألته: «وفي رأيك كيف سنصل إلى سوان من دون أشرعة؟».

فقال: «اسمعي، لا ينبغي حتى أن يراني أحدهم وأنا أتحدث معكم»، ثم رفع عينيه صوب الغرفة من خلفنا وأردف: «الناس يتناقلون الحديث».

عندئذٍ خفضت ويلا صوتها وقالت له هامسة: «لدينا نقود، مبلغ كبير، ونحن على استعداد لدفع ضعف تكلفة الأشرعة في المعتاد».

فسكنت يدا تيني هنيهة وهو يرفع عينيه نحوها.

قالت ويلا وهي تنظر إليّ: «أريه».

خطوت خلف الصناديق وفككت أزرار سترتي، ثم فتحتها لتكشف عن حافظتين مملوءتين.

حينها دبت حركة في عضلات فم تيني، ولاح على وجهه ما يدل على تلاطم الأفكار في رأسه، وتململ في مكانه وهو ينظر من النافذة. لقد أغرته النقود، ومع ذلك فمن قبل أن ينطق بشيء عرفت أنه لن يخاطر بحياته مهما يكن المبلغ الذي نقدمه له. قال: «أنا آسف يا ويلا»، وأولانا ظهره، وغرز المسمار في زاوية أخرى من الشراع.

عادت ويلا أدراجها لتخرج من المكان وهي تغمغم: «أوغاد خونة»، وسحب العمال قماش الشراع من طريقها، لكنها لم تبطئ خطواتها، ونعل حذائها يخبط الأرض خبطات كأنها ضربات قلب قوية.

قلت وأنا أتبعها على الدرج المفضي إلى بوابة الخروج: «لا بد أن ثمة شخصًا ما في هذه المدينة سيريد الثمانمائة عملة».

فقالت: «لو أن أحدًا في هذه المدينة سيقبل تلك النقود من أجل تلك المهمة لكان هو تيني».

اندفع باج من موقفه عند الجدار ونحن نمرق من البوابة، وقال: «كان ذلك سريعًا».

فقالت ويلا بامتعاض وهي تضع يديها على وركيها وتنظر إلى الشارع المزدحم: «لن يتولى المهمة».

عندئذٍ سحب أوستر نفسًا طويلًا من الغليون، ونفث الدخان عبر منخاريه، وتلاعبت على شفتيه ابتسامة شقية.

فتفحصه باج وقال: «لا تفكر في ذلك حتى».

لم يتفوه أوستر بكلمة.

نظرت إليه وتساءلت: «ما الأمر؟».

فأجابني متحاشيًا نظرة باج: «ربما نعرف شخصًا سيتولى المهمة».

رددت بصري بين باج وأوستر، وتساءلت: «من؟».

فحدجه باج بنظرات غاضبة وقال: «لن نذهب إلى ليو».

تساءلت ويلا بنفاد صبر: «من ليو؟».

فأجابها أوستر: «معرفة قديمة من الأيام الخوالي. وسيقبل المهمة».

لكن لم يبد أن باج سوف يستسلم.

وهز أوستر كتفيه مردفًا: «لن يكتشف أحد الأمر مطلقًا. بطريقة ما، هذا الحل أكثر أمانًا».

رددت ويلا بصرها بينهما وسألت أوستر: «كيف تعرف أنه ما من أحد سيكتشف الأمر؟».

فأجاب أوستر: «لأن صانع الأشرعة هذا ليس من المفترض أن يكون له وجود».

ارتفع صوت ويلا وهي تقول: «ألا تريان أنه كان يجدر بكما ذكر هذا قبل أن ندخل هذه البناية وتنطلق الشائعات بشأن طاقم ماريجولد الذي قصد تيني من أجل أشرعة؟».

تنهد باج وقال: «إن هذا الخيار بمثابة ملاذ أخير».

فقلت وأنا أستدير: «يبدو هذا جيدًا. فلننطلق».

الفصل الثاني والثلاثون

جلسنا منتظرين عند نافذة المقهى الممتلئ. كان حي نورث فيج هو الحي الوحيد في المدينة الذي كانت شوارعه جافة، ولا يركض فيها الأطفال حفاة. والعديد من سكان الحي مسقط رأسهم مدينة باستيان، ويقيمون في سيروس لتمثيل نقاباتهم أو للإشراف على مصالح أرباب أعمالهم خارج منطقة البحر المجهول. لقد تعودوا نمط عيش مغايرًا لنمط عيشتنا في منطقة المضايق، لم تكن رائحة سيروس الكريهة موجودة هنا، حيث انعكست أشعة الشمس على البيوت ذات الواجهات الحجرية المزخرفة بزخارف برونزية استحالت إلى اللون الأخضر مع مرور الأعوام.

لم أزر نورث فيج مطلقًا؛ لأن أبي رفض أن يطأ بقدمه أي مكان يقع غرب حي الساحل، وكان يعقد لقاءاته مع مسئولي المدينة أو زعماء النقابات في قلب المدينة، حيث يمكنه التفاوض وتسيير العمل في حِماه الخاص.

تصيدتنا كل عين في الشارع ونحن نشق طريقنا إلى المقهى، وتساءلت متى كانت آخر مرة نزل فيها أيٌّ منهم إلى الأرصفة البحرية. لم يكن أمثالنا محل ترحيب في نورث فيج، لكنهم مع ذلك لن يرفضوا النقود. لقد دفعنا مبلغًا إضافيًا مقابل مجلسنا عند النافذة، حيث يمكننا مراقبة الباب الأحمر عبر الشارع.

التقط أوستر كعكة صغيرة من الصينية متعددة الطوابق وأمسك بها أمام عينيه متسائلًا: «ما هذه بحق الجحيم؟». كانت الكعكة متكونة من طبقات رقيقة هشة مغطاة بمسحوق بلون الدم.

ثم جاءت امرأة، وتوقفت بجوار الطاولة ومعها عربة فضية بعجلات، ووضعت على الطاولة إبريقيْ شاي مغطيين برسم يدوي. أبقت المرأة عينيها منخفضتين كأننا لم نكن موجودين،

وأدركت أن عدم نظرها إلينا لم يكن الباعث عليه رفضًا، بل خوفًا. وللحظة خاطفة راقني هذا الشعور.

أمسكت إبريق الشاي وجعلت أقلِّبه أمامي وأنا أتفحص الزهور الأرجوانية المتشابكة والحواف المؤطرة باللون الذهبي. إن الفنجان وحده أغلى من حزام أدواتي بالكامل.

نفخت ويلا بنفاد صبر وهي تملأ فنجانها بالشاي الأسود الذي تتصاعد منه ألسنة البخار، وتساءلت: «هل سيظهر أم ماذا؟».

فأجابها باج وعيناه لا تزالان مثبتتين على الباب الأحمر: «سوف يظهر».

ثم رنت ويلا إلى أوستر من خلال دخان فنجانها، وتساءلت: «كيف يعرف بحاران من مواليد باستيان خياطًا ثريًّا يقيم في حي نورث فيج؟».

فنظر أوستر إلى باج قبل أن يجيب قائلًا: «إنه من ذوي الدم المملح. وقد أسداه باج معروفًا ذات مرة».

سألته: «أي نوع من المعروف؟».

فسارع باج بالإجابة مقاطعًا أوستر قبل أن يتسنى له الكلام: «النوع الذي يقتضي سدادًا».

لقد باحوا أمامي بأكثر مما كنت أتوقع، ولن أضغط لاستقصاء المزيد.

التقطت ويلا كعكة من الطبق، وأخذت قضمة وتحدثت بفم ممتلئ: «وماذا إن رفض؟».

ابتسم أوستر ابتسامة ماكرة وقال: «لن يرفض. وسيقبل المهمة مقابل مائة عملة نحاسية فقط إن كان هذا عرضنا».

سألته ويلا: «وكيف تعرف ذلك؟».

فأجابها: «لأنه لم يصنع أشرعة منذ سنوات، وسوف يقتنص الفرصة».

اتكأت على ظهر مقعدي وتساءلت: «فلماذا إذن لا ندفع له مائة عملة نحاسية بدلًا من ثمانمائة؟».

فقال أوستر: «سندفع له مائة مقابل الأشرعة، وسبعمائة مقابل صمته».

فضحكت ويلا وقالت: «ذوو الدم المملح لا يتآزرون إذن، صحيح؟».

وقف باج متكئًا على النافذة عند ظهور رجل بشارب أبيض في وشاح مرقط عبر الشارع، وبين ذراعيه حزمة يحملها، وراح يعبث بيده في جيوبه حتى عثر على مفتاح، وفتح الباب ودلف إلى الداخل.

أنهيت فنجاني، ونهض الآخرون. فتح أوستر الباب لي وخرجت إلى ضوء الشمس وبجواري باج.

نظر إلى طرفي الشارع قبل أن يومئ لي، وتحركنا معًا نعبر الشارع بنسق خطوات واحد. ولكن لا يمكن ألا يلفت طاقم سفينة النظر في حي نورث فيج، فجلدنا الغليظ وشعرنا المتأثر بالشمس وملابسنا الرثة قد وشت بنا. أطلت امرأة من نافذتها في البناية المجاورة وهي ترقبنا والتجهم يحتل وجهها، وكل من في الشارع كانوا يحدجوننا حين وقفنا أمام باب الخياط.

رفع باج المزلاج وفتح الباب، ثم ارتقينا العتبات. كانت جدران المحل الصغير مطلية بطيف فاتح من اللون الأرجواني، وتراصت على الأرفف لفافات قماشية من شتى الألوان.

ترامى صوت من الخلف: «دقيقة واحدة!».

جلس باج على كرسي ذي ذراعين بجوار النافذة، حيث اصطفت عند الزاوية ثلاث مرايا متجاورة لكي تكون في مكان جيد الإضاءة، وبجانبها طاولة صغيرة عليها صينية تحوي

زجاجات كريستالية أنيقة مملوءة بسوائل لونها كهرماني، وفتح باج إحدى الزجاجات وملأ كأسًا مزخرفة بنقوش قبل أن يرفعها إلى شفتيه، ويرتشف رشفة بصوت حاد.

أما أنا فمددت يدي لألمس الحافة ذات الخيوط المنسلة للحرير الأبيض غير الملفوف، والذي تزين بأزهار صفراء صغيرة، ثم قبضت أصابعي إلى كفي حين أدركت مدى اتساخ يدي بجوار ذلك الحرير النظيف.

تقدم دبيب خطوات باتجاهنا، وارتكز أوستر على المنضدة بمرفقيه منتظرًا. انعطف الرجل عند المدخل فجمد هنيهة حين رأى ويلا، لكن عينيه اتسعتا عندما رأى باج. كان الوشاح حول رقبته مربوطًا في شكل قوس أنيق، وطرفا شاربه الأبيض متقوسين للأعلى ومثبتين بالشمع.

ثم تحدث بلهجته الثقيلة التي أبرزت نهاية كل كلمة: «ماذا تخال نفسك فاعلًا هنا؟».

فابتسم باج قائلًا: «حسبت أنك ستسر برؤيتي يا ليو».

فقال ساخطًا: «لن يسر زبائني حين تنتشر الأخبار عن وجود مجموعة من الصعاليك في محلي».

أمال باج رأسه إلى الوراء لإفراغ كأسه في جوفه، ثم قال: «إذا كنت تتذكر فقد كان هذا الصعلوك هو من أنقذك في باستيان. لولاي ما كان وجود هذا المحل».

ذهب ليو إلى النافذة، وأغلق الستائر قبل أن يسحب غليونًا وعلبة صغيرة مستديرة من إزاره، ونظر إلينا في صمت وهو يضع أوراق نبتة البوصير في الغليون ويشعله وهو ينفخ حتى تصاعد الدخان الأبيض من بين شفتيه.

نظر أوستر إلى الخاتم في إصبع ليو الأوسط وتساءل: «أليس من الخطر ارتداء ذلك؟». كان خاتم تاجر مرصعًا بحجر عقيق أحمر. أجلت بصري في أرجاء المحل مرة أخرى وأنا في

حيرة. إذا كان صانع أشرعة فلماذا كان يدير محل خياطة؟

بسط ليو أصابعه أمامه وهو يرمق الحجر قائلًا: «هل أنت قلق عليَّ؟ لقد تأثرت عواطفي بهذا اللطف»، وحين نظرت من كثب رأيت ختم باستيان مطبوعًا على الهيكل الفضي للخاتم. إذن كان صانع أشرعة لكنه لم يحصل على خاتم اعتماد من النقابة في سيروس.

قال أوستر ببساطة: «نحن بحاجة إلى مجموعة من الأشرعة».

ارتعش شارب ليو وقال: «ليس من المفترض أن أصنع أشرعة. أنت تعلم ذلك».

فعقب أوستر: «هذا لا يعني أنك لن تصنعها».

ضيق ليو عينيه وقال: «لماذا لا تذهب إلى أحد مقرات صانعي الأشرعة في الجانب الآخر من المدينة؟».

أعاد باج ملء كأسه، وقال: «لقد ذهبنا. لن يقبل أحد منهم تولي المهمة».

فضحك ليو وقال: «إذن قد أوقعت نفسك في شيء من المتاعب».

فقال باج: «وما يهمك؟ هل ستقبل الصفقة أم لا؟».

أجابه: «هذا يعتمد على المبلغ الذي ستقدمه لي ليجعلني أخاطر بحياتي».

عندئذ قلت: «ثمانمائة عملة نحاسية».

فحدجتني ويلا بنظرة لوم شديدة.

لكننا كنا متجاوزين منطقة التفاوض، كنا يائسين، ولم يكن ثمة طائل من التمثيل بأننا لسنا كذلك. ثم أردفتُ: «ليس لدينا وقت للمساومة، نحن نحتاج إلى أشرعة، ونحتاج إليها الآن».

جال ليو ببصره بيننا مفكرًا، ثم سأل: «السفينة من أي طراز؟».

فأجابه أوستر: «من طراز لورتشا ذات صاريين. لن يستغرق العمل عليها قسطًا ذا بال من وقتك».

عندئذ تألقت عينا ليو ببريق وهو يقول: «ليست هذه هي اللورتشا التي مُزقت أشرعتها قبل يومين، أليس كذلك؟».

فحدجته ويلا وقالت: «ما مدى السرعة التي يمكنك بها إتمام المهمة؟».

شاهدته مستغرقًا في التفكير، إن قُبض عليه وهو يصنع أشرعة دون خاتم اعتماد من نقابة صناع الأشرعة في مدينة سيروس فسيكون في عداد الموتى. وما دام يعمل في حي نورث فيج فهذا يعني أنه ليس في حاجة ماسة إلى نقود. إن قبل تولي المهمة فسيكون الباعث الوحيد على ذلك أنه أراد تولي المهمة، وليس لأنه احتاج إلى أي شيء منا.

ابتسم وأسنانه البيضاء مطبقة على الغليون وقال: «يومان».

حنى باج رأسه جانبًا والضوء المتسلل من النافذة يلقي بظلال على وجهه، ثم تساءل: «وكيف ستهيئ الأشرعة في يومين؟».

هز ليو كتفيه قائلًا: «لي معارف».

فقلت: «حسنًا، يستحسن أن يعرفوا كيف يغلقون أفواههم»، ثم فككت الحافظتين الجلديتين من حزامي وألقيتهما نحوه وأنا أقول: «هذه مائتا عملة. وستحصل على مائتين حين تُتم إعداد الأشرعة، والأربعمائة المتبقية حين تُعلق الأشرعة على الصواري».

فقال: «اتفقنا».

اقتربت ويلا منه خطوة وقالت: «انكث الاتفاق، ولست بحاجة إلى إخبارك بما سنفعله بك».

اختلجت ابتسامته قليلًا وقال: «قلت إنني سأنجز الأمر».

نهض باج وهو يضع كأسه الفارغة على الطاولة وقال: «أعتقد هكذا أنه ما من أحد منا يدين للآخر بشيء».

أومأ ليو برأسه وفتح الباب قائلًا: «كانت مسألة وقت».

عدنا أدراجنا إلى الشارع، وصار حزامي الآن غير مثقل بوزن النقود، وسار باج وويلا أمامنا وأنا وأوستر في إثرهما.

سألت أوستر بصوت هامس لا يسمعه سواه: «ما المعروف الذي أسداه باج لليو؟».

فتحرَّى ما إذا كان باج يصغي إلينا قبل أن يجيب، ثم قال: « قبل أن نأتي إلى منطقة المضايق كان باج ضمن طاقم سفينة تخرج من مدينة باستيان وينتهي مسارها التجاري في سيروس، وقد اختبأ ليو في السفينة حين احتاج إلى الهرب».

سألته: «الهرب من باستيان؟».

أجابني بإيماءة.

فتابعت أقول: «إذن كان صانع أشرعة في باستيان».

فقال: «ليس مجرد صانع أشرعة عادي، لقد كان صانع أشرعة يعمل لحساب هولاند».

تجمدت خطواتي وأنا أحملق إليه. كانت هولاند هي التاجرة نفسها التي قالت ويلا إنها تعادي زولا، وهي التاجرة نفسها المسيطرة على تجارة الأحجار الكريمة.

وتابع أوستر كلامه: «لقد خسر رضاها عنه. كان أمامه خياران، إما مغادرة باستيان من دون ترك أثر، وإما مواجهة مصير الهلاك الذي دبرته له هولاند أيًا كان. دفع لباج ستين عملة

نحاسية كي يهربه على متن السفينة إلى سيروس، لقد كان ذلك المبلغ أكبر مبلغ كنا قد رأيناه في حياتنا، فقبل باج، لكن لم يقبل أي تاجر التعامل معه حين أتى إلى منطقة المضايق، لذا أنشأ محل الخياطة ذاك».

هذا ما قصده أوستر حين قال إن ليو صانع أشرعة لا يُفترض أن يكون له وجود. لقد كان شخصًا يائسًا مختبئًا في مخزن سفينة وهاربًا، وأقصى ما يعرفه أي شخص في سيروس أنه كان مجرد خياط.

قلت وأنا أرنو إلى الأمام: «إذن، لقد كنت صاحبًا لباج منذ أمد بعيد».

كان يعرف مغزى الكلام، لم أكن أسأل فقط عن طول مدة معرفة أحدهما بالآخر، بل كنت أسأل عن طول أمد أواصر الصداقة التي ربطت بينهما.

ارتسمت على شفتيه ابتسامة منحرفة إلى الجانب، ونظر في عينيَّ برهة قبل أن يومئ برأسه. ثم انطلقت يده إلى كم قميصه وشمره ليكشف عن الوشم الموجود على ذراعه، ولاح شيء من التغير على تعابير وجهه.

كان الوشم عبارة عن ثعبانين متشابكين يأكل كل منهما ذيل الآخر، لقد كان ذلك رمزًا ذا مغزى، يرمز إلى الصداقة اللانهائية، لكن على حد علمي لم يكن ثمة وشم كهذا في جسد باج.

سألته: «هل يعرف الطاقم بهذا الشأن؟».

فأجاب: «ما من أحد غيرهم يعرف».

والآن عرفت أنا أيضًا. قلت: «لقد أبقيتما الأمر سرًا لفترة طويلة للغاية».

فهز كتفيه وقال: «تعرفين كيف تجري الأمور. من الخطر أن يعرف الناس شيئًا كهذا».

بثت هذه الفكرة حبورًا في نفسي قبل أن تنفث فيها حزنًا، فكرة أن يعثر الإنسان على الرفيق الصادق في هذا العالم، وأن يُخلِص له، حتى إن كان على المرء إخفاء هذا الإخلاص لحماية صديقه. عندما كنت وحدي في جزيرة جيفال خطر ببالي كثيرًا أن الحب لا يعدو أن يكون أسطورة من الأساطير، وأن أمي كانت قادرة على تجسيد هذه الأسطورة واقعًا؛ لأنها لم تكن كبقية البشر، بل كانت هي نفسها أسطورة من عالم آخر، إذ بدت إيزولد مرتبطة بالبحر على نحو مغاير لكل الناس، كما لو كانت تنتمي إلى بطن البحر وليس إلى سطحه مثلنا.

لكن في اللحظة التالية انشغل فكري بـ ويست.

لم أحادثه مذ صافحته مصافحة الموافقة على الشرط الذي اشترطه لانضمامي إلى الطاقم، أن أتولى مهمة التجريف على ماريجولد لكن في الوقت نفسه أحافظ على مسافة بيننا، ولا أعمق علاقتي به.

أخبرني ويست بأن كل ما يعرفه قد علمه إياه سينت، ولهذا كان يعمل على تسديد ديونه ويدير تجارة جانبية خاصة به، وكان يختلس من الدفاتر، ويغلق صندوقًا على رجل، ويلقيه في البحر. كانت هذه الحياة تقتضي التعامل بقدر معين من الشر، لطالما أخبرني سينت بذلك، بيد أنني لم أتعلمه حقًّا حتى عشت في جيفال. لقد اقترفت شرورًا كثيرة للبقاء على قيد الحياة في تلك الجزيرة، لكن لم يؤنبني ضميري مطلقًا حيال ذلك، ولعل هذا جعلني شبيهة بأبي بدرجة أكبر مما أردت الإقرار بها.

ورغم أن ويست كرر كثيرًا أنه لم يسد أحدًا معروفًا ولم يجازف بشيء من أجل أحد، فإنه قد فعل الأمرين، مرارًا وتكرارًا.

فعلهما لي، ومن أجلي.

الفصل الثالث والثلاثون

مضى هذان اليومان كأنهما عامان.

ظللنا نتوارى في المدينة، وتجرعنا الكثير من الجاودار، ونمنا في وقت متأخر لتجنب لفت الانتباه في حين كان ليو يعمل على مدار الساعة لإتمام إعداد أشرعة ماريجولد، لكن كان بوسعي استشعار جواسيس زولا يراقبوننا عند الأرصفة، لم يكن غبيًّا، ولم نتخلص من متاعب طاقم السفينة لونا بعد. لقد كانوا حاضرين في كل مشرب نرتاده، وخطواتهم تتبعنا على الجسور وفي الأزقة.

كان ينتظر مرتقبًا خطوتنا التالية.

لكن ما من أحد كان بوسعه أن يخمن الخطوة القادمة؛ في غضون يومين سوف ترسو ماريجولد في بحر شرك العواصف، وهنالك سنضع أيدينا على الثروة التي سيسدد بها ويست دين سينت، وعند ذاك سيكون الطاقم حرًّا في كشط شعار سينت المرسوم في أرضية حجيرة القبطان، وللمرة الأولى لن تكون ماريجولد رهينة لأحد.

لازم ويست حجيرته، ورفض مغادرة السفينة في فترة تعافيه؛ لا تزال الإصابات التي ألحقها به طاقم زولا تغطي كل شبر من جسده تقريبًا. استحالت الكدمات إلى اللون الأصفر، وبدأ الجلد يلتئم على طول الغرز، لكنه لن يستعيد كامل قوته إلا بعد مرور أسابيع.

جلس ليو عاليًا على الصاري، وكان الوشاح الحريري المخطط المربوط حول رقبته يرفرف مع الريح، وجلست ويلا بجواره ممسكة بين ذراعيها بالشراع المطوي. لقد انكبا على العمل منذ غروب الشمس وهبوط الضباب، ويدا ليو تتحركان بسرعة بالغة حتى إنه يتعذر رؤية

ما كان يفعله من شدة سرعتهما. وعندما أخبرناه بأنه سيتعين عليه تركيب الأشرعة في الظلام الدامس كي لا يرى أحد ذلك، بدا متحمسًا للتحدي الإضافي. بحلول شروق الشمس سنكون قد خرجنا من الميناء وفي طريقنا إلى بحر شرك العواصف.

كان البقية منتظرين بالفعل عندما دلفت إلى حجيرة القبطان، والخريطة التي أعطاني إياها سينت في قبضتي. وقف ويست عند رأس المكتب، ولم يفتني كيف تحاشى التقاء عينيه بعينيَّ!

قلت: «أوشكا على الانتهاء»، وأغلقت الباب خلفي.

نظر ويست إلى هاميش قائلًا: «ماذا أيضًا؟».

دفع النظارة فوق أنفه بطرف إصبعه وهو يجيب: «لقد طالبنا بتقاضي جميع ديوننا، وقد اقتضى الأمر تهشيم أنف أو أنفين، لكننا تقاضينا ما لنا، ومن المفتروض أن يكون المبلغ الذي جمعناه كافيًا لتغطية نفقاتنا إلى أن تتسنى لنا المتاجرة في ديرن».

فعاد ويست يسأل: «والحمولة؟».

فأجابه: «تخلصنا أنا وأوستر من كل شيء لا نحتاج إليه، اضطررنا إلى بيع البضائع بخسارة، لكن حين يحل وقت لقائنا مع التجار الذين نأخذ منهم البضائع سيكون معنا ما يكفي للسداد لهم. يجب ألا يعرفوا بشأن ما فقدناه في العاصفة أو ما بعناه بالخسارة هنا في سيروس».

لقد قضينا يومًا كاملًا في إخلاء هيكل السفينة من كل شيء؛ إذ يتعين أن تكون ماريجولد أخف وزنًا من أي وقت مضى إن أردنا خوض بحر شرك العواصف من دون أن نغرق.

قال باج وهو ينظر إلى الخريطة في يدي: «الآن نحتاج فقط إلى رسم المسار».

ترددت لوهلة، وشعرت كأن السفينة لارك تطأني بثقلها، لقد كانت هي الشيء الوحيد الذي أملكه في هذا العالم، وبتسليمها لويست كنت أضع حياتي بين يديه، وقد أثارت هذه الفكرة الاضطراب في بطني، وتسارع خفقان قلبي.

مد باج يده فسلمته الخريطة، ثم بسطها فوق الأوراق الأخرى المبعثرة على المكتب، وقال: «حسنًا، أرينا المسار».

لمستُ الحروف المكتوبة على طول الحافة، واتبعت خط الساحل، وتذكرت ملمس الورق تحت أطراف أصابعي. تحركت أصابعي صعودًا مبتعدة عن الساحل، وعبرت جزيرة جيفال قبل أن تتوقف عند أجزاء طويلة نحيلة من اليابسة تتحلق حول بعضها في وسط البحر.

اتكأ ويست على الطاولة منحنيًا، وقال بصوت خفيض: «بحر شرك العواصف».

وضع باج يديه على وجهه وهو يتنهد، قائلًا: «هذا هو موقع الحمولة؟ بحر شرك العواصف؟».

أومأت: «نعم».

تمتم هاميش قائلًا: «لا بد أنك تمازحينني»، ثم أردف: «ماذا يوجد هنالك؟».

أجبته: «أحجار كريمة... معادن... نقود... كل شيء».

حدق ويست إلى الخريطة قائلًا: «سفينة غارقة».

ونظر أوستر إليّ قائلًا: «وكيف يفترض بنا الوصول إليها؟ ثمة سبب وراء عدم دخول أحد إلى هذا البحر، إنه شرك من شراك الموت».

فقلت: «إلا إن كنت تعرف كيف تبحر فيه».

عندئذٍ رفع ويست عينيه تجاهي ويداه مرتكزتان على المكتب أمامه، ثم سألني: «أنت تعرفين طريق الإبحار عبر بحر شرك العواصف؟».

أبقيت عينيّ مثبتتين في عينيه وأنا أفك أزرار سترتي وأتركها تسقط من كتفيّ. وبعد أن سقطت السترة على الأرضية، شمرت كم قميصي، فتبدت الندبة الملتوية المنتفخة حمراء داكنة في ضوء المصباح، ووضعت ذراعي على الطاولة بزاوية معينة فوق الخريطة.

ضغط باج بقبضته على فمه قائلًا: «هل تخبرينني بأن...؟».

وهز هاميش رأسه في عدم تصديق.

أشرت إلى أقصى نقطة من الندبة عند أدنى معصمي، وقلت: «إنها هنا».

فقال أوستر: «ما هذه؟ ما زلت لم تخبرينا بما هو قابع هنالك».

ابتلعت ريقي بصعوبة، ثم قلت: «السفينة لارك».

في الحال تقهقروا جميعًا في آن واحد، وجثم صمت على المكان.

وضعت إصبعًا عند وسط الشعاب المرجانية، وإصبعا آخر عند جزيرة جيفال، ورحت أردد الكلام كما سمعته من كلوف عقب العاصفة: «العاصفة التي ضربت السفينة لارك جاءت من الشمال»، وسحبت إصبعي إلى أسفل باتجاه الشعاب المرجانية وأنا أردف: «فدفعت السفينة نحو الشعاب المرجانية، لكنها غيرت مسارها عقب ذلك»، وحركت إصبعي الذي كان على الشعاب المرجانية إلى البحر وتابعت حديثي: «تحولت جهة الغرب؛ لقد جرجرت السفينة إلى هنا قبل أن تغرق. إنها هناك». وصوبت نظري نحو جزيرة مرجانية صغيرة قابعة في متاهة من الشعاب المرجانية».

رفع هاميش ناظريه إلى ويست من فوق عدسات نظارته وقال: «إن فعلناها فستكون تلك هي القاصمة. سوف تنقطع علاقتنا بسينت إلى الأبد».

ولاح القلق على باج وهو يقول: «ويمكن أن يلاحقنا».

فقلت: «لن يفعل»، ثم سكتت هنيهة قبل أن أردف: «لارك ملك لي».

فتساءل: «ملك لك؟ كيف؟».

قلت: «لقد أعاطني إياها».

فكرر أوستر الكلام: «لقد أعطاكِ إياها».

فعقبتُ: «إنها إرثي».

فحدقوا إليَّ جميعًا، كلهم ما عدا ويست.

وأردفت: «إنها قابعة على عمق اثني عشر أو خمسة عشر مترًا فقط».

كان ويست هادئًا وعيناه ما زالتا تركضان فوق الخريطة.

تابعت حديثي: «يمكنني العبور بالسفينة بنجاح. أعلم أنني قادرة على ذلك».

أخيرًا قال ويست: «حسنًا»، عندئذ بدا الارتياح على الآخرين رغم ابتسامة التوتر التي احتلت شفاههم. أردف ويست: «سوف ننتشل ما في سفينة لارك، وبيع ما يمكننا بيعه في ديرن كي تتوافر معنا سيولة نقدية، ثم نعود إلى سيروس ونسدد لسينت ثمن ماريجولد».

فارتسمت ابتسامة على شفتي أوستر وهو يهمس: «هذا إن لم تبطش بنا شياطين البحر أولًا».

لقد أبحروا بالسفينة لأكثر من عامين، لكنها لم تكن ملكهم قط، ولن تكون ملكهم أبدًا، إذ سيحرص سينت على عدم تملكهم إياها. لقد أعطى سينت سفينة ماريجولد إلى ويست

مقابل دين؛ لأنه يعلم أنه لن يكون قادرًا على سداد الدين أبدًا، ومن ثم لم يكن هناك باعث للاعتقاد بأنه سيفقد سفينة الظل الخاصة به.

اتجه باج صوب الباب وتبعه أوستر، وقال: «يجدر بنا مغادرة هذه المدينة اللعينة قبل أن يبدأ جميع من فيها بالتساؤل عما نحن بصدد القيام به».

عقب انغلاق الباب قال ويست وهو لا يزال ملقيًا بصره على الخريطة: «الثلث».

فقال هاميش: «حسنًا، الثلث يدخل في دفاتر ماريجولد والباقي...»

فقاطعه ويست قائلًا: «لا. سوف يكون نصيبها الثلث».

فأومأ هاميش برأسه.

عندئذ تساءلت: «لكن لماذا؟». بعد أن تدخل ثلث الثروة إلى دفاتر ماريجولد، وآخذ أنا ثلثًا آخر، لن يتبقى للطاقم سوى الثلث ليتقاسموه جميعًا بينهم؛ هذا ليس إنصافًا.

فقال: «حين أبرمنا الصفقة لم تخبريني بأن تلك الثروة إرثك».

فقلت: «أنت لم تسأل. إنها ملك لي، ويمكنني استخدامها كيفما أشاء».

عندئذ قال هاميش: «لا يتعين عليك أن تفعلي ذلك».

فقلت: «بلى، يتعين عليَّ».

زفر ويست زفرة طويلة وقال: «قد لا تتاح لك فرصة أخرى كهذه يا فيبل».

فقلت: «أدري، ولذا لن أضيعها». كنت أرجو أن يكون مصغيًا إلى ما يكمن وراء الكلام، رغم أنني قلت إني لست مدينة له فإنني في الواقع مدينة له، وأردت أن أرد له الدين عشرة

أضعاف. ثم أردفت: «الثلثان يدخلان دفاتر ماريجولد، وسنقتسم الثلث الباقي بيننا، بالتساوي». وطويت الخريطة، ودسستها في سترتي مرة أخرى.

ردد ويست نظرات عينيه بين عينيّ، ودبت حركة في عضلات فكه كما لو كان يستجمع شجاعته ليقول شيئًا، ولكن حالما فتح فمه ترامى دبيب أقدام في الممر الجانبي المفتوح على سطح السفينة.

ثم ظهرت ويلا في المدخل وعيناها متسعتان، وقالت: «ويست! ثمة مشكلة».

الفصل الرابع والثلاثون

اصطففنا نحن الستة جنبًا إلى جنب، ولم يتردد في الأجواء سوى صوت الحلقات المعدنية وهي تحتك في الحبال من فوقنا. وعلى مرمى البصر شاهدنا مشاعل تتمايل تحت المدخل الحديدي المقوس المفضي إلى الميناء، وكان الضباب قد رق مع هبوب الرياح الباردة فكشف عن ماريجولد في مكمنها.

تنهدت ويلا قائلة: «هذا لا يبشر بخير».

عندئذٍ نظرت إلى الصاري الأمامي، حيث كان ليو يُتم تركيب آخر شراع من الأشرعة الجديدة، وتجمد في مكانه حين رأى المشهد في الميناء، كان طاقم زولا قادمًا لإنهاء ما بدأه.

صاح ليو متسائلًا: «ما هذا؟».

كانت المشاعل على وشك الوصول إلى الأرصفة، وبالكاد تمكنت من رؤية أشباح حشد الرجال الذين يحملون تلك المشاعل، فأحسست بأن صخرة عظيمة تغوص في أحشائي حين أدركت ما يعزمون على فعله.

كانوا عازمين على إضرام النيران في ماريجولد.

هتف ويست: «استعدوا!»، وتردد صدى الصوت وهو يركض صوب الجانب الأيمن من السفينة حيث كان أوستر منهمكًا في تحرير ذراع تدوير المرساة.

صحت بأعلى صوتي أكلم ليو: «إن لم تغادر هذه السفينة قبل أن نغادر الميناء فستصحبنا في رحلتنا!»، فاتسعت عيناه حين سمع الكلام، ثم سحب أداة من مؤخرة حزامه، وعاد يشد وثاق طرف الشراع الأخير بيدين مرتعشتين.

دوى صوت حاد من ذراع التدوير مع رفع أوستر وويست للمرساة، وانطلقت أنا نحو الحبال أفكها وإحدى عينيّ تراقب الميناء. ظن زولا أن تمزيق الأشرعة سينهي أمر ويست، لكن خاب ظنه. والآن لم يكن هناك سوى شيء واحد فقط ليفعله إن أراد إنهاء أمر ماريجولد وطاقمها، ألا وهو إغراقها.

انزلق ليو هابطًا من الصاري الأمامي، وسقط على سطح السفينة مرتطمًا بقوة، وجعل يئن قبل أن ينهض مرة أخرى، وإحدى ذراعيه ملاصقة لجنبه.

نظرت إلى الأشرعة البيضاء النظيفة المطوية بعناية والحلقات المعدنية المتلألئة، وسألته: «أهي جاهزة؟».

فأجابني وهو يسير بعرج قاصدًا سور السفينة: «جاهزة كأحسن ما يكون!».

ناديته: «أنت!».

فالتفت وحقيبة أدواته معلقة على كتفه.

فقلت له: «أتريد نقودك أم لا؟».

غمغم وهو يعود أدراجه، في حين التقطتُ أنا الكيس الموضوع على أعلى العتبات، فتسلمها مني قبل أن يركض عائدًا إلى السلم، ويختفى وراء سور السفينة.

فكت ويلا أشرعة الصاري الأمامي، وهبت الرياح من الجنوب واشتدت، ولسوف نحتاج إلى تلك الرياح القوية لنخرج من الميناء قبل أن تتهافت تلك المشاعل على سطح السفينة.

وبمجرد أن تحررت الحبال قفزتُ من الصاري والحبال ملفوفة حول يديّ، فانبسطت الأشرعة بحركة واحدة سلسة، وحططتُ على كلتا قدميَّ في آن واحد، وأنا أنظر لأعلى صوب أشكالها البارزة المائلة وفي خلفيتها صفحة السماء السوداء. كان منظرها رائعًا

بأعوادها الخشبية المطلية بالورنيش التي تنتشر من الزاوية السفلية، فبدت كأنها أجنحة جاهزة للتحليق.

أخذ هاميش الحبال مني، وانطلقت أنا نحو السور لأهبط السلم كي أصل إلى الرصيف. مع فتح الأشرعة ورفع المرساة كانت ماريجولد تنجرف في المياه بالفعل، وعملتُ أنا على فك حبال تثبيت السفينة المربوطة في العمود الأول من أعمدة الرصيف، فانفك الحبل الأول، وارتطم بهيكل السفينة حين سحبه باج ليلفه.

جلجل صياح من ورائي وأنا منكبة على فك الحبل الثاني، لكن الحبل كان معقودًا بإحكام شديد. دسست أصابعي في العروة، وشددت بأقصى قوة وأنا ملقية كل وزني للخلف وأصيح: «هيا!».

انزلق الحبل، وسقطت على ظهري بقوة لدرجة أن الارتطام جعل رئتيَّ تنقبضان بشدة. كان طاقم زولا بالفعل في الرصيف الجانبي المفضي إلى سفينتنا، وكانوا يركضون قاصدين إياي، فهُرعت عائدة إلى العمود وفككت الحبل قبل أن يسحبه باج، لكن السفينة كانت قد انجرفت لمسافة بعيدة جدًّا بالفعل، لن يكون بوسعي الوصول إلى السلم.

هتفت ويلا باسمي حين بلغت طرف الرصيف وأنا أؤرجح ذراعي ورائي وأقفز صوب السلم.

وتمكنت من التشبث بالحبال بكلتا يدي، واصطدمت بالهيكل، وقدماي مجرورتان في المياه، لكنني لمحت شعلة تتوهج من فوقي.

ظهر ويست عند السور ويده تمتد نحوي، وهتف: «تسلقي!».

سحبت نفسي إلى أعلى السلم المتأرجح، وحين وصلت إلى منتصفه تزلزل السلم بشدة حتى كدت أسقط منه؛ نظرت لأسفل فإذا برجل متشبث بآخر درجة. لقد رفع نفسه من المياه، وتسلق الحبل، وجذبني من حذائي إلى أسفل، فجعلت أركل حتى ضربت فكه

بكعبي؛ أخذ يتأوه لكنه واصل التسلق. شبكت مرفقي في حبال السلم، ورحت أئن وأنا أحاول الصمود ضد وزنه، في حين وصلت أصابعي إلى حزامي، لكن لم تكن ثمة فائدة، لم أستطع الوصول إلى السكين، وإذا تركتها فسوف أقع.

حلق من الأعلى شبح إنسان قبل أن يسقط في المياه أسفلنا، وعندما نظرت إلى أسفل رأيت ويست في المياه السوداء يسبح عائدًا نحو السفينة، في حين انتزعني الرجل من قميصي.

تسلق ويست الجانب الآخر من السلم، بحيث يكون بين السلم وهيكل السفينة، وعندما واجهني مد يده حول خصري، واستل السكين من حزامي، ثم طوح ذراعه جانبًا قبل أن يغمد النصل في ضلوع الرجل، فصرخ وهو يحاول التشبث بي قبل أن تنزلق يداه، لكن ويست ركله في صدره مطوحًا إياه للوراء.

تأرجح السلم فدفنت وجهي في الحبال وأنا أستنشق الهواء بسرعة في حين سرت رجفة في ذراعيّ.

ثم مد ويست يده عبر الحبال مزيحًا شعري عن وجهي وهو يتفحصني، وسألني: «أأنت بخير؟».

التفتُّ لأرى الميناء وهو يبتعد عنا، وما زال يقف على الرصيف هنالك أشباح ما لا يقل عن عشرة رجال. حين عرف زولا بموضوع أشرعتنا الجديدة بعث طاقمه يبتغي شرًّا، وبحلول الصباح سيعرف كل تاجر في سيروس أننا نجحنا في الخروج من الميناء، وبعدما أخذ زولا على عاتقه أمام الجميع وضع حد لطاقم ماريجولد فإن خروجنا هذا سيرد كيده في نحره ويورثه إذلالًا.

على مرمى البصر لاحت سفينة لونا راسية من دون أن يضاء سطحها بمصباح واحد حتى، لكن زولا كان هنالك يراقب، لا ريب أنه كان هنالك، والآن لم يعد عدوًّا لويست فقط، بل

صار عدوًّا لي أيضًا.

لكن ثمة وميضًا خابيًا على الشاطئ لفت نظري ناحية عتمة حي الساحل، حيث التمع في الظلام معطف ذو زرقة غامقة.

إنه سينت.

اتكأ على عمود في الشارع، ووقف جامدًا، لم يتحرك في شبحه سوى حاشية معطفه التي ترفرف مع الرياح. لم أستطع تبين وجهه، بيد أنني استشعرت بأن عينيه مصوبتان نحوي. وما دام يشاهد فهذا يعني أنه قد عرف أن هذه الأشرعة المنبسطة فوق ماريجولد وتوغل بنا في البحر هي بنقوده. وأيًّا كانت طبيعة العلاقة التي ربطت بيننا فيما مضى، وأيًّا كان ما حدث بيننا فلم يعد ذلك مهمًّا، إذ لأول مرة في حياتي أجد أننا على طرفي نقيض.

سمعت صوت ويست وهو ينادي باسمي فانتشلني من استغراقي في الفكرة، وطرفتُ بعيني، فشاهدت وجهه أمامي مرة أخرى. كانت مياه البحر لا تزال تتقاطر من جلده، ويداه متشبثتين في الحبال تحت يدي، وفيما بيننا التمع نصل سكيني الملطخة بالدماء تحت ضوء القمر. وعاود سؤاله: «أأنت بخير؟».

أومأت برأسي، ونظرت إلى وجهه وأنا أتلمس لملمة نفسي من هدوء عينيه. إنه التعبير اللطيف نفسه الذي لا يغادر محياه. عقب مغادرتنا جزيرة جيفال واجهنا عاصفة كادت تفتك بنا، وكاد زولا يقتله قبل أن يشل حركة سفينة ماريجولد ويوشك على إغراقها، ومع ذلك لم يبد أن أي شيء من هذا ينال منه مطلقًا.

أجبته: «أنا بخير».

فأومأ برأسه وأغمد السكين الملطخة بالدماء في مكانها بحزامي، ثم قال: «إذن ارفعي نفسك إلى السفينة».

الفصل الخامس والثلاثون

أشرقت الشمس على البحر فألقت بشعاع زاحف من الشرق كأنها مصباح يضيء طريقنا.

وقفت عند صدر السفينة مع أوستر نعمل على تحويل مصائد السلطعون لتكون سلال سحب يمكننا استخدامها لرفع حمولة السفينة لارك. عقدت عقدة وأنا أراقب المياه الهادئة، والأصوات التي تتردد في الجو تنكأ جميع ذكرياتي قبل وصولي إلى جزيرة جيفال؛ أبي وهو محدودب على خرائطه وفي فمه غليون وفي يده زجاجة جاودار، وأصوات الحبال، ووهج الأضواء على سطح السفينة المتألق.

زحفت عيناي إلى الصاري، حيث كانت أمي تستلقي في الشباك العالية من فوقنا. حكت لي حكايات عن الغوص في الشعاب المرجانية النائية في أقاصي منطقة البحر المجهول، بيد أنها لم تخبرني قط بحياتها في مدينة باستيان، أو بفترة عملها مع زولا قبل أن تنضم إلى سينت. وكذلك لم تخبرني قط بما أتى بها إلى منطقة المضايق. تمنيت لو طرحت أسئلة كثيرة عنها حين جالست سينت على طاولة مشرب جريف.

كنت في السادسة من عمري حين اصطحبتني إيزولد للغطس لأول مرة. كان والدي منتظرًا عند مؤخرة سفينة لارك حين شققت سطح الماء بعد الغطسة الأولى، وتلك الابتسامة النادرة تمتد على جانب واحد من وجهه تحت شاربه. رفعني فوق السور وأمسك بيدي، واصطحبني إلى حجيرة القبطان حيث سكب لي كأس الجاودار الأولى في حياتي. وفي تلك الليلة استلقيت في أرجوحة أمي، ونمت بوضعية مقرفصة في حضنها، في حين عصفت الرياح بهيكل السفينة بالخارج.

إن بحر شرك العواصف آخر امتداد مائي قبل منطقة البحر المجهول، وهو المأوى المفضل للعواصف، ما جعل تلك المنطقة بمثابة مقبرة. رأيت منطقة المضايق تتسع من حولنا، ما جعل ماريجولد تبدو ضئيلة في البحر المترامي، وعما قريب سنبلغ حافة منطقة المضايق ونجتازها فنكون بمنأى عن أية يابسة.

ظهر باج في الممر الجانبي المفتوح حاملًا أدواته، وراح يفتح أداة الثُّمنية الخاصة بقياس المسافات، فتحها بحرص، وانكب على العمل وهو يدون الملاحظات في الدفتر المفتوح أمامه على الحبل المكوم. راقبته وهو يحرك أذرع الأداة حتى وقع الضوء على المرآة تمامًا.

ثم سألته وأنا أضع المصيدة عند قدميّ: «كم سنستغرق من الوقت؟».

فأجاب: «إن اشتدت الرياح مرة أخرى فسنصل بحلول الصباح».

ضيقت عينيّ وأنا أنظر جهة الضوء لأرى أوستر أعلى الصاري الرئيسي وسرب من الطيور البحرية يحلق في دائرة حوله وهو يسحب سمكة صغيرة أخرى من دلو. وتساءلت: «ما شأنه وشأن الطيور؟».

فرفع باج عينيه وابتسامة لطيفة تنبسط على شفتيه قبل أن يضحك ويقول: «إنه يحبها».

فقلت: «ويبدو أن الطيور تحبه أيضًا».

عمل بضع دقائق أخرى قبل أن يفتح الصندوق ويضع أداة الثُّمنية بداخله، ثم سأل فجأة وهو يعيد دس الدفتر في سترته: «هل كنتِ حقًّا على متن السفينة لارك وقت غرقها؟».

فأومأت برأسي أن نعم، ونظرت إلى السحب الوردية والأرجوانية، وراح قرص الشمس يكبر ويتضخم وهو يزحف ناحية كبد السماء. لم أعرف ما إذا كانوا قد سمعوا حكايات عن تلك الليلة، لكنني لن أخبرهم بشيء، كنت أخشى من تلك الحكاية، أخشى أن يحيا أساها

في داخلي إن نطقتها بصوت عال. كانت ثمة مسافة تفصل بين الفتاة التي تقف الآن على متن السفينة ماريجولد وبين الفتاة التي قفزت من السفينة لارك بين ذراعي كلوف.

ارتقى ويست العتبات المفضية من الممر إلى السطح وهو مشمر كمّي قميصه حتى المرفقين، فمنذ مغادرتنا سيروس كان يعمل هو وويلا على إصلاح بقية الأضرار التي لحقت ببدن السفينة جراء العاصفة، والتي لم نتمكن من تحمل تكاليف استئجار عمال يصلحونها في سيروس. لم ينبس لي بكلمة واحدة منذ غادرنا الميناء، لم ينظر تجاهي حتى.

جاء بجوار باج وقال: «دعني أرَ».

فأخرج باج الدفتر من سترته، وفتحه على آخر صفحة دوَّن فيها ملاحظاته، وجال ويست ببصره على الأرقام ببطء، في حين انسلت خصلة من شعره، وراحت تتطاير على وجهه.

ثم قال: «فلنسقط المرساة والرياح ضعيفة هكذا، وسوف نعوض الوقت».

فأومأ باج برأسه.

ثم سأل ويست أوستر: «والأقفاص؟»، مع أن هذه كانت مهمتي.

فأجاب أوستر نيابة عني: «تمت المهمة».

فقال وقد تحاشى النظر إليّ مرة أخرى: «عاود التحقق من العُقَد»، فصررت على أسناني.

ذهبت إلى جوار الصاري وقلت: «ويست...»

لكنه أولاني ظهره وقطع سطح السفينة نحو الممر الجانبي المفتوح، فتبعته إلى حجيرة القبطان، حيث شرع في إعمال البوصلة فوق الخريطة وهو يقارن قياسات باج بقياساته. وبدا التواء في عضلات فمه جراء عضه لخده من الداخل.

مضيت لأقف جواره ورحت أنظر إلى الأوراق، ثم سألته: «ما الخطب؟».

فقال بسرعة وهو يسقط بوصلته: «لا شيء».

فرمقته ولبثت منتظرة.

أخذ يفكر هنيهة قبل أن يمضي إلى الجانب الآخر من المكتب، ووضع إصبعه على الخريطة قائلًا: «هنا».

كان يشير إلى وسط بحر شرك العواصف، حيث يوجد منعطف بزاوية قائمة حادة، وهو يمثل عقبة صعبة لأية سفينة حجمها أكبر من قارب صيد، سوف يتطلب المرور من هذه النقطة دقة متناهية.

وتفحص أشكال الشعاب المرجانية وهو يتساءل: «هل ثمة طريق آخر».

أجبته: «لا أظن ذلك. ليس من دون تجريف القاع».

فتمتم: «يجب أن تكون الدقة مثالية».

فقلت: «فلتكن إذن».

ارتكز على كلتا يديه فبرزت عضلات ذراعيه تحت جلده الضارب إلى اللون الذهبي، ثم قال:«نحتاج إلى العودة إلى ديرن في غضون الأيام القليلة المقبلة إن أردنا بيع ما سنحصل عليه من دون لفت الانتباه».

لقد كان محقًّا، يتعين علينا العمل بسرعة، ولكن إن كانت حسابات باج جيدة فيمكننا انتشال الحمولة إلى متن ماريجولد قبل انقضاء الغد.

ثم جلس ويست على الكرسي وهو يرفع عينيه تجاهي، وسأل: «هكذا فَعَلَها، أليس كذلك؟».

فتساءلت: «ماذا؟».

فقال موضحًا: «بحر شرك العواصف، من هنا جمع سينت ثروته وبدأ تجارته».

أجبته: «نعم. لقد أمضى سنوات في رسم الخرائط قبل أن يشق أول مسار تجاري عبره، وقد جمع النقود من حطام السفن لشراء أول سفنه».

سكن ويست كأنه يتخيل المشهد، وكأنه يتخيل نفسه مكان سينت.

عند النافذة المفتوحة من خلفه كان ثمة خيط منظوم فيه أحجار مثقوبة من المنتصف تعرف باسم أحجار الأفعى، وراح الخيط يتمايل مع الهواء فاصطكت الأحجار ببعضها. سألته: «هل تعتقد أن تلك الأحجار جالبة للحظ الطيب حقًّا؟».

فبدا متسليًا بالسؤال، وأجاب: «لقد فعلت ذلك حتى الآن».

تغيرت وضعية عضلات فمه، إذ لاح شيء من الارتفاع عند جانب فمه. واستشعرت وجود إجابة غير منطوقة في ثنايا الكلمات، لكنني لم أكن أعرف مكنونها.

التقطت الحجر الأبيض الموضوع عند زاوية مكتبه، وسألته: «ما هذا؟».

فأجاب: «إنه من حي الساحل».

فأعدته إلى موضعه وقد باغتني شعور بالحرج.

تألقت عيناه وهو ينظر إليَّ، وأردف: «أعطاني إياه سينت حين حصلت على ماريجولد، لكي يذكرني بالمكان الذي أتيت منه».

جلست على حافة المكتب وأنا أبتسم ابتسامة نمت عن تسليتي بما سمعت. لقد أراد سينت أن يذكر الغرب بمكانته، ولسبب ما احتفظ ويست بالحجر.

ثم قال وصوته يستغلظ مرة أخرى: «أعرف أنك تعرفين أن ويلا أختي. وأعرف أنك رأيت والدتنا».

حاولت أن أستشف تعابير وجهه بحثًا عن أي أثر للغضب الذي كان يشعل وجهه عادة، لكنه ما زال يرنو إليَّ بعينين مليئتين بكلام لم ينطقه.

فقلت: «لم أقصد ذلك. لم أكن أعرف أين كنا...»

قاطعني قائلًا: «لا يهم»، وارتكز بمرفقيه على المكتب وهو يحك فكه، وتساءلت لماذا قال ذلك. إنه أمر مهم. بل لعله أحد الأمور القليلة التي تهمه حقًّا.

ثم سألته: «كيف أبقيت الأمر سرًّا طوال تلك المدة؟».

فقال: «ربما يعرفون، لكنهم لن يبوحوا بذلك. إنهم لا يطرحون أسئلة، لكنني اتفقت مع ويلا منذ أمد بعيد على عدم إخبار أي شخص بالرابط الذي يربط بيننا».

أومأت برأسي متفهمة. إن إخبار أي أحد بأن ويلا أخته هو أمر يمكن استغلاله ضده، وضدها. وهذا هو السبب نفسه الذي جعل أواصر المودة المتينة بين أوستر وباج سرًّا لم يعرفه أحد خارج طاقم هذه السفينة.

ثم أردف: «إن عمل ويلا على متن سفينة قد وفر لها فرصًا أفضل من البقاء في حي الساحل، لذلك حرصت على تحقيق ذلك»، قالها كما لو كان عليه أن يبرر الموقف، كما لو كان يعلم أن ذلك قد كلفها تضحيات.

سألته وصوتي يتخافت: «ماذا عن أبيك؟».

لكن هذا السؤال كان مبالغًا فيه، ولم أكن متيقنة من الباعث على سؤالي إلا أنني رغبت في المعرفة. نهض متجهًا إلى الصندوق عند الجدار وفتحه وهو يقول: «سيحل الظلام في غضون سويعات».

فقلت: «ما المهمات الأخرى التي يجب إنجازها؟ سوف أساعدك».

نظر نحوي من فوق كتفه، ولوهلة خُيل لي أنه يبتسم. أجابني: «سأتولى الأمر»، وسحب مكشطة مسطحة عريضة من الصندوق، ودس مقبضها في حزامه.

استخدامه تلك الأداة يعني أنه سوف ينظف هيكل السفينة. لقد استوطنت محاريات البرنقيل وقشريات بلح البحر والأعشاب البحرية وعدد من الكائنات الأخرى قعر السفينة، مهيئة بذلك ضربًا خاصًّا بها من الشعاب المرجانية المتنقلة، لكن لا يمكننا المخاطرة بأن نَعلَق في أي شيء في بحر شرك العواصف؛ لا بد أن يكون الهيكل في حالة تمكنه من الانزلاق بسلاسة فوق مياه البحر.

لقد كانت مهمة تنظيف الهيكل مثيرة للاشمئزاز ومملة، مهمة يرى ويست أنني لا أستطيع الاضطلاع بها أو أنني آنَفُ من فعلها.

سألته: «أأنت قلق بشأن غاطس السفينة؟». إن مدى عمق غاطس السفينة في الماء هو أول شيء يمكن أن يتسبب في غرقنا في هذه المنطقة، لكن متن السفينة كان فارغًا، ومن ثم فحركتها خفيفة، ومع الأشرعة الجديدة كانت تمضي بسلاسة فوق البحر.

فأجابني: «الآن أنا قلق بشأن كل شيء»، وأغلق غطاء الصندوق، ثم راح يسحب قميصه فوق رأسه ليخلعه وهو يئن من الألم الذي أنشب أظفاره في جسده وهو يرفع ذراعيه، وألقاه على سريره قبل أن يجتازني متوجهًا إلى سطح السفينة.

حدقت إلى مدخل الحجيرة المفتوح وأنا أفكر قبل أن أتبعه، وبمجرد أن تحركت، واقتربت منه كان قد وقف على السور، وقفز فتوارى وراء جانب السفينة، تلا ذلك دوي ارتطامه بالماء. رنوت خلفه عبر الباب المفتوح صوب حجيرته، وعيناي على الحجر الأبيض القابع عند زاوية مكتبه.

عدت إلى الممر الجانبي المفتوح، وفتحت الخزانة المثبتة على الجدار وعيناي تركضان بسرعة عبر الأرفف حتى عثرت على مكشطة أخرى ومطرقة.

وشاهدتني ويلا وأنا أركل حذائي لأخلعه وأعتلي السور، وأملأ صدري بالهواء، ثم قفزت صوب الماء وذراعاي ممدودتان لأعلى وقبضتاي ممسكتان بالأداتين. ابتلعني الماء، وقلبت وضعية جسدي تحت الماء ورحت أبحث حتى رصدت ويست عائمًا بالقرب من المؤخرة في زرقة المياه المترامية من حولنا، وثمة شرائط طويلة من الأعشاب البحرية تتهادى تحت السفينة، وظلت يداه ثابتتين على هيكل السفينة وأنا أسبح إليه.

ترددت حولنا أصوات الضوضاء الخافتة والطقطقة التي ندت عن قشريات بلح البحر الملتصقة بالسفينة، وأخذت مكاني بجوار ويست قبل أن أضع المكشطة على طبقة البرنقيل السميكة وأضرب بالمطرقة، فتتفتت إلى قطع صغيرة مفجرة ضبابًا أبيض قبل أن تنجرف إلى الأعماق.

راح ويست يرقبني هنيهة قبل أن يرفع أدواته مرة أخرى. لن يسمح لي بالاقتراب منه كبقية الطاقم، لقد أخبرني بذلك وأكد عليه حين وافق على انضمامي، ولكن إن كنت سأصير أحد أفراد هذا الطاقم فعليَّ أن أجد طريقة لاكتساب ثقته.

حتى إذا كان ذلك يعني مخالفة قاعدة أخرى من قواعد سينت.

إياكِ - مهما تكن الظروف - أن تكشفي لأحد عن أشياء تهمك أو أشخاص ذوي شأن عندك.

كنت أجازف عندما قفزت في الماء؛ إذ كنت بذلك أكشف عن مكنون نفسي، لم يكن اهتمامي مقتصرًا على سفينة لارك أو الانضمام إلى طاقم ماريجولد فحسب، بل كنت مهتمة بويست، ولم تفتأ خشيتي مما قد يفعله إن عرف بهذا تتضاءل وتتضاءل.

الفصل السادس والثلاثون

لاحت النتوءات البارزة فوق المياه الهادئة كأنها أظهُر تنانين غارقة.

وقف باج عند صدر السفينة وعلى وجهه ابتسامة عريضة، والتمعت عيناه بانعكاس بواكير أشعة الشمس عليها. كانت حساباته متناهية الدقة - إلى الآن - ورأينا الشعاب المرجانية مع انبلاج الفجر في الأفق. ترامت متاهة الدروب الملتوية المعقدة أمامنا لمسافة أميال، وكانت المياه صافية لدرجة أن الرمال في القاع تلألأت.

ووقفت ويلا بجوار أوستر وهاميش عند الجانب الأيسر من السفينة، وخيم الصمت فتلفعت ماريجولد بالهدوء. رنوت نحو ويست وهو واقف عند مؤخرة سطح السفينة وحده، وذراعاه معقودتان وقبعته متدلية على عينيه.

وعلى وجهه ارتسم تعبير لا يستشف المرء منه شيئًا، وهو التعبير نفسه الذي لازم مُحياه مذ غادرنا سيروس، والآن فقط بدأت أرى ما تحته.

لقد كان على وشك خطو خطوة ذات شأن جلل. في غضون ساعات سيتغير كل شيء في حياته وفي حياة الطاقم. في اليوم الذي جاء فيه عند جزيرة جيفال خلال تلك العاصفة لم يكن يدري أن ذلك يوم له ما بعده، لم يكن يدري أن موافقته على اصطحابي ستفضي إلى تغيرات جليلة.

إن هذا العالم ممتلئ بأمور يتعذر توقعها، ومع ذلك فقد كنا جميعًا نعرف تمامًا كيف تجري الأمور فيه. والآن صارت أمام ويست خيارات لعله لم يظن يومًا أنها ستتاح له، وقد كان ذلك جديرًا بزعزعة أثبت الناس قلبًا وأشدهم جمودًا في منطقة المضايق.

تولى باج عجلة الدفة ووجه السفينة إلى تيار الرياح، فانعطفت ماريجولد حتى راحت الأشرعة تخفق من فوقنا. وحين بدأت السفينة تتباطأ دوّر الدفة في اتجاه ثم في الاتجاه المعاكس، وراح يكرر الأمر بمهارة ليتحكم في حركة السفينة، وفي غضون لحظات تباطأت السفينة للغاية.

هتف باج سائلًا ويست: «ما المسار الذي سنسلكه للدخول؟».

تفحص ويست الشعاب المرجانية قبل أن ينظر إليَّ من فوق كتفه. ارتقيت العتبات المفضية إلى مؤخرة سطح السفينة، واتجهت إلى السور، ثم سحبت الخريطة من داخل سترتي، ونشرتها أمامي، فأمسك ويست بجانب من جوانب الخريطة ليثبتها في مكانها.

ركضت عيناه فوق الخريطة قبل أن يشير إلى الفتحة الموجودة في الشعاب المرجانية على يسارنا. امتدت النتوءات فوق سطح الماء بشكل غير متساوٍ قبل أن تختفي عند نقطة معينة، حيث تظهر فتحة مواتية للعبور.

ثم قال بصوت خفيض كأنه يحادث نفسه: «بمجرد دخولنا لن نستطيع أن نعود أدراجنا».

اتبعت بعينيّ المسار على الخريطة وفهمت ما كان يرمي إليه. بمجرد دخولنا لن يتوافر متسع كافٍ للالتفاف، حتى نصل إلى لارك. وإذا جنحت السفينة فسنعلق، ولن نخرج من هذه المتاهة.

نظر أوستر نحوي من موقفه بجوار ويلا في صحن السفينة، ونادى: «هلمي يا جرّافة!».

عندئذ سألني ويست بصوت ازداد عمقًا: «أأنت مستعدة؟»، فنظرت إلى أعلى صوب عينيه.

وفجأة اجتاحتني رغبة مُلحة في التأكد من أنه يؤمن بقدرتي على إنجاح الأمر، ويؤمن بقدرتي على الوفاء بوعدي؛ الوفاء بوعدي لهم جميعًا. كنت أظن أنه لا يثق بي، لكن ما

يفعله الآن يقتضي أن يكون واثقًا تمام الثقة بي؛ إذ إنه يضع مصير الطاقم وماريجولد بين يديّ.

فهمست: «مستعدة».

عندئذٍ طوى الخريطة وتبعني حتى هبطنا العتبات المفضية إلى صحن السفينة، حيث انطلقت إلى الصاري الرئيسي، وأمسكت بالأوتاد المثبتة في الصاري، واستنشقت نفسًا عميقًا قبل أن أشرع في التسلق، ومع ارتقائي اضطرب خفقان قلبي.

تولى ويست عجلة الدفة مكان باج، ورفع بصره إلى الأعلى وأنا أتشبث بالحبال وأصوب بصري تجاه بحر شرك العواصف. آخر مرة رأيت فيها شرك العواصف كان يمور بالعاصفة التي أغرقت لارك، أما الآن فالمكان يتألق بالضوء تحت سماء زرقاء صافية، وكأنه لم يبتلع أعدادًا لا تحصى من جثث البحارة.

انتشرت جدران من الشعاب المرجانية الصخرية في المياه المصطبغة باللون الأخضر الضارب للزرقة، حيث شكلت ممرات ضيقة ملتوية تحت سفوحها تمتد في شكل عروق مترامية. لقد كانت متاهة - بيد أنها متاهة أعرف طريق العبور من خلالها.

شمرت كم قميصي حتى مرفقي، ومددت ذراعي أمامي. كانت الندبة نسخة بالغة الدقة من شكل عروق الشعاب المرجانية المنتشرة أمامي، وقد أذهلتني قدرة سينت على رسمها بهذه الدقة من ذاكرته. لقد أبحر في هذه المياه كثيرًا لدرجة أنه لم يكن بحاجة إلى خريطة كي يرسم مسارات الشعاب المرجانية هذه على جلدي.

ارتعشت أصابع يديّ التي مددتها في الهواء، وتسللت الرياح الدافئة من بين أصابعي وأنا أفرج بينها لأقيس فتحة المدخل إلى شرك العواصف، ثم هتفت: «انعطاف إلى اليمين!».

فأدار ويست دفة القيادة من دون تردد، وعمل هاميش وأوستر وويلا على طوي الأشرعة بعض الشيء وشدها كي لا تكون مرتخية، ما جعل ماريجولد تمضي ببطء، وتحركنا صوب

المدخل، في حين انحنى باج عند صدر السفينة وهو يراقب المقدمة تشق المياه الضحلة.

ثم ملتُ جانبًا لأقيس المسافة الفاصلة بين السفينة وبين الشعاب المرجانية، وهتفت: «إلى اليمين!».

فوجه ويست السفينة مباشرة إلى مدخل شرك العواصف، وجثم صمت في حين سرت قشعريرة على جلدي تشبه الطنين الذي يسري في الأجواء قبل البرق. لا يدري أحد كم ابتلع شرك العواصف من السفن. على مرمى البصر لاحت صوارٍ عديدة منبثقة من الماء، لكن السماء لا تزال صافية، وحركة المياه هادئة.

نظرت إلى ندبتي وتتبعت مسارها إلى أول مفترق، ثم قلت: «إلى اليسار، بمقدار خمس درجات».

فأمال عجلة الدفة قليلًا وبرفق ناحية الشرق، والتزم الدقة بما يكفي للدخول في الممر التالي، وضاقت الشعاب المرجانية.

نادى باج من عند صدر السفينة وعيناه مصوبتان إلى الأسفل حيث قل عمق المياه كثيرًا: «بحرص وتأنٍّ».

مضينا ببطء شديد، وحفتنا النتوءات الصخرية من كلا الجانبين، حيث وقفت عندها الطيور في مياه لا تتجاوز سيقانها، وأخذت تحصل على إفطارها من الشعاب المرجانية. وتحت سطح المياه في الممرات كانت أسراب الأسماك تحوم كأنها سحب من الدخان، قبل أن تتفرق مع شق السفينة للمياه، ثم اتسعت الشعاب المرجانية مرة أخرى قبل المفترق التالي.

قلت وأنا أحاول أن أبدو واثقة: «إلى اليمين، بمقدار خمس عشرة درجة».

فأدار ويست عجلة الدفة قليلًا، واستشعرت اهتزازًا في الصاري تحت يدي مع احتكاك أسفل الغاطس في الرمال. نظرت ويلا إليّ من مكانها على الصاري الأمامي، وحاولت إبطاء خفقان قلبي المتسارع، وشددت قبضتي لتسكين ارتجافي. إن اعترضت طريقنا صخرة مطمورة في الأرضية فستخرق الهيكل، لكن ويست في الأسفل بدا هادئًا، ويداه خفيفتان على عجلة الدفة وتتحركان بحذر.

نظرت من فوق كتفي ناحية البحر المفتوح. لقد صرنا داخل الشرك، وإن هبت عاصفة فسيكون هذا هلاكنا. غزاني الخوف، واعتصرتني مخالبه الخفية مع كل مفترق نقابله في متاهة الشعاب المرجانية.

قلت وأنا أتطلع إلى المنعطف الصعب أمامنا: «كدنا نبلغ المنعطف». كانت سرعتنا جيدة، لكن مناط الأمر كله يتعلق بوقت الانعطاف واتجاه الرياح، ففي حالة انعطافنا مبكرًا سنخبط الجانب الأيمن من السفينة، وفي حالة انعطافنا متأخرًا سنجعل مقدمة السفينة تصطدم ببروز حاد في الشعاب المرجانية.

مددت يدي باتجاه ويست وقلت: «استعداد...»، ورحت أنظر إلى الشراع من فوقي والرياح تغير اتجاهها فجأة، هبت رياح من البحر بغتة، فدفعتنا إلى الأمام، وملأت الأشرعة بالهواء، ما أدى إلى انعطاف ماريجولد.

بسرعة كبيرة.

هتفت قائلة: «اطووا الأشرعة».

فعمل هاميش وأوستر وويلا على الحبال تنفيذًا للأمر، وتباطأت السفينة، ولكن بعد فوات الأوان، كنا قريبين جدًّا.

هتفت: «الآن يا ويست!».

ولففت ذراعي حول الصاري لأتشبث به في حين ترك ويست عجلة الدفة تدور، قبل أن يهتف آمرًا باج الذي كان بالفعل يحرر ذراع تدوير المرساة: «أسقط المرساة!».

إن أردنا تفادي الاصطدام بالشعاب المرجانية فنحن بحاجة إلى المرساة لتسحب السفينة وتحول دون الاصطدام. عمل البقية على الأشرعة في انسجام تام، في حين ركل باج ذراع المرساة فسقطت في المياه.

مالت ماريجولد، وتأرجحت مؤخرتها وويست يوجه السفينة إلى اليمين. وفجأة دوى صوت كهزيم الرعد من تحتنا مع احتكاك الهيكل بالضفة الصخرية، وركض باج ناحية جانب السفينة، وارتمى على السور بقوة وهو ينظر إلى الأسفل.

عندئذ أغمضت عينيّ، وانفتلت كل عضلة من عضلاتي انفتالًا، وتواثب قلبي في حلقي.

صاح باج قائلًا بضحكة هلع: «لا ضرر!».

فرفعت عينيّ صوب السماء وأنا أشهق مع اغروراق عينيّ بالدموع الساخنة.

وثب هاميش لمساعدته على رفع المرساة إلى مكانها، ووضع ويست جبهته على عجلة الدفة وهو يزفر زفرة عميقة.

لكن لا يزال الطريق أمامنا. تفصحت الندبة وعيناي تمسحان الشعاب المرجانية، في حين انبسطت الأشرعة مرة أخرى. وعندما وصلنا إلى طرف المسار التالي أحسست بقلبي يتضخم في صدري، وبغصة تعترض حلقي.

لقد أفضى المسار إلى وسط جزيرة مرجانية تأخذ حدودها شكل نصف دائرة لتطوق بحيرة في منتصفها، وهنالك، تحت تلك المياه الزرقاء التي تتماوج صفحتها تموجات طفيفة، التمع طيف خافت.

إنها السفينة لارك.

الفصل السابع والثلاثون

عقصت شعري على قمة رأسي وربطته في عقدة، في حين انكب أوستر على رص السلال أمامي حيال السور.

لقد جثمت السفينة لارك على عمق اثني عشر مترًا أو نحو ذلك، وتوقعت أن انتشال الحمولة التي أتينا من أجلها سيستغرق يومًا كاملًا من الغوص. احتلت الشمس كبد السماء تقريبًا، وبالنظر إلى أن الإبحار في هذه المنطقة تحت جنح الظلام ضرب من المستحيل فقد تعين علينا أن نسرع، وإلا فسوف نقضي الليل في هذه الجزيرة المرجانية.

تفحص باج الخطاف الحديدي الضخم المربوط في طرف حبل، وأدلاه فوق الجانب، فسقط الخطاف ساحبًا معه طول الحبل تحت سطح الماء حتى انغرز في قاع البحر، وصار الحبل مشدودًا.

وحين ربطت حزامي حول خصري استشعرت ثقله المألوف، ما هدأ أعصابي. إن الأمر الوحيد الذي لم نأخذه في الحسبان هو حقيقة أنه ربما تمكن شخص آخر من العثور على السفينة لارك خلال السنوات الأربع الماضية.

تفحصت أدواتي مرتين بتمرير أصابعي فوق المعاول الصغيرة والأزاميل والمطرقة والمِدق. لن أحتاج تلك الأدوات إلا في حالة انحشار شيء بين الحطام، وكنت آمل ألا أحتاج لاستخدامها، إذ كنت بحاجة إلى كل دقيقة من ضوء النهار لتعبئة الحمولة في السلال لنقلها إلى متن ماريجولد.

كان الماء صافيًا للغاية، ولاح الصاري الرئيسي أسفل سطح الماء مباشرة، وتخيلتُ مشهد أمي على قمته وهي ترقب القمر. أثارت الخاطرة ألمًا في قلبي، وأحسست بحضورها كأنها هواء يداعب جلدي. وسرت بجسدي رعدة وأنا أعيد نظري إلى الماء بالأسفل؛ كان ثمة شيء في السكون الجاثم أشعرني بأنها لا تزال هنالك.

عندئذٍ قدم ويست من حجيرته، في حين وضع أوستر السلة الأخيرة بجوار بقية السلال، ثم ألقى ويست حزامًا على سطح السفينة بجواري، وخلع قميصه. تقفيت بعينيّ آثار الغرز على جلده، والتي أضيفت إلى مجموعة الندوب المنتشرة على جسمه أصلًا.

نظرت إلى الحزام بجوار قدميَّ الحافيتين وأنا متحيرة، وسألته: «ماذا تفعل؟».

فخلع حذاءه وقال: «ستُنجز المهمة أسرع إن قام بها اثنان».

ألقيت نظرة خاطفة على ويلا والآخرين، لكنهم لم يبدوا مندهشين من منظر ويست وهو يطوق خصره بحزام أدوات التجريف.

ثم قلت وأنا أحدق إليه: «لم تخبرني مطلقًا بأنك على دراية بأعمال التجريف».

فابتسم ابتسامة عريضة منحرفة ناحية أحد جانبي فمه حيث ظهرت غمازة في خده، وقال: «ثمة أمور كثيرة لم أخبرك بها».

فأشحت بعينيّ ناحية الأرضية، وأحسست بحرارة على بشرتي جراء تورد خديّ. لا أظن أنني رأيته يبتسم من قبل، مطلقًا، ولم يرقني الشعور الذي انتابني حين رأيته يبتسم، أو لعله راقني، لم أكن أريد أن أتبين الفرق بين الإحساسين.

ربط مشبك الحزام بسلاسة كأنه فعل ذلك مائة مرة من قبل. لم أسمع قط عن قبطان اضطلع بمهمة التجريف، لكن هذه لم تكن سفينة عادية ولا كان هذا طاقمًا عاديًا، بدا أنه لا يوجد حد لأسرارهم.

ارتكزت على السور واعتليته، ووقفت وأنا أوازن نفسي قبالة الرياح الدافئة. صعد ويست بجواري، ونظرت إلى الماء من تحتنا، حيث اختفى طول الحبل.

ثم رفعت صوتي وأنا أوجه حديثي إلى ويلا بابتسامة عريضة: «أود أن أقدم طلبًا لإعادة نظر الطاقم في مسألة اعتباري شؤمًا».

فضحكت وهي متكئة على الصاري، وقالت: «سنجري تصويتًا يا جرّافة».

ثم رنوت إلى ويست، وسألته بنظرتي ما إذا كان مستعدًا، مستعدًا للسفينة لارك، ولكل ما سيلي ذلك.

ارتسمت على شفتيه الابتسامة نفسها التي رأيتها للتو على سطح السفينة، وفي آن واحد قفزنا في الهواء قبل أن نغطس في البحر. ابتلعني البحر، وجعلت أركل صعودًا وأنا أقاوم ثقل أدواتي حتى شققت سطح الماء، وويست بجواري.

أزاح الشعر عن وجهه وهو يرفع عينيه صوب ويلا والآخرين الذين أطلوا علينا من فوق متن ماريجولد.

استنشقت الهواء ملء صدري قبل أن أزفره، أمدد بذلك رئتيّ حتى أستشعر شعور الوخز فيهما. أحسست بزيادة دفء الدم في ذراعيّ ورجليّ، وكررت الشهيق والزفير حتى استطعت حبس مقدار الهواء الذي سأحتاج إليه.

وانتظرني ويست أن أومئ له قبل أن يطوح رأسه للخلف كي يستنشق نفسًا كبيرًا من الهواء، وفعلت الشيء نفسه، فملأت بطني أولًا بالهواء، ثم صدري، ونفسًا صغيرًا أخيرًا في حلقي.

وتوارى تحت سطح الماء، فتبعته على الأثر. وحين رأيت لارك مددت يديّ أمامي لأحوم فوق السفينة الغارقة. جثمت السفينة من تحتنا ونصف هيكلها مطمور في الرمال الناعمة

الباهتة، ومقدمة السفينة مصوبة نحو السماء، لكن بقية السفينة بدت كصورتها في ذاكرتي تمامًا.

السفينة لارك.

المكان الذي انتهت فيه قصة أمي، المكان الذي بدأت فيه قصته.

نظر ويست إلى الأسفل ثم رفع عينيه نحوي.

ترددت لوهلة قبل أن أغوص، واتجهت صوب مؤخرة السفينة، والضغط يشتد من حولي، وأذني تفرقع كلما تعمقنا. كانت الشعاب المرجانية التي تحيط بالحطام نابضة بالحياة، وأسراب من الأسماك المتألقة تلتف حول بعضها وتتشتت في كل اتجاه. سبحنا وسط سرب من أسماك الفراشة التي انعكس الضوء على قشورها البراقة المتلألئة كالنجوم وقت الشفق، وتوقفت ومددت يدي لألمسها بأطراف أصابعي في أثناء مرورها.

ابتسمت وعدت إلى ويست الذي بدا في زرقة المياه المترامية جسمًا ذهبيًّا سابحًا، كان يشاهدني قبل أن يمد يده ويلمس هو أيضًا الأسماك التي دارت حوله كأنها ألسنة لهب صغيرة قبل أن تتجاوزنا وتمضي إلى سبيلها.

ثم وصلنا إلى السفينة حيث تراءى لنا شعار سينت الذي كاد يتلاشى منه شكل الشراع المثلث المرسوم باللون الأبيض، لكن شكل الموجة المتحطمة لا يزال موجودًا باللون الأزرق الغامق الذي يميز معطف سينت. لمست الشعار بيدي وأنا أجتازه، وحين وصلنا إلى سطح السفينة أحسست باشتداد البرودة على جلدي.

وتبدت الدفة المغطاة بالطحالب كما هي على حالها لم يتغير فيها شيء، ولاحت كشبح. وتخيلتُ مشهد أبي وهو واقف وراء عجلة الدفة ويداه الكبيرتان مستقرتان على العصي المنبثقة منها. تطاول الصاري المكسور شاهقًا من فوقنا، وتراقص ضوء الشمس على سطح البحر بالأعلى، حيث كان هيكل ماريجولد يطفو.

انطلقت نحو العتبات المفضية إلى الطابق السفلي، فوجدت العارضة الخشبية ساقطة من حيث كانت معلقة في سقف الممر. وسبحنا في العتمة مجتازين الأبواب المتراصة على جانبي الممر الطويل، ومتجهين إلى الباب القابع في النهاية.

سبحنا في الماء المتعكر بالرواسب، وحين وصلنا إلى الباب حاولت فتحه، لكنه كان عالقًا جراء انحشار قطعة خشب سميكة، فاتكأ ويست بظهره على جدار الممر، وركل الباب حتى انفتح.

تسللت أشعة الشمس عبر مخزن الشحن فأضاءت أكوام الصناديق المبعثرة والبراميل المقلوبة. سبحت فوق تلك الصناديق والبراميل قاصدة الزاوية الخلفية، حيث كانت الصناديق لا تزال مثبتة في الجدار، وأحسست بذبذبات منبعثة منها كأنها فرقة غنائية تتألف من ألف شخص، إذ أصدرت الأحجار الكريمة الكامنة هنالك ذبذباتها بانسجام، فشملتني كأنها هبّة رياح.

نفضتُ الرمال حتى لاح شعار أبي المرصع باللؤلؤ على الخشب الأسود المطلي بالقطران، ثم مددت يدي وراء ظهري واستللت أصغر معول من حزامي، ثم تحسست فتحة المفتاح في الضوء الخافت، وما هي إلا بضع محاولات حتى انفتح القفل، ثم وضعت أصابعي تحت الغطاء ونظرت إلى ويست قبل أن أفتحه.

وفجأة تمنيت لو أستطيع التحدث، تمنيت لو أستطيع أن أقول شيئًا، أي شيء. هنا، في الأعماق تحت ماريجولد التي تطفو على السطح، حيث كان السكون شاملًا، لا وجود لسينت أو زولا أو جيفال، لا أسرار أو أكاذيب أو أنصاف حقائق. هنا في الأعماق كنا مجرد اثنين من البشر الفانين في عالم غير العالم الذي عهدناه.

إنه العالم الوحيد الذي أنتمي إليه.

التقت عينا ويست بعينيّ، وطرفتُ ببطء وأنا أرجو أن أتذكر تلك النظرة إلى الأبد، وأن أتذكر هذا المشهد تمامًا كما هو، بشعر ويست الأصفر المتهادي في الضوء الأخضر وبالهدوء الشامل في البحر.

ابتسمت له قبل أن أعود إلى الصندوق، ورحت أرفع غطاءه الذي أحدث صريرًا، لكن ويست وضع يده على الغطاء فحال دون انفتاحه.

وانزلقت أصابعه الثفنة على الخشب قبل أن تزحف على أصابعي ببطء، ثم سحب يدي بعيدًا عن الصندوق. لبثتُ جامدة، واضطرب خفقان قلبي مع زحف يده على ذراعي، وانتشر دفء لمسته في جسدي كدفء أشعة الشمس وهي تداعب جلدي.

نظر إليّ بعينين تتألقان بمائة حكاية.

ثم اقترب مني، وأحسست بالهواء يحترق في صدري وهو يرفع يديه ويلمس وجهي. وزحفت أطراف أصابعه في شعري وهو يجذبني نحوه، وقبل أن يتسنى لي التفكير فيما كان يفعله عانقت شفتاه شفتيّ.

وأحسست بأنني تلاشيت، أحسست بأنني انمحيت من الوجود محوًا.

كل الأيام التي قضيتها في جزيرة جيفال، وكل الليالي التي أمضيتها على متن السفينة لارك، صارت كلها هباءً منثورًا، ولم يتبق سوى طنين الأعماق، ولم يتبق سواي برفقة ويست.

انسلت الفقاعات من بيننا صاعدة لأعلى عندما فتحت فمي لأتنعم بدفء فمه، وخيم سكون شامل على البحر كله، وأحسست بأن البحر يتعاظم من حولنا، ثم عاودت تقبيله وأنا مشبكة أصابعي في حزامه لأجذبه نحوي، لأشعر به في خضم الماء البارد. وحين فتحت عينيّ كان يرنو إليّ، وتألقت كل أنملة من جلده الذهبي في المياه المصطبغة باللون الأخضر، ولانت تقاسيم وجهه الحادة.

طوقني بذراعيه، وطويت نفسي في حضنه وهو يعانقني بشدة، كأنه كان يحول دون انهياري، وقد كان يفعل ذلك فعلًا، لأن تلك القُبلة قد نفخت الحياة في السماء المعتمة بين جوانبي فزينتها بنجوم وأقمار وشهب. وانقشعت ظلمات نفسي بحرارة الشمس الملتهبة التي تركض تحت إهابي الآن.

كانت الحقيقة التي دفنتها عميقًا وواريتها في مقبرة التعاليم التي لقنني إياها أبي، هي أنني رغبت في أن ألمس ويست ألف مرة من قبل.

الفصل الثامن والثلاثون

نجحنا في الخروج من بحر شرك العواصف قبل غروب الشمس وسط رياح هادئة وتحت سماء صافية.

التقط أوستر أعشاب البحر العالقة بزوايا السلة الأخيرة، ورماها خارج السفينة قبل أن يفتح السلة التي رُصت في داخلها آخر دفعة من الصناديق الصغيرة.

انشغلت بتضفير شعري المبلل المنسدل على كتفي، وأحسست بأن ويست صوّب عينيه عليَّ لوهلة قبل أن يختفي في الممر. وحالما رحل استدرت نحو المياه، ولمست فمي بأطراف أصابعي في حين دبت القشعريرة على جلدي مجددًا.

منذ أن عدنا إلى السفينة لم أجرؤ حتى على النظر في اتجاهه، لست أريد أن يعتري الذكرى أي خفوت، أريدها أن تبقى كما هي نابضة بالحياة في ذهني. أردت أن أتذكرها كما أتذكر بريق زجاجة الجاودار تحت ضوء الشموع في غرفة أبي، أو كما أتذكر تفاصيل شكل شبح أمي في الظلام.

أردت أن أحتفظ بذكرى تقبيله لي في الأعماق، إلى الأبد.

سوف أحفظ العهد الذي قطعته له حين انضممت إلى الطاقم؛ لن أكشف عن تلك اللحظة العذبة هنا، في هذا العالم، حيث ستنسحق تحت رحى منطقة المضايق، لكنني مع ذلك لن أنساها أبدًا.

وضع أوستر الصناديق بين ذراعيّ، وتبعته هبوطًا على العتبات نحو مدخل مخزن الشحن حيث كان ويست واقفًا. تنحى جانبًا، وألصق ظهره بالجدار كي يتسنى لي العبور، ونظر فوق رأسي وهو يحرص على ألا يلامسني وأنا أعبر بجانبي إلى المخزن.

نبضت الحياة على متن السفينة بوجود الأحجار الكريمة المتألقة وبذبذباتها الخافتة التي تمتزج معًا في صوت واحد عميق ذي أصداء مترددة. جلس هاميش في وسط المخزن بجوار ويلا، وانتشرت الأوراق من حوله في حين انكب على تدوين الملاحظات في دفتره. وجدت مساحة صغيرة خاوية أمامهما فأنزلت الصناديق فيها، وفتحت الصندوق الأول. سقط ضوء المصباح على عشرات من اللآلئ الكبيرة المعروفة باسم لآلئ الطاووس، والتي أخذت تلتمع وهي لا تزال مبللة.

شرعت ويلا تحصي اللآلئ، في حين فتحتُ غطاء الصندوق التالي، فوجدته يحوي قِطعًا عشوائية الأشكال من معدني الذهب والبلاديوم الخام، واختلطت القطع ببعضها في فوضى.

عندئذ فغرت ويلا فمها وهي تلتقط بإصبعيها حجرًا من صندوق صغير بجانبها وقالت في ذهول: «هل هذا...»

فأتممتُ جملتها: «حجر أوبال أسود»، وملت إلى الأمام لأتفحصه. لم أر حجرًا مثل هذا منذ طفولتي.

جلس ويست بجواري وأخذه منها، فاحتكت ذراعه بذراعي وهو يمد يده. وحين رفعت عيني لأعلى كانت ويلا تنظر بيننا وجبينها متجعد.

تساءل: «كم ثمنها في تقديرك؟».

لم أتبين ما إذا كان يسألني أم يسأل هاميش، لذلك لم أحر جوابًا، ورحت ألتقط قطع البلاديوم واحدة تلو أخرى وأضعها أمامي.

أجاب هاميش وهو يدون ملاحظة أخرى في دفتره: «أظن قيمتها أكثر من مائتي عملة نحاسية».

مد ويست يده أمامي نحو كيس ملأته ويلا بأحجار السربنتاين المصقولة، فشملتني رائحته، وتحيرت بشأن ما إذا كانت القشعريرة التي تسري على جلدي نتيجة ذبذبات الأحجار الكريمة أم بسببه هو. وزممت شفتيّ وأنا أشاهد وجهه يقترب مني، لكنه لم ينظر نحوي.

وتساءلت ويلا وهي تنظر من فوق كتف هاميش إلى الصفحة التي كان منكبًّا على تدوين الملاحظات فيها: «إذن كيف تبدو الحال؟».

فابتسم وأجابها: «جيد، جيد جدًّا».

فتنهد ويست تنهيدة ارتياح، وسأله: «ما الخطة؟».

فصفق هاميش دفتي دفتره مغلقًا إياه وقال: «أظن أنه بوسعنا بيع ربع المغنم في ديرن إن توخينا الحذر، وسيكفي العائد لتسديد دين سينت وديون التجار في جميع الموانئ، ويفيض منه أيضًا. أما بقية المغنم فيمكننا تخبئتها في المخبأ وبيعها شيئًا فشيئًا على مدار فترة زمنية طويلة. سيتعين علينا أن نبيع كميات صغيرة في كل ميناء لتجنب لفت الانتباه، ونذهب إلى السوق في مجموعتين الواحدة تلو الأخرى كي لا نترك السفينة بلا حراسة». ودس يده في سترته، وسحب الحافظات الجلدية الحمراء التي رأيتهم يستخدمونها في ديرن، وهذه المرة أخرج ستًّا وليس خمسًا فقط، ثم أردف: «لا يحمل أحد في حافظته ما تبلغ قيمته أكثر من ستمائة عملة نحاسية، ولا يحمل الكثير من الأحجار الكريمة ولا المعادن. ويحرص كل واحد أن تحوي حافظته قطعًا قليلة القيمة. علينا أن نتحلى بالدهاء إن أردنا تفادي إثارة فضول التجار والبحارة الآخرين».

شرعنا في العمل وملأنا كل حافظة بتوزيعة معينة من الأحجار والمعادن. كان علينا أن نجعل تعاملاتنا على نطاق واسع، ونجعل تحركاتنا في أوقات مختلفة كي لا نتعامل مع التاجر نفسه مرات عديدة. وكانت ديرن أكثر الموانئ أمانًا وأمثلها لإنجاح هذه المهمة؛ إذ إنها ليست كبيرة لدرجة وجود عدد كبير من السفن الأخرى في الميناء، ومع ذلك فهي

كبيرة بما يكفي لوجود عدد لا بأس به من أكشاك التجار في السوق، ما يكثر من فرصنا في المتاجرة.

كانت خطة جيدة، ولكنها مثل معظم الخطط لم تكن تخلو من المخاطر. إذا أبلغ أحدهم مجلس التجارة بشأننا فسنفقد رخصة التجارة، وإن سمع سينت أو زولا بأخبارنا فمن الممكن أن تتعرض السفينة لضرر بالغ مرة أخرى. وتساءلت عما إذا كان سينت في ديرن ينتظرنا، لقد رآنا نغادر سيروس؛ أي أنه يعلم أنني ساعدت ماريجولد في أمر أشرعتها الجديدة، ويمكنه أن يخمن أننا ذاهبون إلى السفينة لارك. ما لم أكن أعرفه هو ما يخطط لفعله حيال ذلك.

تساءل هاميش وهو يقلب حجر الأوبال الأسود في يده: «إذن، كيف يجري الأمر. هل تستطيعين... التحدث مع الأحجار؟».

فأدركت أنه يحادثني. كنت أفترض أنهم مرتابون في أنني خبيرة أحجار كريمة، ومع ذلك فقد أحرجني السؤال. أجبته: «لست أدري كيف أشرح الأمر. إنه شيء أفعله هكذا بعفوية».

عاد يسأل: «هل تشعرين بها؟».

بدا ويست ساكنًا كأنه أيضًا ينتظر سماع إجابتي.

فأجبت: «نوعًا ما، لكن الأمر أقرب إلى كوني أعرفها هكذا بعفوية. ألوانها، كيفية سقوط الضوء عليها، ملمسها حين أحملها في يدي».

حدجني هاميش بنظرات تشي بعدم رضاه عن الإجابة.

فتنهدت وأنا أفكر، ثم قلت: «إن الأمر أشبه بشأن أوستر مع الطيور؛ كيف تنجذب الطيور إليه، كيف يفهمها».

عندئذ أومأ برأسه وبدا أنه يقبل هذا التفسير، لكنني لم أكن متأكدة حتى ما إذا كنتُ أنا قد فهمت مقصدي. لو لم تمت أمي لتدربت تحت يديها لسنوات عديدة أخرى بما يجعلني خبيرة أحجار كريمة محنكة أكثر، لكن مع رحيلها ثمة أشياء لن أتعلمها أبدًا.

ثم قال هاميش وهو يضع الحافظات الممتلئة في أحد الصناديق قبل أن ينهض: «ستكون تلك مهارة نافعة عند الحاجة، ولكن يستحسن أن تتكتمي عليها»، وانتظر مني أن أعبر عن موافقتي إياه بإيماءة قبل أن يتبع ويست صعودًا على العتبات.

التقطت ويلا سلة صغيرة تحوي أحجارًا خامًا من العقيق الأحمر، ووضعتها في حجرها قبل أن ترفع عينيها إلى أعلى وتسألني: «ما شأنك أنت وويست؟».

فعبستُ وسألت: «ماذا؟».

أخذت تحصي الأحجار في صمت ودونت ملاحظة قبل أن تنظر نحوي مرة أخرى وتقول: «اسمعي، ليس من عاداتي طرح الأسئلة. كلما قلّت معرفتي كان ذلك أفضل».

فوضعت يديّ في حجري وقلت: «حسنًا!».

تابعت حديثها قائلة: «إنه أخي».

عندئذٍ نظرت إليها وأنا غير متأكدة بشأن ما سأقوله. لم تكن غبية، ولا جدوى من الكذب.

واصلت كلامها: «إن كان يورط نفسه في مشكلة فأنا أريد أن أعرف ذلك. ليس لأن لي عليه سلطانًا يمنعه من توريط نفسه، فلا أحد يملي على ويست أفعاله، بل لأنني بحاجة إلى أخذ استعداداتي اللازمة لحمايته».

سألتها: «من ماذا؟».

ووشت نظراتها الثابتة القوية بالجواب، كانت تقصدني بحديثها.

ردت: «أنت لست مجرد جرّافة جيفالية يا فيبل. أنت ذات شأن عند شخص ضَيَّق علينا حياتنا، شخص بوسعه إلحاق الضرر بنا بدرجة أكبر مما قد ألحقه بنا بالفعل»، وأعطتني أحجار العقيق الأحمر، فوضعتها في الصندوق المفتوح بجواري، ثم أردفتْ: «في الليلة التي ظهرتِ فيها على سطح السفينة، ووافق على نقلك، كنت أعرف أن ثمة خطبًا ما بشأنك».

سألتها: «لم يخبرك قط من أنا؟».

فأجابت بانزعاج غير خفي: «لا يخبرني ويست إلا بالأمور التي أحتاج إلى معرفتها. ولم يساورني القلق إلى أن طلب مني اقتفاء أثرك في سيروس».

فقلت: «لا يوجد شيء تقلقين بشأنه يا ويلا»، آلمني نطق تلك الكلمات، لكنها كانت حقيقة. لقد أوضح ويست أننا مجرد رفيقين على سفينة، ولا شيء آخر.

فتساءلت: «أحقًّا ذلك؟».

فقلت: «أنا على متن ماريجولد للإبحار فقط».

تنهدت ونهضت واقفة وهي تقول: «لا، ليس الأمر كذلك. أنتِ على متن ماريجولد تبحثين عن عائلة».

فعضضت على شفتي السفلى وأنا أطرف قبل أن تحتشد الدموع في زوايا عينيّ؛ لأنها كانت محقة. لقد قضت أمي نحبها، وأبي لا يريدني، ورحل كلوف الذي كان أقرب شخص لي بعد والديّ.

وفجأة قالت ويلا: «سوف أغادر ماريجولد».

فانغلقت قبضتاي على الحافظة التي بين يديّ، وهمست: «ماذا؟».

قالت: «سوف أنتظر حتى تُسوى الأمور ويعثر ويست على من يتولى مهمة إدارة سطح السفينة. ولكن حالما يسدد دين سينت ويؤسس تجارته الخاصة سوف أعود إلى سيروس»، ونطقت الكلام بأداء منتظم؛ كأنها رددت في دخيلة نفسها مئات المرات.

سألتها: «هل أخبرت ويست؟».

فازدردث ريقها بصعوبة وهي تقول: «ليس بعد».

عدت أسألها: «ماذا سوف تفعلين؟».

فهزت كتفيها وقالت: «ربما سأتدرب تحت يد حداد، لست أدري بعد».

اتكأت على الصندوق القابع خلفي، وتذكرت ما قالته ويلا عن عدم اختيارها هذه الحياة. بثروة السفينة لارك لم أكن أشتري حرية ويست فحسب، بل كنت أشتري حريتها أيضًا.

ثم أخفضت صوتها وهي تقول: «إنني معجبة بك يا فيبل. إن ضمك إلى الطاقم كانت فكرتي، وأنا سعيدة لوجودك هنا. لست أقول إنني لا أريدك أن تحبيه، أنا فقط أقول إنك إذا تسببتِ في مقتله فلست أدري ما إذا كنت سأتمكن من منع نفسي من ذبحك».

الفصل التاسع والثلاثون

لاحت ديرن في الظلمة الحالكة بقعة صغيرة قليلة الإضاءة على ساحل غير مرئي.

وقفت عند صدر السفينة أشاهدها تقترب منا وويست يوجه ماريجولد إلى الميناء، حيث وقف هنالك عامل رصيف وفي يده مصباح لتسجيل وصولنا.

ألقى باج حبال التثبيت ناحية الرصيف، وتوجهتُ إلى الطابق السفلي قاصدة مخزن الشحن، حيث كان المغنم الذي انتشلناه من السفينة لارك منظمًا ومرتبًا، وتم تسجيل كل حجر كريم وكل معدن ثمين وكل لؤلؤة في دفتر هاميش. كانت قيمتها كافية لتسديد ويست ديون سينت ولمساعدة ماريجولد على شق طريق تجارتها الخاصة، وربما حتى شق طريق تجاري يصل إلى منطقة البحر المجهول يومًا ما.

بثت هذه الاحتمالية في نفسي إحساسًا يندر أن يخالجني، ألا وهو إحساس الأمل، لكن سرعان ما غزا ذهني الواقع الوحشي المحموم الذي اتسمت به طبيعة حياة التاجر في هذا العالم. إنها لعبة إستراتيجية تقتضي من كل تاجر التمتع بقدرة دائمة على التحايل والمناورة من أجل المضي قدمًا والتدافع بكل قوة من أجل إشباع شهوة تحقيق المزيد بنهم لا يمكن إشباعه.

المزيد من النقود، المزيد من السفن، المزيد من البحارة.

وقد كان هذا شيئًا يجري في دمي، لم أكن مختلفة في هذا الصدد.

عما قريب سوف تشرق الشمس من وراء تلك الأرض، وسأحرك القطعة الوحيدة التي أملكها على رقعة الشطرنج. ومع ذلك، فأخذ مال سينت واستخدامه لإنقاذ ماريجولد مقابل

الانضمام لطاقمها كانت خطوة من شأنها أن تثير إعجاب سينت نفسه. هذا ما أقنعت به نفسي على أية حال.

جاء هاميش من حجيرة القبطان، ووضع إحدى الحافظات في يدي فلففت أصابعي حول جلدها الناعم. ستكون هذه هي المرة الأولى التي أتاجر فيها مع هذا الطاقم بصفتي واحدة منهم، وفجأة ساورني ارتباك.

خرجوا جميعًا إلى سطح السفينة وستراتهم مزررة بالكامل، وطوت ويلا ياقتها لأسفل لتظهر ندبتها.

وضع ويست قبعته وقال: «سأبدأ أنا ومعي باج وفيبل. ثم أوستر وويلا مع هاميش في المرة التالية. هيا».

نشر أوستر السلم على الجانب، وانطلق نحوه باج. وفي السفينة المجاورة جلست امرأة على الصاري ترقبنا. ربما وصلت إلى ديرن أخبار ما حدث لماريجولد في سيروس، في حالة حدوث ذلك سنلفت الانتباه بدرجة كبيرة تضر بنا.

تحدث ويست بصوت هامس بجواري: «تجنبي إظهار مهارات تاجرة الأحجار الكريمة التي بداخلك»، وأعطاني سكينًا إضافية. فأومأت برأسي، ودسست السكين في حذائي.

ثم هبط السلم وأنا في إثره، في حين وقف الآخرون يشاهدوننا من عند نهاية السفينة. رفعت غطاء الرأس الملحق بسترتي، ودسست يديّ في جيبيّ، وسرت في أعقاب ويست وهو يقودنا في الميناء. كان بحارة السفن الراسية في الميناء قد بدأوا للتو في الاستيقاظ، ورحت أتفحص الشعارات بحثًا عن السفينة لونا، لكنها لم تكن هنالك. إن واصل زولا مساره الطبيعي بعد سيروس، فيرجح أن يكون في مدينة سوان الآن ناحية الشمال قبل أن يعود إلى هذا الجزء من منطقة المضايق. من شأن ذلك أن يوفر لنا الوقت الذي نحتاج إليه، ولكنه ليس بالمتسع الكبير.

كانت أبواب مقر السوق مفتوحة بالفعل حين خرجنا من الميناء، وذُبنا في تيار الناس المتدفق بالداخل. انحشرت وسط دفء الأجساد فتلاشت برودة الرياح، وخلعت غطاء الرأس، وأبقيت وشاحي مغطيًا النصف السفلي من وجهي.

التفت ويست ونظر إليّ ثم إلى باج وهو يقول: «مستعدان؟».

فقلت: «مستعدة».

وقال باج: «مستعد».

فقال ويست: «حسنًا، أمامنا ساعة واحدة».

وتفرقنا في ثلاث جهات، كل منا يشق طريقه في وجهته، وانطلقت إلى الركن الجنوبي الشرقي من مقر السوق متجولة بين الأكشاك. كانت أكشاك التجار الذين يبيعون أوراق نبتة البوصير والأعشاب الأخرى في نهاية صف الأكشاك، أما على الجانب الآخر فقد لمحت علبة فضية. اندفعت من بين رجلين نحو الكشك الذي جلس فيه رجل ذو شعر أحمر طويل منسدل من تحت غطاء رأسه الصوفي، ونظر إليّ.

نقر بيده على العلبة الفضية فرن خاتمه الذي يحمل ختم اعتماد نقابة الأحجار الكريمة، وسأل: «ما الذي يمكنني فعله لك يا فتاة؟»، وقد كان وجه حجر العقيق الذي يرصع الخاتم مليئًا بالخدوش لدرجة أنه لم يعد يلتمع.

مددت يدي إلى حافظتي المدسوسة داخل جيبي، فعثرت على قطعتين غير مصقولتين، إحداهما قطعة ذهب والأخرى بلاديوم. ثم رفعتهما أمامه وقلت كاذبةً: «عثرت على بعض القطع في سيروس، ولست متأكدة من قيمتها».

فانحنى مقتربًا وهو يضع نظارة بعدسة واحدة على عينه قائلًا: «أتسمحين؟».

أومأت برأسي، فالتقط قطعة الذهب وتفحصها بعناية، ثم أخذ قطعة البلاديوم، واستغرق وقتًا أطول في تفحصها. ثم قال: «أعرض خمسًا وثلاثين عملة نحاسية لقطعة الذهب، وخمسين للأخرى»، وأعادهما إلى راحة يدي وهو يقول: «جيد؟».

فأجبت: «بالتأكيد». لم يقدم سعرًا جيدًا مقابل هاتين القطعتين الجيدتين، لكنني كنت قد بدأت للتو، ولم يكن بوسعي إضاعة الوقت في مساومته، سوف أقبل أيًّا ما يُعرض عليّ.

أحصى النقود وهو يخرجها من حافظة صغيرة وسلمها لي، ثم سألني: «إذن، أين في سيروس...»

لم يكد يكمل جملته حتى أوليته ظهري عائدة إلى الممر وأنا أقول: «شكرًا».

بعد ذلك وجدت تاجرة أحجار مرو، فأخذت وقتي في الاطلاع على الأحجار التي تعرضها قبل أن أخُرج ثلاثة أحجار من حافظتي. اتسعت عينا المرأة حين رأت في يدي حجم الحجر المعروف باسم حجر الدم، فثار انزعاجي، ورحت أتساءل عما إذا كنت قد استهنت بشأن التجار. ربما كان علينا وضع قطع أصغر في الحافظات.

تلعثمت كلماتها وهي ترفع الحجر باتجاه الضوء، ثم قالت: «لم أر مثل هذا منذ أمد بعيد».

وفي غضون ثوانٍ قدمت عرضًا جيدًا، وجعلتُ الحجرين الآخرين جزءًا من الصفقة لكي أكسب الوقت، ثم ذهبت عنها بعد أن ربحت تسعين عملة نحاسية أخرى في صفقة واحدة.

شببت وأنا أبحث عن قبعة ويست الخضراء. كان منحنيًا على طاولة بمحاذاة جدار مقر السور، وكان باج في الممر التالي أمامي يساوم سيدة عجوزًا حادة العينين على ثمن حجر كريم.

خفت حافظتي وثقلت جيوبي وأنا أبيع الأحجار الكريمة اثنين اثنين أو ثلاثة ثلاثة، وأجلت بيع أكثر حجر لافت للنظر إلى نهاية الجولة - حجر الأوبال الأسود.

زحفت ببصري على التجار في الأكشاك بحثًا عن تاجر عنده أحجار كريمة نادرة، وأتوسم فيه أن يكون أقل فضولًا بشأن فتاة تبيع مثل هذا الحجر الثمين. وحين وقع بصري على رجل يحمل في يده حجر زبرجد أخضر كبيرًا تحركت تجاهه، وأصغيت إلى الصفقة التي كان يبرمها. لقد قدم سعرًا لا بأس به من دون إبداء اهتمام كبير بالزبرجد، وحين ولت المرأة التي باعت له الحجر ألقاه في صندوق ذي قفل يقبع خلفه.

قال من دون أن يتكلف عناء النظر إليّ: «نعم؟».

فالتقطت حجرًا من أحجار اليشم على الطاولة، وقلبته وأنا أضغط بإبهامي على طرفه الحاد، وقلت: «معي حجر أوبال أسود أريد بيعه».

فوضع إحدى يديه على العلبة، ونظر إليَّ وهو يقول: «تقولين أوبال أسود؟ لم أرَ أوبال أسود في منطقة المضايق منذ بضع سنوات على الأقل».

فقلت وأنا أبتسم بداخلي لأن كلامي ليس كذبًا: «لقد كان جزءًا من إرثي».

التف ومد يده إلى الصندوق القابع خلفه جالبًا منه سراجًا خاصًا بتفحص الأحجار الكريمة، ووضعه على الطاولة بيننا، ثم قال: «لنر إذن».

كانت تلك أدوات يستخدمها تجار الأحجار الكريمة لأنهم لا يستطيعون استشعارها مثلي، لا يفهمون لغة الضوء والذبذبات ولا يعرفون كيف يطلعون على أسرار تلك الأحجار. في الماضي كانت نقابة الأحجار الكريمة مليئة بخبراء الأحجار الكريمة، أما الآن فمعظم التجار مجرد رجال عاديين يملكون أدوات فاخرة.

استنشقت نفسًا عميقًا وأنا أراقب محيطي قبل أن أخرج الحجر من حافظتي، وأضعه على الزجاج العاكس. لقد كان ذلك أكبر حجر أوبال أسود رأيته في حياتي، وفي غضون ثوانٍ فقط سيجذب أنظار الناس من حولنا.

رفع عينيه نحوي من تحت حاجبيه الكثيفين، وحاولت أن أهدئ تعابير وجهي وأنا أتساءل عما إذا كنت قد أخطأت الحكم عليه، لكنه لم ينبس بكلمة من مجلسه على كرسيه، وأشعل فتيل الشمعة في السراج.

انعكس اللهب الصغير على الزجاج، وتدفق الضوء على حجر الأوبال متسللًا عبر سواده الحالك فكشف عن الألوان الحبيسة في باطنه، حيث تراقصت بقع حمراء وأرجوانية وخضراء كأنها أشباح تتلوى في الظلام.

تمتم الرجل وهو يقلب الحجر ببطء حتى يقع ضوء المصباح على وجه الحجر: «يا إلهي...»، ثم أردف: «جزء من إرث، صحيح؟».

فانحنيت على الطاولة وقلت بهدوء: «صحيح».

لم يصدق ذلك، لكنه لم يجادل. وضع يده على الحجر ليخفيه حين مر رجل من خلفي، ونفخ في السراج ليطفئ الشمعة، ثم قال بصوت خفيض: «مائتان وخمسون عملة نحاسية».

فقلت: «اتفقنا».

ضاقت عيناه وهو ينظر إليّ، لا شك أنه ارتاب في مدى سرعة قبولي للعرض. سحب حافظة ممتلئة من حزامه، وجلب حافظة أخرى من الخزانة المقفلة خلفه، ووضعهما أمامي وهو يقول: «هذه مائتان»، ثم استل حافظة أخرى من حزامه وقال: «وهذه خمسون».

التقطتُ الحافظات جميعًا، ودسستها في جيوبي العميقة. ينم الوزن عن أن العدد صحيح، سوف يستغرق عدها وقتًا طويلًا، وأنا وقتي ضيق. عند الجانب الآخر من مقر السوق كان باج وويست ينتظرانني بالفعل بجوار الباب المفضي إلى الميناء.

همس الرجل وهو يمد يده نحوي: «لست أدري ما تنوين فعله، لكن حريٌّ بك توخي الحذر».

فصافحت يده قبل أن أعود إلى الممر وأذوب في الحشد، وأطلقت العنان للزفير المكتوم في صدري. وقعت عينا ويست عليَّ وأنا أقترب من الباب، ثم انضممت إليهما، وخرجنا إلى ضباب الصباح.

نظر إلينا ويست من فوق كتفه، وتساءل وهو ينتظرنا أن نحاذيه: «كل شيء على ما يرام؟».

فأومأ باج قائلًا: «لقد أحجمت عن بيع حجر المرو الدخاني حين بدأت العيون تتجه نحوي، لكني بعت الباقي»، ثم نظر إليّ وسأل: «ماذا عنك؟».

فقلت: «بعت كل الأحجار».

لقد نجح الأمر، لقد نجح الأمر حقًّا.

ابتسمت من تحت الوشاح الذي يغطي فمي، ورفعت غطاء الرأس الملحق بسترتي، ولاحت السفينة ماريجولد على مرمى البصر. في يوم قادم سوف تكون ماريجولد حرة.

الفصل الأربعون

تراقص اللهب على فتيل الشموع مع تيار النسيم، وتساقط الشمع الأبيض متقاطرًا كقطرات المطر على سطح السفينة، في حين وضع أوستر صينية تحوي إوزة كاملة مشوية في منتصف مائدتنا المؤقتة، وراحت ويلا تصفق بيدها، وتطلق صفيرًا يشق الليل.

ثم مدت يدها بقطعة خبز لتنقعها في الحساء الذي يملأ قعر الصينية، وجلد الإوزة المقرمش لا يزال يتألق بلونه الذهبي. كما كان أمامي وعاء فخاري يحوي خوخًا مطبوخًا منقوعًا في عسل مخلوط بقرفة، وألسنة البخار تتصاعد من الوعاء، وبجواره قطعة كبيرة من الجبن الجاف إلى جانب صف من فطائر اللحم المدخن. حتى إن باج كان قد ذهب إلى مقر المقايض، واشترى مجموعة من أطباق البورسلين المرسوم عليها رسمًا يدويًا، واشترى أدوات مائدة فضية حقيقية أيضًا. وتراصت كل تلك الأشياء تحت سماء الليل المتلألئة بوهج النجوم من فوقنا.

امتلأ أنفي بالرائحة فسال لعابي، وانفتلت معدتي توقًا إلى الطعام ونحن جميعًا نشاهد أوستر وهو يقطع من الإوزة ويضع قطعتين من اللحم في طبقي. سكب باج الجاودار، وملأ كأسي حتى فاضت على سطح السفينة، في حين انتشلتُ خوختين من الوعاء الفخاري.

كان ويست جالسًا بجواري، مزق قطعة من الخبز ووضعها في يدي، ولمست أصابعه كفي فالتهب جسمي مرة أخرى، لكنه أبقى عينيه إلى أسفل وهو يمد يده عبر المائدة ناحية زجاجة الجاودار.

ثم رفعت ويلا كأسها عاليًا فتألقت على ضوء الشموع كأنها قطعة زمرد هائلة تلتمع في يدها، وقالت: «أريد أن أخصص تحية، إلى صاحبة شؤمنا!».

فضحكت والجميع يرفعون كئوسهم ليخبطوها في كأسها مشاركة في التحية، ثم تجرعوا الكئوس في جرعة واحدة معًا، ثم خبطت ويلا قعر كأسها على سطح السفينة وعيناها تدمعان، في حين كسرتُ قطعة من الجبن الجاف، وقذفتها ناحيتها، لكنها مالت إلى الوراء وهي تلتقط القطعة بفمها، فهلل الطاقم.

انكبوا على أطباقهم وأخذوا يضحكون بين اللقيمات، ولم يستخدموا السكاكين والملاعق ذات النقوش الرائعة الموضوعة بجانب أطباقهم. وجرت الرياح على الأشرعة المبسوطة فتردد صوتها في الأجواء، ونظرت إلى طبقي، وقطعت لقمة من الفطيرة قبل أن أضعها في فمي.

تمنيت أن أوقف الزمن وأبقى هنا، حيث صوت هاميش يصدح بالغناء والابتسامة مرتسمة على وجه ويلا، والبهجة بادية على كلٍّ من أوستر وباج.

دفعت ويلا كأسًا مترعة أخرى نحوي، وتطلعتُ إلى الشراع المرفرف فوق صدر السفينة، حيث كانت ستارة الشراع البيضاء تحمل شعار ماريجولد الذي يتماوج مع الرياح اللطيفة.

وتساءلتُ وأنا أحسب عدد أطراف نجمة الشعار: «لماذا ماريجولد؟ لماذا سُميت ماريجولد؟».

اتجهت عينا ويلا إلى ويست الذي تصلب جسده بجواري، وواصل الآخرون المضغ وكأنهم لم يسمعوا السؤال.

عندئذٍ غيّر هاميش الموضوع، إذ نظر إلى ويست من فوق العظمة التي يقبض عليها في يده تحمل بقايا دهون وسأله: «ماذا سيقول في ظنك حين تسدد له الدين؟».

قال ويست: «لست أدري»، وبدا صوته غليظًا مع الإنهاك الذي شد وجهه وهو يحدق إلى لهب الشمعة، كما بدا شعره جافًّا من المياه المالحة على إثر الغوص في بحر شرك العواصف.

لقد نجحنا، وصلنا إلى السفينة لارك وملأنا الخزائن بالنقود، لكنه كان قلقًا.

وغالب الظن أنه كان محقًّا في قلقه. لن يتوقع سينت ذلك، ولا نستطيع التنبؤ برد فعله. الرجل الذي لطالما كان متقدمًا بثلاث خطوات على الجميع سوف يفقد سفينة ظل تابعة له وسيخسر طاقمًا كاملًا في طرفة عين، ومن دون أن يخطر له ذلك على بال. وما من شيء أبغض إليه من فقدان السيطرة على الأمور. الشيء الوحيد الذي يمكننا التعويل عليه هو حقيقة أن سينت رجل يفي بكلمته. إن كان لا بد فسيختار أن يفقد ماريجولد على أن ينكث وعده، لكنه لن ينسى ذلك، وسيكون هناك ثمن يجب دفعه.

أنهى ويست شرب كأسه قبل أن ينهض، وشاهدته يمضي إلى صحن السفينة.

ترددت أصوات الطاقم فوق الميناء الهادئ، وانطفأت مصابيح السفن الأخرى تباعًا، تاركة إيانا في الوهج الخافت لشموعنا الصغيرة إلى أن انطفأت ألسنة اللهب في الشمع الذائب. التقط هاميش هيكل الإوزة للحصول على آخر قطعة لحم، واستلقت ويلا على ظهرها ناشرة ذراعيها حولها كأنها تطفو على سطح الماء، وراحت ترنو إلى السماء، وسرعان ما أغمضت عينيها.

رمى هاميش آخر عظمة في الصينية وهو ينهض قائلًا: «سأتولى نوبة الحراسة الأولى».

تبعته هبوطًا على الدرج. وكانت ديرن غارقة في الصمت، وضوء القمر منعكسًا على ألسنة الدخان المتصاعدة من المداخن الثلاث في المشرب.

توقفت قبل المدخل المقوس، حيث شاهدت الضوء المتسلل من باب حجيرة ويست المفتوح، وظله مرسوم على سطح السفينة، وتقاسيم وجهه في ظله تلامس الألواح الخشبية بجانب قدمي. انتابني تردد وإحدى يديّ مرتكزة على المدخل المفضي إلى الممر السفلي، ثم غيرت وجهتي، وسرت بخطوات هادئة في الممر الجانبي المفتوح، حتى وافيت حجيرته.

كان واقفًا عند مكتبه، وزجاجة جاودار مفتوحة أمامه بجانب كوب فارغ قابع على الأوراق.

طرقتُ برفق، فرفع عينيه لأعلى وهو ينتصب في وقفته حين دفعت الباب لأفتحه على اتساعه.

قلت وأنا أخطو في ضوء الغرفة: «أنت قلق».

رنا إليّ هنيهة قبل أن يدور حول المكتب ليواجهني، ثم قال: «صحيح».

قلت: «سينت عقد صفقة معك يا ويست، وسيلتزم بها».

فقال: «ليس هذا ما يقلقني».

سألته: «فماذا إذن؟».

بدا أنه يفكر في كيفية التعبير عن الأمر قبل أن ينطق به، ثم قال: «الأمور تتغير في منطقة المضايق. ولعله من الخير أن يكون سينت إلى جانبنا».

فقلت: «لكنك هكذا لن تكون حرًّا أبدًا».

فقال بهدوء وهو يدس يديه في جيبيه: «أدري». وفجأة بدا أنه يافع جدًّا، لوهلة تخيلت مشهدًا يجري فيه على طول أرصفة سيروس كالأطفال الذين شاهدناهم في حي الساحل. ثم أردف: «لكن أيضًا... أظن أنني سوف أحس بأنني مدين له دائمًا، حتى إن سددت دينه».

حاولت ألا أبدو متفاجئة من اعترافه، بيد أنني تفهمت هذا الشعور. لم يكن من المفترض أن ندين لأي أحد بأي شيء، لكن هذه لم تكن سوى كذبة قلناها لنشعر بالأمان. والحق أننا لم نكن آمنين قط، ولن نكون كذلك أبدًا.

التقط الحجر الأبيض القابع عند زاوية مكتبه وقال بغتة: «ماريجولد كان اسم أختي».

فندَّ عني التساؤل في همسة جراء الصدمة: «ماذا؟».

فقال وقد ازداد التردد والتخوف في صوته: «كانت لي ولويلا أخت اسمها ماريجولد. لم تتجاوز الرابعة من عمرها حين ماتت، كنت في البحر حينئذٍ».

رحت أتساءل: «كيف؟ ماذا حدث؟».

اتكأ على مكتبه ويداه مرتكزتان على الحافة وقال: «ماتت على إثر مرض فتك بشطر قاطني حي الساحل. وحين أعطاني سينت السفينة ترك لي حرية تسميتها».

فهمستُ: «يؤسفني مصابك».

كان هذا ما قصده ويست عندما قال إن فرص ويلا على متن سفينة أفضل مما كانت عليه في حي الساحل. كان هذا هو السبب الذي جعله يخاطر بحياتهما معًا حين أخفاها في مخزن الشحن على أمل أن يقبلها القبطان ويضمها للطاقم.

ثقلت وطأة الصمت في الحجيرة حتى شعرت كأنني أغوص في الأرضية. لم يكن يخبرني عن أخته فحسب، بل ثمة شيء آخر في ثنايا الكلمات.

قال: «لقد اختلست من دفاتر الحسابات منذ أول يوم أبحرت فيه تحت شعار سينت، بيد أنني لم أكذب عليه قط».

فتساءلت وأنا أحاول استشفاف ما يرمي إليه وقد تحيرت: «ماذا؟».

فأردف: «في المرة الأخيرة التي رسونا فيها عند مدينة سوان أضرمت حريقًا في مستودع أحد التجار بأمر من سينت. لقد كان رجلًا صالحًا، بيد أنه كان يزيد ثراء مجموعة تجارية أخرى منافسة لسينت، ومن ثم أراد سينت أن يجعله يقطع إمداداته لتلك المجموعة. لقد خسر كل شيء».

تقهقرت خطوة وعيناي مثبتتان عليه، وتساءلت: «ما هذا؟ ما الذي تقوله؟».

فقال: «أنا أجيب عن أسئلتك».

حبست أنفاسي عندما رفع عينيه وصوبهما في عينيَّ، كانتا خضراوين جدًّا حتى خُيل لي أنهما منحوتتان من حجر السربنتين الكريم شديد الخضرة الذي بين يديه.

أعاد الحجر إلى مكانه، ونهض منتصبًا وهو يسأل: «ما الذي تودين معرفته أيضًا؟».

فهززت رأسي وقلت: «لا تخبرني بشيء. حين تخبرني بشيء ستخشى جانبي».

فقال: «إنني أخشى جانبك بالفعل»، وخطا خطوة تجاهي وهو يردف: «أول قبطان أبحرت معه كان يبرحني ضربًا ويضيق عليَّ، لقد اصطدت الفئرات وأكلتها كي أبقى حيًّا؛ فهو لم يكن يطعم متشردي حي الساحل الذين يعملون تحت إمرته. الخاتم الذي قايضتِ به الخنجر كان لأمي، أعطتني إياه في أول إبحار لي. لقد سرقت خبزًا من رجل يحتضر من أجل ويلا حين كنا نتضور جوعًا في حي الساحل، وأخبرتها بأن خبازًا أعطاني إياه، لأنني كنت أخشى أنها لن تأكله إن علمت كيف أتيت به. ولطالما لازمني تأنيب الضمير بهذا الذنب رغم أن الزمن لو عاد بي لفعلت ما فعلته مرة أخرى، ومرات كثيرة. الأمر الوحيد الذي أعرفه عن والدي هو أن اسمه قد يكون هنريك. لقد قتلت ستة عشر رجلًا لحماية نفسي أو عائلتي أو طاقمي».

قاطعته: «كفى يا ويست».

فتابع كلامه قائلًا: «وأعتقد أنني أحببتك منذ أول مرة رسونا فيها عند جزيرة جيفال»، وفجأة ابتسم ابتسامة عريضة وهو يرنو إلى الأرضية وقد اصطبغت بشرته بشيء من التورد على إثر الدم الزاحف في عروقه من تحت ياقة قميصه ناحية وجهه.

حُبست الأنفاس في صدري: «ماذا؟».

بيد أن ابتسامته اعتراها حزن وهو يقول: «لقد انشغل بالي بك في كل يوم منذ ذاك اليوم، بل ربما كل ساعة. لقد كنت أحصي الأيام للعودة إلى الجزيرة، وخضت عواصف ما كان ينبغي أن أخوضها لأنني لم أود أن تستيقظي هنالك فلا تجدينني منتظرًا في الموعد المحدد، لم أود أن تنتظريني، مطلقًا، أو تظنين أنني لن أعود»، وسكت هنيهة قبل أن يردف: «لقد أبرمت اتفاقًا مع سينت لأنني أردت السفينة، بيد أنني التزمت بالاتفاق بسببك. حين غادرتِ ماريجولد في سيروس ولم أعرف إذا ما كنت سأراك مرة أخرى، ظننت أنني... شعرت بأنني عاجز عن التقاط أنفاسي».

عضضت شفتي السفلية بشدة، واغرورقت عيناي حتى تماوجت صورته أمامي.

تابع قائلًا: «الشيء الوحيد الذي أخشاه حقًّا هو مكروه يصيبك».

لقد كان يبوح بحقيقة هائلة صادمة، كانت الحقيقة كاملة وعارية، كزهرة ربيعية غضة لن تقوى على الصمود تحت أشعة الشمس وما تلبث أن تذبل.

واصل حديثه: «لقد قبلتك لأن فكرة تقبيلك راودتني على مدار العامين الماضيين. رأيت فقط أنه إذا .....»، ولم يكمل جملته، ثم قال وهو يرنو إليّ: «لا يمكننا أن نخوض هذا الدرب في علاقتنا وفقًا للقواعد يا فيبل، يجب ألا تكون هناك أسرار بيننا».

قلت: «لكنك في سيروس، قلت إن ...»، لكن الكلمات خذلتني.

فقال: «لقد ظننت أنني قادر على أن أرافقك على هذه السفينة ولا ألمسك، لكن تبين أن هذا فوق ما أطيق».

رنوت إليه والدموع الساخنة تنساب على خديّ وهو يرفع يده في الفراغ الفاصل بيننا وكفه مبسوطة أمامي، فرفعت يدي إلى يده، وأغلق أصابعه على أصابعي.

كان يفتح بابًا لن نتمكن من إغلاقه مرة أخرى، وكان ينتظر ليرى ما إذا كنت سأخطو وأعبر هذا الباب .

إن ما باح به - الأسرار التي هتكها أمامي - كانت طريقته في إظهار أنه يثق بي، وكذلك كانت طريقته في إعطائي عود ثقاب، إن أردت يمكنني حرقه به حرقًا. ولكن إن كنا سنخوض هذا الدرب فيجب أن أكون ملاذه الآمن، ويجب أن يكون ملاذي الآمن.

همستُ: «لن أرزأك في شيء يا ويست».

فتنهد طويلًا ويده تضغط على يدي، ثم قال: «وأنا أعلم ذلك».

شببت على أطراف أصابعي والتقت شفتاي بشفتيه، ومرة أخرى شملتني الحرارة اللافحة التي كانت قد شملتني حين قبلني تحت الماء، واجتاحت كل أنملة من جلدي. اندفعت رائحة الجاودار والمياه المالحة والشمس إلى رئتي، وارتشفتها بشوق كأنها أول نفس هواء بعد غطسة طويلة.

تبادلنا القبلات بحرارة، وأغمضت عيني المغرورقة بالدموع. لقد بث هذا العناق في نفسي إحساسًا باهرًا، شعور الاحتضان، لم يلمسني أحدهم منذ أمد بعيد، وقد كان إحساسًا بالغ الروعة لدرجة أنني أحسست كأن صدري يوشك أن ينشق

وفي خضم اللحظة وتكاثف المشاعر واشتداد حرارتها شبكت أصابعي في حزامه وأنا أنتظر أن يرنو إليّ، لأنني أردت أن أنطق بشيء قبل أن تنقضي اللحظة، لو أننا لم نثق ببعضنا تمام الثقة فهذا مؤذن بأفول شمس علاقتنا.

انسلت المزيد من الدموع، وكانت الكلمات كأنها غصص في حلقي وأنا أقول: «لا تكذب عليَّ ولن أكذب عليك، أبدًا».

وحين قبلني مرة أخرى كانت القبلات بطيئة، كأنها توسُّل. اشتملنا صمت البحر، وهدأ خفقان قلبي، ورسمت كل لحظة في ذاكرتي: رائحته وأصابعه على جسدي، طعم الملح حين قبلتُ كتفه، وإحساسي بشفتيه.

بدا ذلك كنور الشمس على البحر صباحًا، حيث ينيره ويكشف مجاهله فيتبدى كأنه جديد. إن كل لحظة أمامنا كبحر مجهول سنخوضه.

كانت هذه بداية جديدة.

الفصل الحادي والأربعون

ترددت أصوات الطيور البحرية فوق البحر فأيقظتني من أعمق نومة أتذكر أني نمتها.

فتحت عينيّ فرأيت نافذة حجيرة ويست وأحد مصراعيها مفتوحًا، وفي الخارج كان الصباح المصطبغ باللون الرمادي متلفعًا بالضباب البارد الذي تسلل إلى الحجيرة. تقلبتُ وكان ويست نائمًا بجواري، ولم أر وجهه من قبل بهذا الصفاء. لا تزال رائحته كرائحة المياه المالحة، وأزحت خصلة شعر من فوق جبينه قبل أن ألثمه على خده.

أحسست ببرودة الجو حين انزلقت من تحت الغطاء، وسرت ناحية النافذة، حيث وقفت أرقب مشهد البحر المصطبغ باللون الفضي هادئًا وباعثًا على الرهبة قبل أن تمسه أشعة الشمس الدافئة. لم يفتح ويست عينيه وأنا أرتدي ملابسي، ولا تزال أنفاسه عميقة وطويلة.

أضاء الضوء الشاحب جانبًا واحدًا فقط من وجهه، وبدا مطمئنًا جدًّا في تلك اللحظة، ونقيًّا للغاية.

خطوت حافية القدمين عبر الحجيرة، وفتحت الباب ببطء ثم انطلقت في الممر الجانبي المفتوح، كان السطح خاويًا، باستثناء أوستر الذي كان جالسًا عند صدر السفينة بجوار صف من الطيور البحرية الجاثمة، وكأنه واحد منها. توقفت خطواتي وأنا أنظر إلى الخلف صوب باب ويست المغلق، ولاحت ابتسامة ذات مغزى على وجه أوستر وهو يسحب نَصْل السكين إلى أسفل قطعة الخشب في يده، بيد أنه لم يرفع عينيه. كان يتظاهر بأنه لا يدري شيئًا عن علاقتي بويست كما يتظاهر الجميع بعدم معرفة علاقة الأخوة بين ويست وويلا.

وفي تلك اللحظة شعرت بأنني جزء من الطاقم أكثر مما كنت وأنا أرشدهم في بحر شرك العواصف.

تورد وجهي مرة أخرى، وأنا أتكئ على الصاري، وأنتعل حذائي.

قفز أوستر للأسفل وأتى نحوي، ثم سألني: «إلى أين أنت ذاهبة؟».

نشرتُ السلم المطوي فصفع جانب السفينة، وقلت: «ثمة شيء آخر يتعين عليَّ فعله قبل أن ننطلق»، ورفعت إحدى رجليَّ من فوق السور تجاه السلم، ثم هبطت حتى وصلت إلى الرصيف.

كان الضباب كثيفًا لدرجة أنني لم أستطع حتى رؤية السفن في القنوات المائية، كانت صواريها تلوح منبثقة من الضباب الأبيض هنا وهناك ثم تتوارى بحسب تماوج الضباب. رفعت وشاحي على فمي الذي لا تزال الابتسامة مرتسمة عليه وأنا أعبر من تحت مدخل الميناء المقوس. وجعلت أعيد عرض ذكرى الليلة الفائتة مرارًا وتكرارًا في ذهني، وأنا مغمورة بعذوبة نظرة ويست إليَّ في ضوء الشموع، والإحساس الذي استشعرته معه.

كانت القرية هادئة والشوارع الفارغة تتلوى بين المباني المتزاحمة، ولم يطرق أذني سوى صوت دبيب خطواتي وأنا أسير. انقضت ساعة أخرى قبل أن تعلو الشمس في السماء، ويشق نورها عباب الظلمة وينقشع الضباب.

ولاحت أمامي ثلاث مداخن يتصاعد منها الدخان، فانطلقت صعودًا على المنحدر شديد الانحدار المفضي إلى المشرب. وفي أثناء دخولي من باب المشرب لمحت انعكاسي على النافذة، فتوقفت وعدت إلى الزجاج ذي السطح غير المستوي، وخلعت غطاء رأسي، وحدقت إلى وجهي ويداي تتحسسان خديَّ المتوردين.

لقد بدوت شبيهة بها بدرجة أكبر مما لاحظته في المرآة التي كانت في غرفة سينت؛ عظام وجهي وطيف الحمرة العميقة الذي يصبغ شعري، حتى كاد شعري يتوهج في الضباب، وهو

منتشر من عند ياقة سترتي المزرورة ومنسدل على صدري.

التمع بريق أزرق من خلف النافذة، فتجمدت، وعيناي مركزتان على ما وراء صورتي المنعكسة على الزجاج. وألصقت إحدى يديّ بالزجاج والدموع المحتشدة تلهب عينيّ بالفعل.

على الجانب الآخر من النافذة جلس سينت إلى طاولة وأمامه إبريق أبيض مترع بالشاي. رنا إليّ ورنوت إلى وجهه المعذب، وكأنه هو أيضًا يراها.

إيزولد.

دفعت الباب، ودلفت إلى الداخل حيث كانت النيران مشتعلة في الموقد، وتملأ المكان بحرارة في جو قليل الرطوبة، وتسللت تلك الحرارة إلى داخل سترتي فبثت الدفء في جسدي. جلس سينت وياقة معطفه مرفوعة حتى غطت نصف وجهه، وسحبت الكرسي بجانبه على الطاولة وجلست.

قلت: «لم أر سفينتك في الميناء»، وأدركت فجأة أن الشعور المنبعث في داخلي لم يكن غضبًا، لقد سرتني رؤيته رغم أنني لم أكن متأكدة من الباعث على ذلك.

أتت امرأة بكوب آخر، ووضعته أمامي مع ثلاثة مكعبات من السكر على حافة الطبق الصغير.

نظرت إلى إبريق الشاي وقلت: «أتسمح لي؟»، فتردد قبل أن يهز رأسه بالموافقة، ثم سألته: «ماذا تفعل هنا يا سينت؟».

راقبني وأنا أملأ كوبي والضوء القادم من النافذة يضيء عينيه الزرقاوين زرقة صافية، ثم قال: «جئت لأرى ما إذا كنتِ قد فعلت ما ظننت أنك ستفعلينه».

حدجته وأنا أصر بأسناني، ثم قلت: «لا تستطيع أن تنسب الفضل لنفسك في هذا، ليس هذه المرة».

قال: «ليس هذا ما قصدته».

فسألته: «فماذا قصدت إذن؟»، ورفعت الكوب إلى فمي فامتلأ وجهي بالبخار المتصاعد، وانفعم أنفي برائحة الليمون والخزامى.

اتكأ على الطاولة وهو ينظر إليّ وقال بصوت مرهق: «سوف تهلكين نفسك يا فيبل. مثلما أهلكتْ نفسها».

عندئذٍ أحسست بالشاي يحترق في فمي وهو ينطق بهذا، وضعت الكوب على الطاولة وكورت يدي المرتجفة في حجري. سرني في تلك اللحظة أنه لم ينطق اسمها؛ لقد علمت أنها ميتة، أحسست بذلك في روحي حين جدفنا بالقارب مبتعدين عن السفينة لارك وهي تغرق، لكن هذه الحقيقة من فم أبي صارت ضربًا مختلفًا من الحقيقة.

تنهدتُ. ليس أسوأ من الألم المستوطن روحي إلا معرفة أنه يستطيع رؤية ذلك الألم.

ثم أردف: «ما من شيء تثبتينه يا فيبل. ارجعي إلى سيروس و...»

فقاطعته: «هل تحسب أنني فعلت هذا لأنني أحاول إثبات شيء ما؟ أنا أفعل هذا لأنه خياري الأوحد». خرجت الكلمات مريرة، لأنها لم تكن الحقيقة الكاملة، لقد فعلت ذلك لأنني أيضًا أردت ماريجولد وويست، لكن هذه أمور أجلّ من أن تقال لرجل مثل سينت.

قال: «أنت لا تفهمين أي شيء».

فهتفت وصوتي يتردد في المكان الخاوي: «اشرح لي إذن. أخبرني! أعلم أنك لا تعرف كيف تحبني، أعلم أن هذا أمر تعجز عن بذله؛ لأنه ليس من طبيعتك ولا طبعك، لكنني ظننت أنك

أحببتها. كانت ستبغضك لنبذك إياي على تلك الصخرة، كانت ستلعنك على ذلك»، وجاش صدري بغضب قوي، بيد أنني ألجمت نفسي عن خبط الطاولة بقبضتيّ.

نظر إلى الشاي وجسده متصلب، ثم قال: «أقسمت لأمك أنني سأحافظ على سلامتك. وما من مكان أخطر عليك في هذا العالم من جواري».

تشابكت أصابعي في حجري والتفتُّ إلى النافذة وأنا لا أستطيع حبس دموعي. لطالما أردت أن أسمعه يقول إنه يحبني، وددت في مرات لا تحصى أن أسمعه ينطقها، لكن في تلك اللحظة ساورني خوف مباغت من أن ينطقها، انتابني رعب من معرفة مدى الأذى الذي سيورثني إياه اعترافه بذلك الحب. ثم قلت بغضب: «لقد كنت مخطئًا بشأن أمور كثيرة، لكن الأهم أنك كنت مخطئًا بشأني».

فتساءل: «ماذا يعني ذلك؟».

عندئذ أعدت على مسامعه كلماته التي لم تفتأ تتردد في رأسي مذ اليوم الذي هجرني فيه: «قلت إنني لست من طينة تناسب هذا العالم».

ابتسم ابتسامة عريضة بما يكفي لظهور التجاعيد حول عينيه، ثم قال: «وقد عنيت ذلك».

فحدجته بنظرات غاضبة وأنا أقول: «أنّى تقول هذا؟ إنني ها هنا. لقد استنقذتُ نفسي من جزيرة جيفال. ولقد وجدتُ لنفسي طاقمًا. أنا فعلت ذلك».

عندئذٍ قال: «إنك لا تعرفينه».

فاستنفرت وقد أدركت أنه يتحدث عن ويست.

أردف: «إنه ليس كما تظنين».

انقبضت عضلات فكي وازدردت ريقي في اضطراب؛ لأن هذا يخالف دأب سينت الذي عرفته؛ ثمة حقيقة ثقيلة في نبرته لم أرغب في سماعها.

وحينئذ رفع عينيه ناظرًا في عينيّ، وخُيل لي أنني ألمح التماعة عبرات تترقرق في محجريه، ثم قال بصوت أجش: «إنك من طينة تناسب عالمًا أفضل بكثير من هذا العالم يا فيبل»، وتابع قائلًا: «كنتُ صغيرًا، لم أكن قد تعلمت القواعد حين جاءت إيزولد تطلب مني ضمها إلى طاقمي»، وتحولت كلماته إلى همس وهو يقول: «لقد أحببتها حبًّا حطمني».

ومسح الدمعة الهاربة من عند زاوية عينه وهو يهبط ببصره إلى الطاولة. من دون تفكير مددت يدي على الطاولة وتلقفت يده بيدي، كنت أعرف ما يقصده لأنني قد رأيت الأمر في زمان ولى، الجميع رأوا ذلك، لقد كانت إيزولد بمثابة الرياح والبحر والسماء في عالم سينت، كانت بمثابة النجوم التي يهتدي بها في الظلام، كانت بمثابة اتجاهات بوصلته التي يسترشد بها، ولقد ضاع من دونها.

جلسنا هنالك في صمت نشاهد القرية تنبض بالحياة خارج النافذة، وفي الفترة التي قضيناها في احتساء الشاي بدا كل شيء كسابق عهده في ذاك الزمان الغابر، رائحة دخان نبتة البوصير التي تملأ معطف أبي، وقرقعة الأكواب مع اتقاد النار من ورائنا. وهكذا شهد شروق الشمس لحظة الوداع الصامت بيننا.

عندما نرجع إلى سيروس سيسدد ويست دينه وستكون ماريجولد لنا.

ارتكزت بذقني على يدي وأنا ألوي خصلات شعري على أصابعي وأرنو إلى وجهه، وأحفظ كل تجاعيده، وكل خصلة فضية في شاربه، وتناسق لون عينيه مع لون معطفه الأزرق. دسست الصورة في قلبي غير عابئة بما قد تورثني إياه من أوجاع.

أحدث الكرسي صريرًا فوق أرضية الحجيرة حين حركته وأنا أنهض، وطأطأت لألثمه على قمة رأسه، وطوقت كتفيه بذراعيَّ لهنيهة، وانسلت من عينيه دمعتان على وجنتيه

الخشنتين قبل أن تذوبا في لحيته.

حين فتحت الباب لم ألتفت إلى الوراء.

لأنني عرفت أنني لن أرى أبي مرة أخرى.

الفصل الثاني والأربعون

لاح سقف مقر المُقايض في نهاية الزقاق حين انعطفت، قبع هنالك مشمولًا بذيول ضباب الصباح الموشك على الانقشاع، وعلى الباب لافتة معلقة تعكس الضوء.

ارتقيت الدرج، وطرقت على النافذة بقبضتي، ومن ورائي امتلأ الشارع بالعربات في طريقها إلى السوق. وحين لم يجبني المقايض دققت النظر عبر الزجاج المتسخ حتى ظهر المقايض في عتمة المكان قبل أن يعرج نحو الباب وهو يضيق عينيه اتقاءً للضوء، ولما فتح الباب انطلقت إلى الداخل.

قال متبرمًا: «ما هذا بحق الـ...»

قصدتُ مباشرة إلى الخزانة في الجزء الخلفي، وطأطأت لأنظر داخل الخزانة التي تراصت فيها صفوف من الصواني المبطنة بالقطيفة تحوي سلاسل فضية وحليًا متلألئة، بيد أن ما جئت لأجله لم يكن هنالك.

قلت وأنا أنتقل إلى الخزانة المجاورة: «آخر مرة أتيتك فيها أعطيتك خاتمًا ذهبيًّا مقابل خنجر مرصع بالأحجار الكريمة وسوار».

فقال: «أتدرين كم عدد الخواتم لديَّ يا فتاة؟».

فقلت: «هذا الخاتم مختلف، ثمة حزوز تطوق هيكله المعدني كله».

لم أدرك أن المقايض كان شبه عارٍ إلا حين رفعت عيني، إذ كان يرتدي قميصًا طويلًا منسدلًا على أعلى رجليه العاريتين مثل التنورة القصيرة. تأفف وشقّ طريقه حول المنضدة، ثم سحب علبة خشبية سوداء من خزانة أخرى، ووضعها على المنضدة أمامه، ثم انحنى تجاهها وهو يحدجني.

رفعت غطاء العلبة فسقط الضوء القادم من النافذة على مائة خاتم ذهبي يلتمع، خواتم بشتى الأحجام، بعضها مطعم بالأحجار وبعضها معدن فقط. جال بصري على الخواتم حتى عثرت عليه.

التقطته ورفعته أمامي وجعلت أقلبه في الضوء وقلت: «ها هو ذا، كم ثمنه؟».

فقال: «عشر عملات نحاسية ما دمت ستخرجين من هنا».

ابتسمت ووضعت المبلغ على المنضدة، ثم انطلقت نحو الباب فدق الجرس من فوقي حين فتحته، وهبطت الدرج، وفككت الرباط الجلدي الذي ربطتُ شعري به، وأدخلته في الخاتم لأصنع ما يشبه القلادة لأطوق به رقبتي، ثم زررت السترة بالكامل.

انقشع الضباب أخيرًا حين أطلت الشمس فوق أسطح البيوت، ورحت أتطلع إلى ديرن المتألقة تحت النور. وتبدّت لي ذكريات كثيرة تزحف حية عبر الأزقة. وفي طريق عودتي مررت بالمشرب، فلمحت طاولة سينت خاوية، ولمحت كوبي الشاي قابعين عليها وحيدين.

ثم دق جرس فتح مقر السوق، وانطلقت في طريق جانبي مختصر إلى الميناء كي لا أصادف أي تجار تعاملت معهم البارحة. يجب أن نغادر الميناء فرارًا من الأحاديث التي ربما بدأ الناس في تداولها عنا بالفعل، وبالتأكيد يعمل الطاقم الآن على تجهيز السفينة استعدادًا للانطلاق.

«أمر مخزٍ حقًا».

ترامت الجملة إلى مسامعي قادمة من فتحة الزقاق التالي، فتوقفت وأنا أحدق إلى الظل الزاحف فوق الأحجار المرصوفة أمامي، وتمدد الظل وتعاظم مع خروج زولا من وراء جدار مطلي باللون الأبيض ومعطفه الأسود مشدود حوله اتقاء للرياح.

عاد يقول: «إنه لأمر مخزٍ حقًا أن أراك تهدرين وقتك مع مثل ذلك الطاقم يا فيبل».

انطلقت يدي وراء ظهري التماسًا للسكين المغمدة في حزامي. لم أخبره باسمي مطلقًا، فسألته: «كيف تعرف هويتي؟».

فضحك ورأسه يميل إلى الجانب حتى تتسنى له رؤيتي من تحت حافة قبعته، وقال: «إنك تشبهينها تمامًا».

اضطرب خفقان قلبي، واجتاحني ذعر جعلني أحس بالترنح.

ثم أردف: «ومثل والدتك تمامًا، اتخذتِ بعض الخيارات الحمقاء حقًّا».

وعندئذٍ برز ثلاثة رجال من الزقاق خلفه.

فنظرت من فوق كتفي إلى الوراء صوب الشارع الخالي المفضي إلى مقر المقايض، لم يكن فيه أي أحد ليشهد أيًّا ما اعتزم زولا فعله، وغالب الظن أنه لا يقصد بي خيرًا.

تقهقرت ويدي المرتجفة تهز السكين، لن أقدر على تجاوزهم، لكن إن عدت وسلكت الطريق ورائي فسيكون عليّ الركض لمسافة أطول لبلوغ الميناء.

لم يكن ثمة متسع من الوقت للتفكير، استدرت على عقبيّ، وأطلقت ساقيّ للريح والسكين في قبضة يدي. كان حذائي يصفع حجارة الطريق المبللة محدثًا جلبة، وتضاعفت الجلبة حين ركض الرجال ورائي.

نظرت للوراء إلى حيث يقف زولا والرياح تعبث بمعطفه، وحين أعدت وجهي أمامي مرة أخرى ارتطمت بشيء صلب، فسقطت وطارت السكين من قبضتي وذراعاي تطوقان كتفيّ.

أمسكني أحدهم فجعلت أصيح وأنا أدافع الرجل: «دعني! اتركني!»، لكنه كان شديد القوة.

ثم طوحت قدمي وركلته بركبتي ركلة سريعة بين رجليه؛ فهوى إلى الأمام وهو يختنق بالتأوهات. كان ممسكًا بي رغم ألمه فسقطنا معًا، وارتطم رأسي بحجارة الطريق المبللة

فزاغ بصري.

ثم مددت يدي إلى حذائي، واستللت السكين التي أعطانيها ويست، وعندما اقترب مني رجل آخر لوحت بالسكين حتى أصبته في ساعده، فنظر إلى الدم المنساب من تحت كمه قبل أن يمد يده للأسفل ويمسك بسترتي، وانتزع الرجل الثالث السكين من قبضتي.

عندما رفعت عينيّ مرة أخرى شاهدت قبضته مطوحة في الهواء قبل أن تهوي بكل قوة على وجهي، فانفجر الدم في فمي، وحاولت الصراخ، لكنه عاجلني بضربة أخرى، فزاغ بصري، وبدأت أرى السواد يزحف إلى مجال رؤيتي، ومع ضربة أخرى استحال المشهد سوادًا حالكًا.

الفصل الثالث والأربعون

لقد كان حبًّا حطمنا جميعًا.

اعتلت أمي الصاري، مجرد شبح أسود في مقابل قرص الشمس الساطع من فوقها، والذي أرسل أشعته المتألقة من حولها. وتهادت جديلتها ذات الحمرة الداكنة وهي تتسلق، في حين وقفت أنا على سطح السفينة بالأسفل تحت ظلها المتراقص.

لقد كانت بمثابة الشمس والبحر والقمر جميعًا، كانت بمثابة النجم القطبي الذي أرشدنا إلى الساحل.

هذا ما قاله أبي، ثم تبدد صوته مع تماوج الرياح فوق الأشرعة وهي تفرقع.

بيد أنني لم أكن على متن السفينة لارك.

كان مذاق الدم لا يزال على لساني حين فتحت عينيّ، لكن الضوء كان شديد السطوع. كل أنملة في وجهي يخفق ألمًا، وتورمت زاوية عيني حتى إنني بالكاد أستطيع الرؤية من خلالها. نظرت إلى أعلى صوب الأشرعة المنبسطة من فوقي، فانفتل قلبي في صدري. ولم يكن بوسعي النظر من فوق سور السفينة، لكنني سمعت صوت الماء وهو يلطم بدن السفينة.

كان السطح من أسفلي دافئًا تحت أشعة الشمس، وحين رفعت بصري، ووقعت عينيّ على الشعار غزاني فزع حتى أحسست كأن قلبي يغوص في أحشائي، ووخزتني الدموع المترقرقة في عينيّ حين رأيت شعار زولا المنحوت في المدخل المقوس الخشبي المزخرف.

كانت يداي مقيدتين من ورائي حول الصاري الأمامي، وكان الألم في ظهري يتصاعد في كتفيّ، ثم يهبط إلى معصمي بدفقات سريعة. حاولت التنفس لتهدئة نفسي وأنا أبحث عن أي شيء قريب يمكنني استخدامه لتحرير نفسي.

انزلقت الظلال فوقي مع تجول أفراد الطاقم لتأدية أعمالهم، لكنهم لم ينظروا إليّ. وبحثت عن زولا، بيد أنه لم يكن عند عجلة الدفة. كان الرجال يعملون على الحبال على الصواري، وجلست امرأة ذات شعر قصير وسط كومة من الشباك المنطرحة في نهاية السفينة.

ومن ورائي، عند قاعدة الصاري، لمحت شخصًا أعرفه.

إن الألم الذي أحسسته في جسدي لم يكن شيئًا إذا ما قورن بالطعنة التي أحسستها جراء تعرُّفي عليه. شكل كتفيه وأذنيه المتدليتين تحت قبعته، ويديه المتدليتين على جانبيه، تلك اليدان اللتان كانتا ممسكتين بي حين قفزنا من السفينة لارك الغارقة نحو البحر المتلاطم.

هززت رأسي وطرفت بعينيّ كي تتضح رؤيتي، لكن حين نظرت لأعلى مرة أخرى كان قد استدار وهو يقفز من قاعدة الشراع إلى سطح السفينة، وعندئذٍ رأيت صورة وجهه بأنفه المرتفع وانثناء شاربه الأشقر.

فاجتاح صدري إحساس بالصقيع زحف إلى حلقي، وتجمد الاسم في فمي.

كلوف.

شكر وتقدير

لقد شعرت حقًّا بأن تجربة كتابة هذه الرواية كانت بمثابة مغامرة، ولم أكن لأخوض تلك المغامرة وحدي.

أتقدم بالشكر دائمًا لطاقمي الصغير أولًا - جويل، وإيثان، ويوشيا، وفينلي، وريفر - لتقديمهم الدعم والتشجيع خلال كتابتي للروايات، التي أجدها تجربة شديدة العسر وتحديًا هائلًا. أشكركم على إحضار القهوة في الصباح الباكر، والوجبات التي أحضرتموها إلى مكتبي، والمشروبات التي وضعتموها بجانب حاسوبي المحمول في وقت متأخر من الليل. والأهم من ذلك كله، أشكركم على لمسات الخيال التي تجعل رواياتي نابضة بالحياة.

إلى أبي الذي أهديه هذا الكتاب، انبثقت هذه القصة في ذهني عقب أيام قليلة من رحيلك عن هذا العالم، وحلت أوقات شعرت فيها كأنك تراقبني من فوق كتفي وأنا أكتب تلك الصفحات. ثمة رسائل لك مضمنة في ثنايا هذه الرواية، ولا يساورني شك في أنك ستعثر عليها.

كما أشكر بقية أهلي وأقاربي، أمي، ولورا، ورستي براندون، وريانون، وآدم، وتشيلسي، الحقيقة أنه ما من أحد يداني حبكم في قلبي يا رفاق.

امتناني الكامل لوكيلة أعمالي باربرا بويل، والمحررة إيلين روتشيلد. لقد آمنتما إيمانًا راسخًا بروايتنا هذه، وأنا غاية في السعادة؛ لأننا تمكنا من جعلها ترى النور. وكذلك أقدم امتناني إلى فريقي المذهل في قسم وينزداي بوكس بدار نشر سينت مارتن: سارة جودمان، وتيفاني شيلتون، دي. جي. ديسميتر، وأليكسيس نوفيل، وبرانت جانواي، وماري مواتس - أشكركم على كل ما تبذلونه، ما كان بوسعي أن أبقي هذه السفينة تُبحر من

دونكم. وأشكر كيري ريسنيك، مصممة غلاف روايتنا هذه، لقد أبدعت مجددًا! من حسن حظي أنك وموهبتك بجانبي!

كما أشكر كريستين دوير، رفيقتي التي تقدم لي نقدًا نافعًا، وتعاونني في العمل، وتمدني بالإلهام الروائي. لم تستبد بي الرغبة في خنقك قط كما استبدت بي حين جعلتِني أحذف الفصول الستة الأولى من هذه الرواية، وأعيد كتابتها. أشكرك لأنك لا تسمحين لي أبدًا بتقديم رواية ذات مستوى أدنى من أفضل مستوى أستطيع تقديمه.

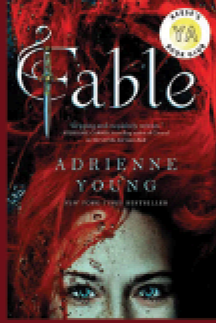
وأشكر أصدقائي الكُتَّاب، لم أكن لأبحر في مياه عالم النشر من دونكم! جزيل الشكر لستيفاني جاربر التي لطالما تسمعني كلامًا يجعلني مؤمنة إيمانًا خالصًا بعملي. كما أشكر توأم روحي شيا إرنشو التي لا أحتاج حتى إلى ذكر تفاصيل بواعث شكري لها؛ لأنها تستطيع قراءة ما في نفسي فعلًا، أنت هبة. وكذلك أتقدم بالشكر لإيزابيل إيبانيز، وراشيل جريفين، وستيفاني بروباكر، وشيلبي ماهورين، وأدالين جريس، وشانون ديتمور، وبقية رفاقي الكُتَّاب.

ولعل أهم مساهم في هذا العمل هو ليل مور، الذي أفادني بخبرته في الإبحار من دون كلل. إن قبولك التعاون معي من حسن حظي! وأنا ممتنة لما بذلته من وقت وجهد وتفانٍ في هذا العمل، شكرًا لك.

وشكرًا لقراء الإصدار التجريبي من الرواية، ناتالي فاريا، وإيزابيل إيبانيز، وفانيسا ديل ريو. لست أدري ماذا كنت سأفعل من دونكم.

وخالص الشكر لجمهور القراء الداعم، للسادة والسيدات، وكل من دعمني طوال هذه الرحلة.

الغلاف الخلفي



تبلغ فيبل من العمر سبعة عشر ربيعًا، وهي ابنة أقوى تاجر في منطقة المضايق، ولا تعرف وطنًا لها سوى البحر. لقد انقضت أربعة أعوام منذ تلك الليلة التي شاهدت فيها أمها تغرق في خضم عاصفة عاتية، وفي اليوم التالي نبذها والدها على جزيرة موسومة بالوحشية؛ تعج باللصوص، وتعاني شُحًّا في الطعام. ولكي تنجو بحياتها يجب أن تحذر من الناس وهي تتدبر أمر نفسها، وتتعلَّم ألا تثق بأحد، وتتسلَّح بالمهارات الخاصة التي علَّمتها أمها إياها. وما من شيء يؤجِّج عزمها على مواصلة السعي إلا غاية تتمثل في مغادرة تلك الجزيرة، والعثور على والدها، والمطالبة بحقها في أخذ مكانها بجواره، والإبحار مع طواقمه. ولتحقيق ذلك تستعين فيبل بتاجر شاب يدعى ويست لإخراجها من الجزيرة، والإبحار بها عبر منطقة المضايق لتصل إلى والدها.

بيد أن الصراعات التي تحيط بوالدها، والمخاطر التي تحف بمشروعه التجاري قد تضاعفت منذ آخر مرة رأته فيها. ولم تلبث فيبل أن تكتشف أن ويست على خلاف ما ظنته؛ إذ تكشَّفت لها جوانب خفية فيه. وإذا أرادا النجاة، فسيتعيَّن عليهما خوض أهوال أخرى أفظع من أهوال العواصف الفاتكة التي تجوب منطقة المضايق.

مرحبًا بك في عالم يحُفُّ بالأخطار؛ أخطار يخلقها البحر، ويثيرها الطامعون في استغلاله لجني الأرباح؛ حيث يتعين على فتاة يافعة تثبيت أقدامها في هذا المحيط، وخوض غماره للعثور على عائلتها، وفي الوقت ذاته تحاول النجاة في عالم يهيمن عليه الرجال. وتصحبك فيبل في رحلة مذهلة حافلة بالشاعرية والمؤامرات والمغامرات.




ISBN 628-1072-14-040-3
6 281072 140403
282208753



